لواء

أسامة المندوه

خلف خطوط العدو

من بطولات حرب أكتوبر ٧٣

دار الشروق

خلف
خطوط
العدو

خلف خطوط العدو

من بطولات حرب أكتوبر ٧٣

أسامة المندوه

تحرير وتوثيق
خالد أبو بكر

الطبعة الأولى٢٠١٧

تصنيف الكتاب : تاريخ / بطولة عسكرية

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر القاهرة مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠٠٠٠/ ٢٠١٧
ISBN 978-977-09-3440-1

تصميم الغلاف: هاني صالح

لواء
أسامة المندوه

خلف خطوط العدو

من بطولات حرب أكتوبر ٧٣

تحرير وتوثيق
خالد أبو بكر

دار الشروق

إهـــــداء

إلى القوات المسلحة المصرية الباسلة

إلى الملايين من المصريين الذين لم يشهدوا

ملحمة العبور ونصر أكتوبر العظيم

إلى أسرتي وأبنائي وأحفادي

المحتويات

مقدمة

لن أستطيع نسيان ذلك اليوم الموعود من أيام سبتمبر ١٩٨٩ ما حييت. كنت وقتها قنصلًا عامًّا لمصر في تل أبيب، عندما توجهت خلال ذلك اليوم إلى إحدى قرى مدينة حيفا الواقعة أعلى قمة «جبل الكرمل» لتلبية دعوة للغداء وجهت إليَّ من جانب أحد أنصار حزب «الليكود» الإسرائيلي. لا أستطيع - مهما أوتيت من فصاحة - أن أصف روعة الأجواء في هذه البقعة السحرية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، والتي تصل لأعلى معدلات إبهارها في هذا الوقت من الخريف كل عام. فلا مجال أمامك على امتداد البصر وأنت تسير بين جنبات «الكرمل» إلا أن تمتع ناظريك بتلك المروج الفسيحة الخضراء التي تحيط بك من جميع الجهات، وتنتشر عليها في تناسق بديع أشجار السنديان برشاقتها البادية وأطوالها التي تكاد تلامس عنان السماء، وإلى جوارها ترابط أشجار البلوط واللوز البري، التي تتعايش في وداعة جنبا إلى جنب مع أشجار العنب والزيتون.

ما يضاعف هذا الجمال الأسطوري الذي تحظى به الطبيعة الخلابة في حيفا هو تعانق تلك الزرقة الصافية لصفحة السماء مع مثيلتها التي تكسو سطح البحر؛ فتشعر من دون أن تدري أن هذه البقعة من أرض فلسطين التاريخية هي ملتقى لعناق أزلي بين الأرض والسماء.

نحو ١٥ عامًا كانت قد مرت على حرب أكتوبر ١٩٧٣ عندما ذهبت لتلبية هذه الدعوة، رفقة «محمد بسيوني»[١] السفير المصري الأسبق في إسرائيل، و«ديفيد

---

(١) السفير محمد بسيوني (١٩٣٧ - ١٨ سبتمبر ٢٠١١): هو عسكري ودبلوماسي مصري. شغل منصب سفير مصر في إسرائيل قبل أن يصدر الرئيس محمد حسني مبارك قرارًا بسحب السفير المصري من إسرائيل؛ احتجاجًا على ممارسات إسرائيل الوحشية في الانتفاضة الفلسطينية الثانية سنة ٢٠٠٠م.

ليفي»[١] وزير الخارجية الإسرائيلي آنذاك، وضيف ثالث قدمه لنا المضيف بقوله: «فلان.. ضابط احتياط في الجيش الإسرائيلي، ينتمي إلى الطائفة الدرزية. شارك في حرب يوم الغفران (٦ أكتوبر ١٩٧٣)، وكان قائدا لوحدة قصاصي الأثر في وسط سيناء خلال هذه الحرب، برتبة رائد».

***

بعد أن انتهى المضيف من تقديم هذا الضابط الإسرائيلي إلينا تقابلت عيناي بعيني السفير «محمد بسيوني» في ذات اللحظة مع ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفاه كلَيْنا، ويبدو أن المعنى الذي وصلني قد وصله؛ ذلك أنه كان على علم بتفاصيل البطولة التي مَنَّ الله عليَّ بالقيام بها خلال حرب أكتوبر المجيدة، وهي تنفيذ مهمة استطلاع خلف خطوط العدو الإسرائيلي في عمق سيناء، طيلة ٦ أشهر، بدأت مع آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣، بينما كان الرجال على طول جبهة قناة السويس يخوضون معارك شرسة لمنع قوات النسق الثاني للعدو من الوصول لخط القناة بهدف إحباط عملية العبور برمتها، في الوقت الذي كان فيه رجال «المهندسين العسكريين» المصريين يقاتلون الوقت بجسارة للانتهاء من فتح الثغرات في الساتر الترابي المعروف باسم «خط بارليف» الذي أقامه الاحتلال بطول الضفة الشرقية للقناة؛ تمهيدًا لتشغيل الجسور (الكباري) التي ستعبر عليها قواتنا الرئيسية إلى سيناء بأسلحتها الثقيلة لاستكمال تحرير الأرض والاستعداد لصد الهجوم المضاد الرئيسي للعدو.

لقد كان هذا الضابط الإسرائيلي الذي يجلس أمامي الآن، على بعد خطوات مني خلال رحلة البحث الشاقة التي خاضتها وحدة قصاصي الأثر الإسرائيلية التي كان يقودها في محاولة للقبض على «المجموعة لطفي» التي كنت أقودها في قلب قواتهم وخلف خطوطهم من موقع متقدم في وسط سيناء، بالتحديد عند منطقة «بير جفجافة ووادي المليز»[٢]، فمن خلال «نقطة الملاحظة» التي تمركزت فيها المجموعة تمكنا

---

(١) وُلد ديفيد ليفي في الرباط بالمغرب في سنة ١٩٣٧، وبقي فيها إلى أن تخرّج في المدرسة الثانوية. وهاجر إلى إسرائيل في ١٩٥٩ واستقرّ في بيت شِئَان. تولى منصب وزير الخارجية لمرات عديدة، خلال الفترات التالية: (١٩٩٠- ١٩٩٢) و(١٩٩٦- ١٩٩٨)، وفي يوليو ١٩٩٩ عُيّن ليفي مجددًا وزيرًا للخارجية ونائبًا لرئيس الوزراء، واحتفظ بهذين المنصبين حتى استقالته في أغسطس ٢٠٠٠. في إبريل ٢٠٠٢، عُيّن ليفي وزير دولة واستقال في تموز يوليو ٢٠٠٢.

(٢) تبعد منطقة «بير جفجافة» و«وادي المليز» الواقع إلى الجنوب منها، شرق قناة السويس في اتجاه الإسماعيلية بمسافة تصل إلى نحو ٩٠ كيلومترًا.

من وضع التحركات الإسرائيلية أمام القيادة المصرية لحظة بلحظة؛ سواء التحركات الجوية - صعودا وهبوطا - في مطار المليز الحيوي، أو نشاط العدو في «مركز القيادة والسيطرة» الإستراتيجي في منطقة «أم مرجم» القريبة من مطار المليز، والتي يحدها من الشمال «جبل قديرة»، ومن الجنوب «جبل سحابة»، وتشرف على «الطريق الأوسط»، محور الاقتراب الرئيسي للعدو في وسط سيناء.

كذلك أمكن للمجموعة من خلال تمركزها في هذه النقطة الحاكمة رصد التحركات الأرضية للعدو على شبكة من الطرق الإستراتيجية، أهمها «الطريق الأوسط»، الذي تندفع عليه الأرتال الإسرائيلية في اتجاه جبهة القتال بطول شاطئ قناة السويس غربًا، أو العودة إلى الخطوط الخلفية وعمق إسرائيل شرقا؛ ذلك أن هذا الطريق الإستراتيجي يربط بين الإسماعيلية (عند موقع المعدية نمرة ٦) والعوجة على خط الحدود المصرية - الفلسطينية، ويمتد حتى يصل إلى بئر سبع والخليل والقدس.

كما تمكنت المجموعة من رصد التحركات الإسرائيلية على الطريق العرضي الواقع شرق منطقة الممرات (أو المضايق) الجبلية الإستراتيجية في عمق سيناء[١]، والواصل بين «الطريق الأوسط» شمالا، مرورًا بـ«طريق الجدي»[٢]، وصولا إلى «طريق متلا»[٣] جنوبًا. ويعرف هذا الطريق باسم «وصلة الجفجافة - بير تمادة»[٤]، التي تستغلها إسرائيل في أعمال «المناورة بالقوات»[٥] بين المحورَيْن الأوسط والجنوبي في سيناء.

---

(١) تتحكم في شبه جزيرة سيناء مجموعة من المضايق ويطلق عليها اسم (الممرات) أحيانًا، ولها أهمية إستراتيجية وعسكرية كبيرة، وأهمها «ممر متلا» و«ممر الجدي» في القطاع الجنوبي، و«ممر الخثمية» في القطاع الأوسط.

(٢) طريق الجدي، يصل بين منطقة جنوب البحيرات المرة غربًا ووادي المليز شرق الحائط الجبلي، مخترقًا جبل الجدي، في ممر طويل.

(٣) طريق متلا، يصل بين الشط وصدر الحيطان شرق الحائط الجبلي، حيث يتفرع شمالًا إلى تمادا، وجنوبًا إلى نخل.

(٤) يقع هذا الطريق (الجفجافة - بير تمادة) ضمن المحور العرضي الذي يقطع سيناء شرق المضايق الجبلية الإستراتيجية، والممتد من «بئر العبد» شمالًا، مرورا بـ«بير الجفجافة» و«بير تمادة» و«صدر الحيطان» (في الوسط)، وصولا إلى «عين سدر» جنوبا.

(٥) «المناورة العسكرية»: هي مزيج من النيران والحركة يهدف إلى تدمير العدو، بأقل قدر من الخسائر. وتنقسم إلى مناورة بالقوات، وتعني قدرة التشكيلات والوحدات بوسائل دعمها على التحرك السريع والمنظم لتوجيه ضربات حاسمة إلى مؤخرة العدو وأجنابه. وتعني المناورة بالنيران نقل النيران من مجموعة أهداف إلى مجموعة أهداف أخرى؛ لتحقيق التدمير المتتالي لها.

رحت أتفحص هذا الضابط الإسرائيلي الذي كان رجاله على بعد أمتار مني أثناء بحثهم عن المجموعة التي كنت أقودها خلف خطوطهم؛ ذلك أن ملامحهم بتقاطيعها مازالت محفورة في ذاكرتي كما رأيتها بعينيَّ من خلال عدسة جهاز الـ«نيكلز»[1] المعظم للرؤية أثناء فترة عمل المجموعة التي كانت إسرائيل مستعدة لدفع أي ثمن للقبض عليها ولم تنجح في ذلك؛ فقد كان توفيق الله وتأييده ونصره حليفنا في أداء مهمتنا على أكمل وجه، وتوج مجهودنا باستقبال المشير أحمد إسماعيل[2]، وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة خلال حرب أكتوبر، لرجال المجموعة فور العودة إلى القاهرة بعد انتهاء المهمة في مارس ١٩٧٤، وتقليدهم أرفع الأوسمة والأنواط، مع آخرين ممن قاموا بأعمال مماثلة من رجال قواتنا المسلحة الباسلة.

امتلأت بالفخر وأنا جالس في مواجهة هذا الضابط الإسرائيلي الذي رحت أتفرس ملامحه، بينما ترتسم على وجهي ابتسامة قاتلت للسيطرة عليها والتحكم فيها بالشكل الكافي. ولما فشلت في ذلك قلت: دعهم يعتبرونها نوعا من المجاملة. قلت لنفسي: إن المعنى الوحيد لوجودي أمام هذا الضابط الإسرائيلي الآن أنني انتصرت عليه، وفي شخصي وشخصه تجسد ذلك الحوار - الذي كان بالنار والنابالم والعلم والمعرفة - بين مصر وإسرائيل في ذلك الخريف العاصف من سنة ١٩٧٣، وربحته «أم الدنيا» التي حقق أبناؤها البررة في هذه الحرب المجيدة معجزة على أي مقياس عسكري، بتعبير الرئيس الراحل محمد أنور السادات.

لا أستطيع أن أصف تلك النشوة وذاك الفخر والاعتزاز بما قامت به قواتنا المسلحة وأنا في هذه اللحظة التي أجلس خلالها في إحدى البقاع السحرية أعلى قمة «جبل الكرمل» الفلسطيني. كنت أشعر أن كل شجرة أو زهرة أو نسمة هواء أو موجة في بحرها تشاطرني السعادة التي انتابتني في هذه اللحظات.. وهل على الدنيا نشوة أكثر متعة وحلاوة من نشوة الانتصار وتحرير الأرض؟!

***

(١) الـ«نيكلز»: هو جهاز أكبر من نظارة الميدان المعظمة، لكنه بعدسة واحدة، أي يتم النظر فيه بعين واحدة، ولديه قدرة كبيرة على تكبير الأهداف على مدى بعيد.

(٢) المشير أحمد إسماعيل علي (١٤ أكتوبر ١٩١٧ـ ٢٥ ديسمبر ١٩٧٤) القائد العام للقوات المسلحة ووزير الحربية المصري خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣، وشغل قبلها منصب رئيس المخابرات العامة المصرية ورئيس أركان القوات المسلحة.

فور أن انتهى الحفل، وبمجرد وصولنا الطريق المؤدي إلى تل أبيب قفز محمد بسيوني صائحًا في وجهي:

هل نحن في حلم؟!

أنا على استعداد لأن أتحمل من مالي الخاص تكلفة إنتاج فيلم سينمائي يحكي قصتك في حرب أكتوبر لشباب مصر والعرب يبدأ من هذه اللحظة.. من هنا .. من حيفا.. لحظة لقائك بالرجل الذي لم يكن يشغله لفترات طويلة إلا القبض عليك خلال تواجدك خلف خطوط إسرائيل في عمق سيناء خلال الحرب.

الحقيقة أن هذه اللحظة كانت فارقة في قراري المرتبط بكتابة قصتي في حرب أكتوبر ١٩٧٣. كانت فكرة الكتابة تلح عليَّ بالفعل، لكن شواغلي في عملي الدبلوماسي الذي التحقت به بعد انتهاء خدمتي في القوات المسلحة كانت تلتهم كل وقتي. لكنني كنت على يقين بأن لحظة ستأتي أجلس فيها لكتابة هذه القصة، التي تظهر حجم البطولة التي قامت بها قواتنا المسلحة في هذه الحرب المجيدة، وتلك التضحيات الجسام التي قدمها رجالها لأجل رفعة هذا الوطن وتحرير أرضه، واسترداد عزته وكرامته وكبريائه.

بعد انتهاء عملي الدبلوماسي أجريت محاولات عديدة لكتابة هذه القصة، بتشجيع وحماس كبيرين من عدد من الصحفيين والإعلاميين البارزين، الذين عرضوا - ولهم مني كل الشكر والامتنان - كتابة هذه القصة توطئة لإنتاجها في فيلم سينمائي، أو نشرها في كتاب مطبوع، غير أن هذه المشروعات لم تكتمل لأسباب مختلفة.

في بدايات سنة ٢٠١٦، ألحت عليَّ فكرة الكتابة بشدة؛ فعرضت الأمر على «دار الشروق» فتحمس المهندس إبراهيم المعلم، رئيس مجلس إدارتها تحمُّسًا كبيرًا لكتابة هذه البطولة وتوثيقها، وهيأ الظروف اللازمة لإخراجها في أبهى صورة. وفي هذا الصدد قدم لي الأستاذ «خالد أبو بكر»، مدير تحرير جريدة «الشروق»؛ لكي أروي له الأحداث، وأعرض عليه ما سبق أن دونته في أوراقي الخاصة على مر السنين عن هذه البطولة ليخرج العمل بالشكل الذي يليق به.

قال لي المعلم: هذا الشاب هو أفضل من يمكن أن يساعدك في كتابة وتوثيق هذا العمل المهم في تاريخنا العسكري.

وقد اعتبرت نفسي محظوظا أن التقيت «خالد أبو بكر» في إنتاج هذا العمل؛ لأنني لمست فيه ثقافة عسكرية رفيعة، لا سيما ما يخص تاريخ حرب أكتوبر ١٩٧٣، وله

في ذلك مؤلفات منشورة ومعتمدة من القوات المسلحة[1]، بالإضافة إلى أنني عرفت أنه قضى خدمته العسكرية «ضابط احتياط» في منطقة «وادي المليز» في وسط سيناء، وهي المنطقة التي عملت فيها مجموعة استطلاع مؤخرة العدو التي كنت أقودها خلال حرب أكتوبر. وبجانب ذلك وجدته ملمًا بطبوغرافية شبه جزيرة سيناء، وعلى علم ودراية بمحاورها الإستراتيجية وطرقها الطولية والعرضية.

كل تلك الأمور عن «خالد أبو بكر» كانت أخبارا سارة بالنسبة لي؛ لأنني أخيرًا وجدت شخصا يعرف الأماكن التي تحركت وتمركزت فيها «المجموعة لطفي»، وكذلك الأهداف الحيوية التي كانت تتابعها، فضلًا عن إدراك الأهمية الإستراتيجية للمنطقة التي حرصت القيادة على مراقبة نشاط العدو فيها. وقد ساعدنا ذلك كله في عرض الأحداث والوقائع التي قامت بها المجموعة خلال فترة تواجدها في هذه المنطقة أيام الحرب بطريقة يستطيع القارئ غير الملم بطبوغرافية وسط سيناء من تصورها وهضمها واستيعابها.

***

إن هذا الكتاب بجانب أنه يحكي قصة البطولة، التي قامت بها «المجموعة لطفي» في القيام بأعمال الاستطلاع خلف خطوط العدو أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣، فإنه يستعرض في بدايته المواجهات العربية - الإسرائيلية، بداية من «حرب فلسطين ١٩٤٨»، التي ولدت أثناءها، أو «حرب السويس ١٩٥٦»، التي شهدتها ووعيتها من خلال أخي الذي شارك فيها، وكذلك بحكم قربنا الجغرافي من بورسعيد مسرح العمليات الرئيسي لحوادثها؛ فكنت أشاهد الطائرات المعادية تحلق في سماء قريتي «أبو ذكري» التابعة لدكرنس- دقهلية في هذا الوقت الباكر من طفولتي، أو «حرب يونيو ١٩٦٧»، التي شاركت فيها - مع دفعتي - قبل تخرجي من الكلية الحربية في أعمال الدفاع عن القاهرة.

أود التنويه إلى أن المنهج الحاكم في كتابة قصة بطولة «المجموعة لطفي» انطلق من وضعها في سياقها الطبيعي، الذي يتمثل هنا في مجمل أعمال القتال التي

---

(١) صدر لخالد أبو بكر كتاب تناول بالتفصيل المراحل المختلفة لحرب أكتوبر ١٩٧٣، من خلال استعراضه لسيرة الفريق سعد الدين الشاذلي، رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة في هذه الحرب المجيدة، بياناته كالتالي: خالد أبو بكر، الجنرال الثائر.. سعد الدين الشاذلي، مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٢م.

خاضتها قواتنا المسلحة خلال هذه الحرب المجيدة؛ ولذلك أستطيع أن أقول – وأنا مطمئن – إن قارئ هذا الكتاب عندما ينتهي منه سيجد أنه لم يصبح ملمًّا فقط بقصة هذه المجموعة التي دفعت بها القيادة المصرية إلى قلب العدو النابض للتمركز قرب مركز أعصابه لعد حركاته وسكناته وآلياته توطئة لكشف نواياه بالعلم والمعرفة لا بالتخمين أو بالتحليل غير المعتمد على معلومات وبيانات كافية ودقيقة، بل إنه سيخرج وهو ملمٌّ بشكل معقول بما أنجزته قواتنا من بطولات خلال هذه الحرب المجيدة يوما بيوم حتى وقف إطلاق النار وما بعده.

من الأمور التي حرصت عليها بشدة أثناء إنجاز هذا الكتاب هو التوثيق الدقيق للحوادث، فلا توجد شهادة لقائد عرضناها مرتبطة بحرب أكتوبر ١٩٧٣.. أو رواية لكاتب أوردناها إلا وذكرنا من أي مصدر استقيناها، بدرجة قد يبدو أن فيها مبالغة في بعض الأحيان، لكنَّ للضرورة أحكامًا.

مرتبط بالتوثيق أيضًا حرصي الأكيد أيضًا على تقديم تعريف للقادة المصريين الذين وردت أسماؤهم في متون هذا الكتاب؛ وذلك عرفانًا بجميلهم، وإعادة تقديمهم للأجيال التي لم تعاصرهم، أو ربما لم تتح لها الفرصة لمعرفة أدوارهم في صنع الانتصار المصري والعربي في ملحمة أكتوبر ١٩٧٣، وفي ذلك عرفان بجميل وفضل هؤلاء الرجال الذين تعلمنا منهم ومن تضحياتهم، التي يجب أن يحاط أبناؤنا وأحفادنا بها علما. كما لم نغفل عن تقديم تعريفات موجزة بأسماء قادة إسرائيل الذين ورد ذكرهم في سياق الحديث عن حرب أكتوبر وما سبقها من حروب من باب «اعرف عدوك».

إن الهدف الرئيسي من نشر هذا الكتاب في هذا التوقيت الدقيق من عمر الوطن هو تنشيط ذاكرة الأجيال الجديدة التي لم تعش لحظات الانتصار الذي حققته قواتنا المسلحة في حرب أكتوبر ١٩٧٣؛ ليتلمسوا عن قرب من خلال عمل «المجموعة لطفي» كيف أنه كان من السهل اليسير على شباب في مثل أعمارهم الآن، أن يندفعوا للتمركز في قلب قوات العدو وتجمعاته وهم يعلمون أنهم يحملون أرواحهم على أكفهم لأجل أن تحيا مصر.

والآن إلى القصة من أولها...

والله الموفق والمستعان.

اللواء أسامة المندوه

الفصل الأول

البراءة على ضفاف البحر الصغير

كانت مصر والأمة العربية في ربيع سنة ١٩٤٨م تعيشان حالة من الغليان خوفًا على ضياع فلسطين، التي بدأ اليهود في بسط سيطرتهم على مساحات شاسعة من أراضيها بقوة السلاح والأمر الواقع في السنوات السابقة على هذا العام؛ للدرجة التي جعلت الجمعية العامة للأمم المتحدة توافق في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م على قرار تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ودولة عربية فلسطينية مع تدويل منطقة القدس. كان التقسيم يعطي ٥٦ ٪ لليهود، و٤٣٪ للعرب، و١٪ ممثلًا في منطقة القدس تم وضعه تحت إدارة الأمم المتحدة.

ما زاد من التعبئة الشعبية العامة على طول العالم العربي وعرضه في ربيع ١٩٤٨ المذابح التي ارتكبتها العصابات الصهيونية منذ مذبحة «دير ياسين»[1] في ٩ أبريل ١٩٤٨، وبعدها. وقد أدت هذه المذابح إلى غضب الرأي العام العربي وخصوصًا بين شباب الجامعات والنقابات المهنية والعمالية، وهي في تلك الفترة أكبر الميادين المفتوحة لحركة وحيوية الرأي العام السياسي، بعد تضاؤل نفوذ الأحزاب السياسية التقليدية لأسباب يطول شرحها.

يحكي الكاتب الصحفي، الأستاذ محمد حسنين هيكل عن واحدة من هذه المظاهرات الحماسية التي تطالب بطرد اليهود من فلسطين بقوله: «لقد شاهدت

---

(١) «دير ياسين» كانت قرية فلسطينية تقع غربي القدس، دخلتها العصابات الصهيونية المسلحة يوم ٩ أبريل ١٩٤٨م، وارتكبوا فيها مذبحة بشعة بقيادة مناحيم بيجن، حيث تقول المصادر الفلسطينية إن عدد ضحايا هذه المجزرة من أهل هذه القرية يتراوح بين ٢٥٠ إلى ٣٦٠ فردا بين رجل وامرأة وشيخ وطفل، من بين عدد سكانها البالغ حينذاك ٧٥٠ نسمة.

بنفسي مظاهرة حاشدة في ميدان الأوبرا ملأته حتى آخره بجماهير تستمع لخطباء ألهبوا حماستها، وكان بينهم وزير دفاع سابق هو اللواء صالح حرب[1]، الذي قام بحركة شبه مسرحية وهو واقف مع غيره من الخطباء على شرفة فندق «الكونتننتال»، فقد ألقى على الأرض بقلم في يده، ورفع باليد الأخرى سيفا ثم صاح: «تكلم السيف فاسكت أيها القلم»[2].

بشكل عام، رحب الصهاينة بمشروع التقسيم الصادر سنة ١٩٤٧م، بينما شعر العرب والفلسطينيون بالإجحاف. كان الانتداب البريطاني على فلسطين ينتهي بنهاية يوم ١٤ مايو ١٩٤٨، وفي اليوم التالي أصبح إعلان قيام دولة إسرائيل ساري المفعول، ومباشرة بدأت الحرب بين الكيان الجديد والدول العربية المجاورة، التي اندفعت للدفاع عن الأرض المقدسة.

عندما اشتعل القتال بين بعض الجيوش العربية (المملكة المصرية ومملكة الأردن ومملكة العراق والمملكة العربية السعودية وسوريا ولبنان) والقوات الإسرائيلية في ١٥ مايو ١٩٤٨، في شكل حرب مُعلَنَة، لم تكن تلك بداية الجولة العربية الإسرائيلية الأولى، فقد اشتعلت تلك الجولة عقب صدور قرار التقسيم (نوفمبر ١٩٤٧م)، واستمرت أكثر من خمسة أشهر في شكل حرب غير معلنة، بين فصائل الفلسطينيين المجاهدين والمتطوعين العرب من ناحية، والمنظمات الصهيونية العسكرية والإرهابية من ناحية أخرى[3].

وبشكل عام، اختلفت أهداف كل مملكة عربية من هذه الحرب ما بين ملوك[4] حالمين بإرث الخلافة الإسلامية رأوا أن فلسطين ربما تكون محطة انطلاق، وآخرين

---

(١) اللواء صالح حرب؛ شخصية بارزة في عالم العسكرية المصرية والسياسة المصرية والعربية، فقد كان نائبًا برلمانيًا في الفترة من ١٩٢٦ حتى ١٩٣٠ ووكيلًا لمصلحة السجون بين عامي ١٩٣٠و١٩٣٩ ومديرًا لخفر السواحل في يناير ١٩٣٩ حتى أغسطس ١٩٣٩، ووزيرًا للدفاع في وزارة علي ماهر الثانية عام ١٩٣٩ إلى ١٩٤٠، ثم رئيسًا للمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين من عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٦٧. وقد ولد حرب في جزيرة الحربياب إحدى قرى مدينة دراو بمحافظة أسوان عام ١٨٨٩.

(٢) محمد حسنين هيكل، العروش والجيوش.. كذلك انفجر الصراع في فلسطين.. قراءة في يوميات الحرب، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٧٣.

(٣) حسن البدري، الحرب في أرض السلام الجولة العربية الإسرائيلية الأولى (١٩٤٧- ١٩٤٨م)، دار الوطن العربي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٦٨.

(٤) الملك فاروق (مصر)، الملك عبد العزيز آل سعود (السعودية)، الملك فيصل (العراق).

مهتمين بتوسيع ممالكهم الصغيرة، كما الحال في الأمير عبد الله أمير شرق الأردن؛ وبالتالي دخل العرب هذه الحرب وهم مشتتو الأهداف، ومن ثم لم تحدث بينهم الحدود الدنيا من تنظيم التعاون لا على المستوى الإستراتيجي، ولا حتى على المستوى التعبوي والتكتيكي، وبالرغم من ذلك اتفقوا على دخول الحرب بقيادة موحدة تحت قيادة الملك عبد الله، انتهت بهزيمة للجيوش العربية[1].

خلال هذه الأحداث الجسام، التي كانت النواة الأولى للصراع العربي – الإسرائيلي، الذي ما زلنا نعيشه حتى اليوم، وبالتحديد في يوم ١٥ أبريل ١٩٤٨م ولدت في قرية أبوذكري، مركز منية النصر، بمحافظة الدقهلية.

من المفارقات المهمة في حياتي أن هذه الأجواء التي ولدت فيها، والتي شهدت الجولة العسكرية العربية- الإسرائيلية الأولى (١٩٤٧-١٩٤٩م) ظلت ملازمة لي طوال حياتي كلها؛ ذلك أنني لحقت هذا الصراع بداية من جولته الثالثة[2]؛ حيث تم دفعي مع رجال دفعتي في الكلية الحربية إلى جبهات القتال قبل تخرجنا في أعقاب كارثة حرب يونيو ١٩٦٧م، ثم مقاتلًا خلف خطوط العدو في حرب أكتوبر المجيدة سنة ١٩٧٣م، ثم في مرحلة تالية في حياتي الدبلوماسية، التي أمضيت قسطًا منها في إسرائيل؛ حيث مسارح عمليات الحرب التي اندلعت بين العرب والصهاينة خلال الفترة التي ولدت فيها، كما أوضحت توًّا.

النشأة الصارمة في «أبو ذكري»

قبيل الحديث عن الأسرة التي نشأت فيها، والتي أهلتني بتربيتها الصارمة لأن أكون ضابطا ناجحا ومنضبطا بالفطرة، أود أن أتوقف عند قريتنا (أبو ذكري)، التي ما تزال أحلامي مرسومة على جدرانها، والتي أكاد ألامسها كلما حطت رحالي فيها. كانت هذه القرية في وضع مشابه لكل قرى مصر خلال أربعينيات القرن الماضي، تعاني النقص الفادح في الخدمات الأساسية (مياه شرب/ صرف صحي/ كهرباء...)، لكن

---

(١) خالد أبو بكر، ٦٥ عاما على النكبة.. العمليات الحربية للجيش المصري في حرب فلسطين ١٩٤٨، جريدة الشروق، عدد ٢٠ مايو ٢٠١٣م.

(٢) الجولة الأولى كانت في فلسطين (١٩٤٧- ١٩٤٩م)، والجولة الثانية كانت في العدوان الثلاثي على مصر في أكتوبر ١٩٥٦م، والجولة الثالثة كانت في يونيو ١٩٦٧م، والجولة الرابعة كانت في أكتوبر ١٩٧٣م، والبعض يضيف إليهم جولة خامسة ممثلة في حرب الاستنزاف على جبهة قناة السويس (١٩٦٨-١٩٧٠م).

أهلها على عادة القرى في الدلتا كانوا – وما زالوا - يتسمون بالوداعة وطيبة القلب، كل منهم منغمس في حياته البسيطة وعالمه الصغير الذي لا يزيد على اتساع المسافة بين بيته وغيطه.

الناس في «أبوذكري» أشبه بعائلة واحدة كبيرة، يعرفون بعضهم بعضًا عن قرب. تجدهم على قلب رجل واحد في الأفراح والأتراح، قد يحدث ما يعكر الصفو بينهم، لكن في كل الأحوال غير مسموح بأن تتصاعد مشكلة إلى أبعد من «دوار العمدة»، وهو بالمناسبة إما في بيتنا وإما في بيت أحد أخوالي، ذلك أن «العمدية» كانت محصورة بين أبي وأخوالي.

تعلمت منذ نعومة أظافري في «أبوذكري» أنه لا بديل عن التعاون والتلاحم لتحقيق أصعب المهام؛ فالجغرافيا التي تقع فيها قريتي كانت من أهم العوامل التي تحض أهلها على التلاحم؛ ذلك أنها تقع على إحدى ضفاف ترعة «البحر الصغير»، وهي من أهم الترع في الدلتا. كانت معظم الخدمات موجودة في القرية الواقعة على الضفة الأخرى (ميت عاصم). لم يكن هناك أي جسر يربط بين القريتين. الصندل كان وسيلتنا الوحيدة للتنقل بين «أبوذكري» و«ميت عاصم»؛ حيث توجد محطة القطار الكبرى ومكتب البريد، والسنترال. والصندل هو المعدية الحكومية القديمة التي كانت سبيلًا للعبور بين ضفاف الترع.

يتجلى التعاون بين أهل «أبوذكري» من خلال آلية عمل «الصندل»، المتمثلة في حبل مربوط بين الضفتين، يمسك الأشخاص الموجودون بـ«الصندل» بهذا الحبل، وكلما شدوه تحرك صوب الجهة الأخرى. كانت عملية شد هذا الحبل تحتاج إلى جهد الجميع؛ حيث لا يستطيع الفرد الواحد تحريكه من ضفة إلى أخرى مهما كانت قوة عضلاته.

لم يكن «الصندل» الذي ينتقل به الناس بين ضفتي «البحر الصغير» مجرد وسيلة انتقال فقط، بل زاد إلى وظائفه مهمة تعميق التواصل الإنساني بين البشر، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار بطء حركته التي تعتمد فقط على سواعد الرجال، ناهيك عن الانتظار الذي يفرض نفسه عليك، خاصة لو كنت على ضفة من ضفتي «البحر الصغير» والصندل على الضفة الأخرى. وإذا تصادف أن وجدته راسيًا على الشط وأنت بمفردك في انتظاره؛ فحتمًا ستنتظر حتى يأتي آخرون لمساعدتك في شد الحبل إلى الضفة الأخرى، ومن هنا كان التعاون حتميًا بين الجميع.

كل هذه الظروف والمعطيات جعلت من حادث إنشاء جسر (كوبري) يربط «أبوذكري» و«ميت عاصم» بديلًا عن الصندل نقلة حضارية كبيرة بالنسبة لأهل قريتنا؛ لأن هذا الكوبري اختصر المسافات والوقت والجهد. وجعلنا نقترب أكثر من الخدمات الموجودة في «ميت عاصم» أو من البندر نفسه.

تغيرت ملامح «أبوذكري» والقرى المجاورة لها بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، التي عبرت بالدولة المصرية والمناطق المهمشة إلى آفاق أرحب مما كانت عليه قبلها، وذلك تطبيقًا لمبادئها الستة[١] التي أطلقتها كبرنامج عمل لها، فبعد أن كانت الخدمات والتسهيلات ومظاهر وجود الدولة نادرة.. تغير كل شيء تمامًا وتلاشت بعض ملامح المعاناة؛ فوصلت مياه الشرب إلى بيوتنا، بعد أن كانت الآبار هي المصدر الرئيسي للشرب.. أصبح في قريتنا وحدة صحية، ثم بعد فترة دخلتها الكهرباء.. إلخ.

يعاودني الحنين إلى تلك السنوات الباكرة من طفولتي عندما كنت أذهب مع الأهل إلى المركز «دكرنس»، وتلك الفرحة وحالة الانبهار اللتان تتابانني كلما خطوت في شوارعه الواسعة المليئة بالمحال والبائعين، فضلًا عن محطة السكة الحديد ومنظر القطارات ودويها الهائل. كنت أعتقد أن هذا العالم الفسيح والمتسع في المركز مقارنة بالهدوء والسكينة اللذيْن يخيمان على «أبو ذكري» الراقدة على ضفة «البحر الصغير» هو أبعد نقطة في العالم.. وأجمل نقطة في العالم أيضًا.

لكن بالرغم من صخب «دكرنس» مقارنة بوداعة «أبوذكري» فإنني كنت ألاحظ اختلافات كثيرة في مظاهر الحياة فيهما. في المدينة ليس بإمكانك الحصول على أي شيء دون أن تدفع ثمنه.. فالحمَّال الذي يحمل الحقيبة إلى القطار يحصل على مقابل، عكس قريتنا التي يبادر أي فرد فيها بمساعدتك في حمل حقائبك دون انتظار

---

(١) المبدأ الأول: وضع نهاية للاحتلال البريطاني وأعوانه من المصريين الخائنين عن طريق التصدي للقوات البريطانية المرابطة في منطقة قناة السويس.
المبدأ الثاني: القضاء على الإقطاع.
المبدأ الثالث: القضاء على الرأسمالية والاحتكار الشخصي.
المبدأ الرابع: تحقيق العدالة الاجتماعية بين طبقات الشعب.
المبدأ الخامس: بناء جيش قومي قوي يستطيع التصدي للمؤامرات الأجنبية التي تهدف إلى إعاقة القوة العسكرية المصرية، كما يعمل هذا الجيش كدرع في مواجهة معارضي الثورة داخل الدولة.
المبدأ السادس: وضع نظام ديمقراطي سليم لمواجهة التشويه السياسي الذي حاول أن يمحو معالم الوحدة الوطنية.

أي مقابل. ورعاية الأسرة الكبيرة للأسرة الصغيرة تحدث في قريتنا بشكل طبيعي وعفوي ودون أن يراه أحد؛ فكم كانت أمي ترسل مساعداتها للأسر المتعففة ليلًا دون أن يدري بها أحد.. نفس السلوك ورثته عنها عندما صرت شابًا يافعًا، كلما عدت إليها زائرًا، حيث تعلمت كيف لا يعرف شمالي ما أنفقت يميني على أقاربي وجيراني وناسي من المحتاجين للخير.

ولدت في كنف أسرة كبيرة عددا ومكانة، مكونة من الوالد والوالدة و١٢ ابنا؛ ٥ أبناء و٧ بنات، ترتيبي العام فيهم التاسع، وفي الأولاد الأخير. كان الوالد - رحمه الله - شديد الانضباط في سلوكه، حاسمًا في قراراته، بما يليق بمنصب «العمدة» الذي كان يشغله، بالتداول مع أخوالي.

أما السيدة الوالدة - عليها رحمة الله - فقد كانت ذات هيبة ووقار، قليلة الكلام، شغلها الشاغل رعاية أبنائها الـ١٢. كانت قسمات وجه أمي تتغير من ملامح الطيبة إلى قمة الجدية والحسم إذا ما انجرف أحد أمامها إلى الخوض في عيوب الآخرين، وبطريقة لاإرادية تنهي الحوار فورًا، وتدير دفته إلى حيث محاسن خلق الله. كانت أمي ربة منزل، نشيطة، دءوبة، تستيقظ فجرا، وتدخل غرفة نومها بعد صلاة العشاء، بعد عناء يوم تبدؤه مبكرًا جدًا. كانت مدرسة تمشي على الأرض، فقد تخرج من بين أحضانها المهندس، المهندسة، الضابط، المعلمة، رجل الأعمال، والموظف الكبير.

التعليم الأساسي

في سنة ١٩٥٤ دخلت المدرسة الابتدائية بقريتنا. كانت مدرسة غير تقليدية من جهة التصميم، فهي بلا أسوار.. فالفناء الخاص بها كان عبارة عن الطريق الواصل بين مبنى المدرسة والبحر الصغير. في الصباح تتحول هذه الشريحة من الأرض إلى أرض الطابور، وبعد انتهائه تصبح طريقًا عامًا للمارة.

أما مبنى المدرسة فكان مكونًا من غرفة حضرة الناظر، وأخرى للمدرسين، وفصل واحد لكل سنة دراسية من الصف الأول إلى الرابع، وخلال سنوات دراستي الأولى أضافت وزارة التربية والتعليم السنتين الخامسة والسادسة للمرحلة الابتدائية.

لم يكن الفصل في مدرستنا بـ«أبوذكري» مكتظًا بالتلاميذ كما الحال في هذه الأيام. كان يضم ٢٥ أو ٣٠ تلميذًا على الأكثر، وعدد المدرسين كان محدودا، لكنهم

كانوا يحظون بكل حب واحترام وإجلال التلاميذ. كنا نراهم خارج المدرسة فنتوارى من الطريق كي لا يرونا، خاصة إذا كنا نلعب!

أود أن أنوه قبل أن أنهي حديثي عن المدرسة الابتدائية أنني قد دخلتها دون أوراق رسمية، فوالدي هو العمدة، ومادام قد قال: «روح المدرسة يا ولد»، ليس في مقدور أحد أن يقول له: «لا». وللأمانة فقد كنت تلميذا متفوقا؛ ولذلك عندما تقدمت لامتحان القبول قالوا لي إن سنك صغيرة؛ فقمت بإعادة السنة.

بينما نحن في إجازة نهاية العام بعد اجتيازنا الصفَّ الثاني الابتدائي؛ حيث كان عمري ٨ سنوات، قرر الرئيس جمال عبد الناصر في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ تأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية (شركة مساهمة مصرية) على أن ينقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات وتحل الهيئات واللجان القائمة حاليًا على إدارتها»؛ وذلك بسبب رفض البنك الدولي تمويل مشروع السد العالي. كان قرار تأميم هذه الشركة أحد الأسباب القوية للعدوان الثلاثي على مصر؛ حيث شنت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل حربا ضد مصر في ٢٩ أكتوبر من ذات العام.

ويمكن أن أضيف أسبابًا أخرى لهذه الحرب منها، أن إسرائيل كانت مطمئنة بشأن بعض الدول العربية، إما لأنها بعيدة عن حدودها وإما لوقوعها تحت نفوذ الدول الموالية لإسرائيل، وإما لعدم قدرتها عسكريًا على التصدي لها، ولكنها كانت تعتقد أن مصر بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو هي العقبة الحقيقية في طريق أطماعها؛ لذلك انتهزت الفرصة عندما تلاقت مقاصد الاستعمار الغربي مع مقاصدها بمناسبة تأميم حكومة الثورة لشركة قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦م.

اتفقت إسرائيل على مؤامرة مع كل من إنجلترا وفرنسا ضد مصر، وبدأت القوات الإسرائيلية مهاجمة الحدود المصرية في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦م. وأنذرت الدولتان الاستعماريتان كلًا من مصر وإسرائيل بوقف القتال على أن تقف قوات كل منهما على بعد أميال قليلة من جانبي قناة السويس، ولما رفضت مصر الإنذار هاجمت القوات الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية منطقة القناة لتطويق الجيش المصري في سيناء، لكن القيادة المصرية فوتت عليهم هذا الغرض فارتدت، وأخلت سيناء؛ حيث تقدم الجيش الإسرائيلي واحتلها.

استمر الفدائيون من رجال الجيش بالاشتراك مع الشعب في قتال القوات الاستعمارية في بورسعيد، وتدخلت الأمم المتحدة ونددت بالعدوان الثلاثي على

مصر وطالبت المعتدين بالانسحاب، وضغطت الولايات المتحدة على إنجلترا وفرنسا. كما هدد الاتحاد السوفيتي الدول المعتدية، بالإضافة إلى ثورة العمال المتعطلين في إنجلترا وفرنسا ضد حكومتيْهما بسبب ما تعرضوا له من البطالة، وبذلك فشل العدوان، واضطرت الدول المعتدية لسحب قواتها بعد أن وافقت مصر على قرار الأمم المتحدة بوجود قوة طوارئ دولية ع لى الحدود الفاصلة بين مصر وإسرائيل، وفي منطقة شرم الشيخ المطلة على خليج العقبة.

كان عمري ٨ سنوات عندما اندلع القتال في هذه الحرب، لكنني أذكر أن القوات المسلحة ضمت متطوعين كثرًا ضمن قوات «الدفاع الشعبي» كي يذهبوا للدفاع عن بورسعيد. كان من بينهم أخي الأكبر «صلاح المندوه»، وبعد انتهاء الحرب عاد ومعه بندقية، سلمها بعد ذلك للسلطات المختصة مثله مثل بقية زملائه. كان للعدوان الثلاثي تأثير كبير جدًّا على قريتنا؛ بحكم قربنا الجغرافي من بورسعيد، فكان النشاط الجوي للعدو ملحوظا. كنا نشاهد طائراته وهي تحلق في السماء؛ ذلك أن الجهد الجوي للعدو في هذه المعركة كان كبيرًا جدًّا.

بعد ذلك انتقلت إلى «المدرسة الإعدادية»، التي كانت تبعد عن قريتنا بنحو ٨ كيلومترات. كنت وقتها أعتقد أنها على مسافة ١٠٠ كيلو؛ نظرًا للمشقة التي كنت أكابدها يوميًا لقطع هذه المسافة؛ لأنني كنت أولًا أعبر بالصندل للضفة الأخرى للبحر الصغير حيث قرية «ميت عاصم»؛ كي أتمكن من ركوب القطار الذي كان يأتي من «كفر علام» المجاورة لـ«برنبال» القرية التي أنجبت علي باشا مبارك[1] ومنها إلى بلد تسمى «ميت الخولي مؤمن»، وهي بلد الدكتور حمدي السيد نقيب الأطباء الأسبق، بعدها ننزل من القطار لنسير على الأقدام لمدة ٣٠ دقيقة كي نصل إلى المدرسة الموجودة في منية النصر، التابعة لمركز دكرنس الذي ننتمي إليه، قبل أن تتحول منية النصر نفسها إلى مركز مستقل بعد ذلك.

---

(١) علي باشا مبارك: أحد الأعلام الذين كان لهم دور أساسي في النهضة التعليمية بمصر، بالإضافة لتأليفه العديد من الكتب التي أثرت المكتبة العربية، ولقب باسم «أبو المعارف المصرية». ولد عام ١٨٢٤م بقرية برنبال الجديدة من أعمال مركز دكرنس بمحافظة الدقهلية. لنبوغه سافر في بعثة تعليمية إلى فرنسا. تم تعيينه بعد ذلك وكيلًا عامًا لديوان المدارس، مع استمراره في عمله كناظر على القناطر الخيرية، ثم ناظرًا للمعارف عام ١٨٦٨م، وناظرًا للأشغال العمومية، ثم تولى نظارة عموم الأوقاف. من أشهر مؤلفاته «الخطط التوفيقية». توفي في ١٤ نوفمبر عام ١٨٩٣م.

مدرستي الإعدادية أعتبرها مدرسة نموذجية، رغم أنها مدرسة بلا أسوار أيضًا، لكن كثافة الفصل فيها لم تكن تزيد على ١٩ طالبًا بحال من الأحوال. كانت مدرسة مشتركة للبنين والبنات، ومن جودة العملية التعليمية فيها أجرينا كل التجارب المقررة في العلوم داخل معاملها بفهم وإتقان كبيرين وحرص من إدارتها - برئاسة ناظرها الأستاذ حافظ حسين عليه رحمه الله- على أن يستوعب كل طالب مقرراته الدراسية.

في طريق العودة من المدرسة إلى محطة القطار كنا نمر على المقاهي التي كانت تتفاخر باقتناء التلفزيون «الأبيض والأسود» الذي كانت مصر حديثة العهد به خلال هذه الفترة، فإذا وجدنا مباراة في كرة القدم يذيعها التلفزيون كنا نجلس لمشاهدتها، والأمر لم يكن يكلفنا أكثر من مشروب بـ«تعريفة»، ثم نتحرك لركوب أول قطار متجه إلى «ميت عاصم» ومنها إلى قريتنا عبر «الصندل».

أود أن أسجل اعتزازي الشديد بمدرستي الإعدادية، التي كانت محاطة بسياج من الزهور والورود التي تسر الناظرين، وتبعث في النفس راحة وطمأنينة فتجعلانها مقبلة على العلم بنهم، فكنت في الفترة التي تسبق طابور الصباح - الذي أصل قبله بفترة معقولة ارتباطًا بموعد القطار - أجد وقتًا مناسبًا لمراجعة دروسي والتحضير لدروس اليوم الجديد، وأحيانًا كنا نلعب الكرة، ونقسم أنفسنا إلى فريقين «أهلي وزمالك»، كل حسب النادي الذي يشجع.

بعد الامتحانات عندما يتم إعلان النتيجة كنت أذهب مع أصدقائي لمعرفتها والقلوب تدق خوفًا من الرسوب. كانوا يقفون خارج المدرسة، وأتوجه أنا لمطالعة الكشوف، باعتبار أنني واثق من نجاحي وتفوقي. من أجده في كشوف الناجحين أنادِ عليه للحضور لمطالعة نتيجته، ومن لم يحالفه الحظ كنا نواسيه.

«الخديوي إسماعيل الثانوية»

اجتزت المرحلة الإعدادية بتفوق كبير. كان نظام الأسرة يقضي بأن يسافر الأبناء للحصول على الشهادة الثانوية من القاهرة؛ نظرًا لوجود المدرسة الثانوية في المركز (دكرنس)؛ الأمر الذي كان يصعب معه الذهاب والعودة إليها يوميًا. قال لي الوالد بعد انتهاء المرحلة الإعدادية: اطلع مع إخوتك على مصر لاستكمال تعليمك».

ذهبت بالفعل مع إخوتي. لم يكن أيٌّ منهم قد تزوج بعدُ. كان من بينهم أخي «محمد عزمي» (اسم مركب) الذي كان يعمل في شركة الحديد والصلب، بعد تخرجه من كلية

التجارة، وتوفيَ وهو وكيل لوزارة الصناعة، وشقيقي «أحمد» (مخرج في التلفزيون)، وشقيقي عاطف (ضابط في القوات المسلحة) في «المدرسة الإبراهيمية الثانوية» في حي «جاردن سيتي»، فقالا لي: تعالَ معنا في المدرسة الإبراهيمية. لم أحبذ الالتحاق بمدرسة فيها اثنان من أشقائي. كنت أريد الاستمتاع أكثر بحريتي، ومن هنا التحقت بمدرسة الخديوي إسماعيل الثانوية في المنيرة (الناحية المقابلة لجاردن سيتي) وهي مدرسة عريقة، عندما دخلتها عرفت أن هناك تنافسًا بينها وبين المدارس الأخرى، أمثال «السعيدية» و«الإبراهيمية» وبقية المدارس الكبيرة الموجودة في القاهرة.

عندما ذهبت إلى مدرسة «الخديوي إسماعيل الثانوية» وجدتها مختلفة تمامًا عن المدارس التي عرفتها في الدقهلية، من مدرسة بلا أسوار إلى مدرسة ذات سور وبوابة أشبه ببوابات السجون لا يستطيع فرد واحد فتحها، إذ لابد من قيام مجموعة بدفع الباب لفتحه. كانت هذه المدرسة تغلق هذه البوابة الضخمة قبل أن يدق الجرس بدقيقة واحدة، ولا يستطيع أي طالب الدخول إليها بعد غلق البوابة مهما كان.

ناظر «الخديوي إسماعيل الثانوية» كان اسمه سليمان صالح سليمان، كان مؤلفا لكتاب مدرسي مشهور جدًا وقتها اسمه «الواضح في الطبيعة»، وكان من ضمن أساتذة المدرسة المشاهير الدكتور سيد نصر، الذي كان يظهر في البرامج التعليمية في التلفزيون.

هذه المدرسة العريقة كانت حريصة على أن يكون عدد أبنائها ضمن أوائل الجمهورية في الثانوية العامة، فكانت تخصص فصلا للمتفوقين، وتدعمهم بدروس إضافية قبل بداية اليوم الدراسي، مقابل جنيه واحد في الشهر. مازلت أذكر مدرس اللغة العربية الذي كان يدرس لي في «الخديوي إسماعيل الثانوية»، لم يكن يشرح إلا بالعصا لكي يعلمنا الوزن وغيره. مازال صوته يرن على مسامعي حتى الآن. أذكر أني التقيته بعد تخرجي من الكلية الحربية، بينما كنت أقود سيارتي وأمر في ميدان العباسية وجدته يسير على قدميه. وقفت بجواره. قلت له: أنا تلميذك.. حضرتك عايز تروح فين؟

قال: الجيزة يا ابني.

وصلته إلى الجيزة عرفانًا بالجميل لأستاذي الذي لم يبخل علينا بعلمه وجهده، وهو ما نفتقده الآن في حياتنا بعد أن تآكلت منظومة القيم نسبيًا في مجتمعنا.

بشكل عام أستطيع أن أقول: إن نمط حياتي قد تغير بإقامتي في القاهرة. أصبح لديَّ نشاط أسبوعي يتمثل في الذهاب إلى السينما في عطلة نهاية الأسبوع بعد أن كنا نذهب إليها في الأعياد فقط في الدقهلية. كنا ندخل سينمات الجزيرة والروضة وجرين.

من الأمور الطريفة التي عانيت منها أثناء إقامتي مع إخوتي خلال دراستي الثانوية، أننا كنا نسكن في الطابق الخامس، ولا يوجد مصعد، وباعتبار أنني أصغر أشقائي فكل واحد منهم يريد شراء أي شيء يكلفني بالنزول لشرائه. كنت أقضي أوقاتًا طويلة في الطلوع والنزول، لكنني كنت أقوم بذلك بنفس راضية إلى حد كبير، فلا يليق وفق تربيتي أن أجلس وينزل أيٌّ من إخوتي الكبار لقضاء مثل هذه الحاجات.

أستطيع أن أقول بكل فخر: إن أبي هو مثلي الأعلى، وأهم حافز في حياتي، وأكبر مؤثر في ضميري الإنساني، له بصمات طبعها بحكمته في أعماقي، ونسج خيوطها بين جوانحي بمواقف ذات دلالات إنسانية عميقة التأثير.

كنت ضابطًا في القوات المسلحة، وبينما أنا في إجازة العيد بين عائلتي، وكنت جالسًا في موقعي المحدد لي حيث يكون الجلوس من الوالد حسب الترتيب بين الأبناء، ولأني التاسع بين أشقائي كنت أقرب إلى الأطراف، وكانت دعاية الانتخابات إلى مجلس الأمة قد بدأت عندما زارنا أحد المرشحين وكان محاميًا. التقاليد تقتضي أن يأتي كل مرشح إلى بيت العمدة ليستأذن في بدء دعايته داخل القرية. كان «المحامي» أحد المنضمين إلى حزب يساري معروف، وكان ينتمي إلى قرية مجاورة، وقد جاء ليستأذن بالقيام بجولاته الانتخابية.

بدأ الرجل يتحدث عن رؤيته في الانتخابات وأبي يستمع إليه بإنصات شديد لا يقاطع.. يبدو مهتمًا.. متفاعلًا.. مشاركًا بإيماءات هادئة برأسه. كنت ضابطًا نشيطًا، وشابًا متحمسًا. قاطعت المرشح وشاركت بما أراه غير متوافق مع أفكاري؛ حيث لم يكن من بين اهتماماتي أو معتقداتي الميل إلى اليسار.. لم يكن هذا التيار يروق لي.

انتهى النقاش وغادر الضيف وهممت بالانصراف، صوت حاسم ناداني.. ذاك هو صوت أبي عندما يسكنه بعض الغضب فسألني: ماذا فعلت مع الضيف؟ أجبته: لم أفعل شيئًا سوى طرح وجهة نظري. رد بحدة: لماذا ناقشته؟

أجبت: إنه مجرد نقاش يا أبي، لم أقصد به سوى أن أقول رأيي.

كانت تجاعيد جبين أبي ترسم ملامح الغضب وعدم الرضا، وهو يقول: من واجبات الضيف علينا أن نقدم له واجب الترحيب، وأن نستمع إليه دون مقاطعة، وألا تناقشه بحدة. كان لزاما عليك أن تستمع بإنصات، وفي يوم التصويت لن يجبرك أحد على الاختيار. لا تفعل ذلك مرة أخرى، خاصة عندما يكون الرجل ضيفك وفي بيتك.

كان المساء قد ألقى بعتمه على بيوت القرية الصغيرة بعد صلاة العشاء في شهر رمضان المبارك.. قارئ ذو صوت رخيم يجلس في منتصف الصالون على مقعد مرتفع يتلو آيات الذكر الحكيم، الأهالي والأحباب والأقارب والجيران يجلسون حول القارئ فيما كان يسمى في بلدتنا السهرة، والسهرة هي إحياء ليالي رمضان بتلاوة القرآن الكريم، وتتخللها فواصل كل نصف ساعة ليتحدث الحاضرون في أمورهم الاجتماعية، ويتناقشوا في السياسة وغيرها.

لم يكن الصالون قد ازدحم بعد. كنت أجلس كالعادة في مكاني بعيدًا عن الوالد. زوج إحدى شقيقاتي جلس عن يميني، وهو من المقيمين في القرية، ويعمل بالنشاط الزراعي، فلدى عائلته أراضٍ يزرعونها إضافة إلى جزء من أراضي عائلتنا، كان يزرع بالنصف؛ نصف الإنتاج له والنصف الآخر لنا. دار حديث هامس بيني وبين زوج أختي لم تتطاير من حروفه كلمات واضحة إلى أذنيّ والدي، وربما تكون بعض العبارات قد وصلته.

في نهاية الحوار، باغتني بسؤال: فيمَ تتحدثان؟

قلت بعفوية: إنه يحدثني عن آلة زراعية جديدة تحصد القمح، وأخرى تقوم بالدراوة، عن طريق استئجارها نحصل على أضعاف ثمنها في عام واحد.

تجهم وجه أبي وباغتني بسؤال: إنتَ بتشتغل إيه؟

قلت له: ضابط بالجيش.

قال بهدوء وبصوت حاسم: ركز في شغلك.

هذه الجملة كان لها أثر عميق في حياتي كلها. كانت سر تفوقي كضابط بالقوات المسلحة و سر حصولي على واحد من أرفع الأوسمة.. وسام النجمة العسكرية في حرب أكتوبر.

«ركز في شغلك» كانت أحد أهم أسباب نظرة قادتي الإيجابية لي، والتي كانت معنونة بعبارة هامة في حياتي المهنية، عندما تكتب في التقارير السرية لتقييم أدائي؛ حيث كان تعليق قادتي بعبارة «لا يدانيه أحد من أقرانه».

الفصل الثاني

الكلية الحربية وحرب ١٩٦٧

فور انتهاء امتحانات الثانوية العامة عدت إلى «أبو ذكري» في انتظار ظهور النتيجة، التي كنا نعرفها من خلال ملحق خاص تصدره جريدة «المساء» به نتائج كل مدارس الجمهورية. ظهرت النتيجة كنت من الناجحين. بدأت الاستعداد للعودة إلى القاهرة لتقديم الأوراق إلى مكتب تنسيق للقبول بالجامعات.

طبقًا للمؤشرات الأولية التي كانت تنشر في الصحف وقتها، كان من المتوقع أن يؤهلني مجموعي إما إلى كلية العلوم- جامعة القاهرة، وإما إلى كلية الهندسة - جامعة الإسكندرية. جوارحي كلها كانت تتجه صوب الثانية لرغبتي في أن أكون مهندسًا، لكن خلال حديث لي مع شقيقي الأكبر عاطف، الذي تخرج في الكلية الحربية، وكان في ذلك الوقت برتبة «ملازم أول» أقنعني بتقديم أوراقي إلى مكتب تنسيق الكليات العسكرية.

استخدم عاطف معي العديد من الأساليب والاستمالات الإقناعية كي ألتحق بالكلية الحربية، من ضمن هذه الأساليب: سؤاله الاستنكاري بعد أن عرف رغبتي في الالتحاق بهندسة الإسكندرية: هل تستطيع أن تعيش بمفردك في الإسكندرية؟ ثم لم يتوانَ لحظة عن أن يعدِّد لي مزايا الالتحاق بالكلية الحربية: «ستخلق منك إنسانًا منضبطًا، صحيح الجسم والبدن، مفيدًا لبلدك، تعرف واجباتك.. وتؤديها بشرف من أجل وطنك وبلدك»، مع العلم بأنه لم تكن لمصر في ذلك الوقت أرض محتلة أو صراعات عسكرية أو حدودية، باستثناء وجود وحدات للجيش المصري تقاتل في اليمن[1] دعمًا للجمهورية

---

(١) في عام ١٩٦٢ دارت رحى الحرب في شمال اليمن، بين الموالين للمملكة المتوكلية اليمنية والفصائل الموالية للجمهورية العربية اليمنية، واستمرت حتى عام ١٩٧٠، وقد سيطرت الفصائل الجمهورية على الحكم في نهاية الحرب. وكان الجانب الملكي يتلقى الدعم من المملكة العربية السعودية، بينما تلقى الجانب الجمهوري الدعم من مصر، التي أرسلت وحدات وتشكيلات من قواتها المسلحة لدعم الجمهورية اليمنية الوليدة، والقضاء على النظام البدائي في هذا البلد العربي الشقيق، ودارت معارك ضارية في المدن والأماكن الريفية، وشارك فيها أفراد أجانب غير نظاميين فضلا عن الجيوش التقليدية النظامية.

ويرى الكثير من المؤرخين والمعاصرين لهذه الحرب أن مشاركة مصر في هذه الحرب التي تبتعد مسارح عملياتها عن حدودها كان أحد أسباب هزيمتها في حرب يونيو ١٩٦٧، لكن على أي حال كان من نتائج هذه الحرب اعتراف المملكة العربية السعودية بالجمهورية العربية اليمنية عام ١٩٧٠، وسبقها انسحاب بريطانيا من اتحاد الجنوب العربي الذي كان يضم محميتها في عدن عام ١٩٦٧.

اليمنية الوليدة، في إطار جهود القاهرة لدعم حركات التحرر في العالم العربي وإفريقيا ودول العالم الثالث برمتها.

كان المجهود الرئيسي للقيادة السياسية خلال هذه الفترة منصبًّا على بناء القدرات المصرية في الصناعة والزراعة والتحديث. أما في مجال السياسة الخارجية فكانت القضية الفلسطينية والاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية هو ما يسيطر على اهتمام صانع القرار المصري. أستطيع أن أقول إن «الاهتمامات العسكرية المصرية خلال هذه الفترة كانت بالأساس دفاعية، وتهتم بالتدريب ورفع الكفاءة القتالية للفرد المقاتل استعدادا لأي طوارئ».

نجحت جهود أخي عاطف في إقناعي بتقديم أوراقي لمكتب تنسيق الكليات العسكرية. اجتزت الاختبارات النفسية والرياضية والطبية بنجاح. جاء «كشف الهيئة»، وهو اختبار يقف فيه الطالب أمام لجنة تضم مدير الكلية الحربية ومساعديه وأمامهم جميع المعلومات التي جاءت عن طريق التحريات عن الطالب المرشح لدخول أيٍّ من الكليات العسكرية، وأمامهم كذلك نتائج الاختبارات المختلفة التي مرَّ بها وصولًا إلى «كشف الهيئة» لاتخاذ القرار النهائي بشأن قبول الطالب في إحدى الكليات الثلاث: الحربية، البحرية، والجوية.

باغتني رئيس اللجنة بسؤال: أنت لائق لدخول الكلية البحرية والكلية الحربية أيهما تفضل؟

بدون تردد جاءت إجابتي قاطعة: الكلية الحربية يا أفندم.

- لماذا ترفض الكلية البحرية.. مجموعك يؤهلك لدخولها؟!

- لا أحب البحر.. أريد أن أدخل الكلية الحربية.

أذن لي رئيس اللجنة بالانصراف بعد توجيه عدد من الأسئلة الشخصية والنفسية التي أجبت عليها بتلقائية ومن دون تفكير. جاءت النتيجة معلنة قبولي بالكلية الحربية، أي طبقًا لرغبتي التي عبرت عنها للجنة كشف الهيئة بفضل من الله.

أود الإشارة إلى أنني لم أثر مسألة الالتحاق بالكلية الحربية مع والدي وبقية أفراد أسرتي فيما عدا أخي الملازم أول عاطف المندوه، والذي يسبقني في التخرج من الكلية الحربية بسبع دفعات. وعندما علم الوالد بقبولي في الكلية الحربية رحب وسعد جدًّا بذلك.

«الواجب.. الشرف.. الوطن»

دخلت الكلية الحربية سنة ١٩٦٥، ضمن الدفعة «٥١ حربية» (دفعة الشهيد أحمد توفيق يس)، كان عمري وقتها لا يتجاوز ١٧ سنة، وكانت النظرة للجيش والالتحاق به شرفًا كبيرًا وأمنية كل الشباب كما هو الحال في كل العصور.

منذ انطلاق دوي «نوبة صحيان» في الخامسة من فجر اليوم الأول لي في الكلية الحربية ترسخت في أعماقي ووجداني المبادئ التي يتضمنها شعار هذه الكلية العريقة وإحدى قلاع الوطنية في مصر «الواجب.. الشرف.. الوطن»؛ حيث تعلمنا أن نرعى الله عند أداء الواجب والمهمة التي نكلف بها، وعاهدنا ربنا على أن نؤدي كل المهام التي تسند إلينا بشرف ورجولة وحتى آخر طلقة وآخر نقطة من دمائنا، ليس لصالح شخص أو فئة، ولكن من أجل الوطن العزيز والغالي على نفوسنا، الذي نعيش فيه ويعيش فينا.

عندما كنا نردد هذا الشعار «الواجب.. الشرف.. الوطن»، يوميًا ولأكثر من مرة كانت جوارحي كلها تهتز من شدة التأثر.. من قيمة الانتماء والحب لهذا الوطن الذي يتم تدريبنا على تقديم الروح فداء له، فيزيد إصرارنا وتعقد عزيمتنا على تنفيذ كل خطوة تدريبية أو مشروع تدريبي بأعلى درجات الانضباط، الذي هو في مفهومي «أساس النجاح في تنفيذ المهام من أجل رفعة واستقرار وأمن وأمان مصر الحبيبة».

كان القائمون على أمر الكلية الحربية خلال هذه الفترة نخبة من القادة اللامعين في تاريخ العسكرية المصرية، يكفي أن أقول إن مدير الكلية وقتها كان الفريق أول محمد فوزي[1] (١٩١٥- ٢٠٠٠م)، الذي تم تعيينه قائدًا عامًا للقوات المسلحة ووزيرًا للحربية بعد حرب سنة ١٩٦٧م (١١ يونيو ١٩٦٧- ١٥ مايو ١٩٧١م)، وهو من القادة المشهود لهم بأعلى درجات الانضباط العسكري، وقد قاد القوات المسلحة - وبجانبه الفريق أول عبد المنعم رياض كرئيس للأركان- باقتدار في مرحلة إعادة البناء التي أعقبت حرب يونيو سنة ١٩٦٧م، وما تخللها من مراحل مختلفة لمقاومة العدو، والتي تدرجت من مرحلة «الصمود»، مرورًا بمرحلة «الدفاع النشط»، وصولًا

(١) الفريق أول محمد فوزي (١٩١٥- ١٦ فبراير ٢٠٠٠م)؛ القائد العام للقوات المسلحة ووزير الحربية (١١ يونيو ١٩٦٧- ١٥ مايو ١٩٧١م)، وهي الفترة التي شهدت إعادة بناء وتسليح القوات المسلحة بعد حرب يونيو ١٩٦٧م، وكذلك حرب الاستنزاف التي تكبدت فيها إسرائيل خسائر فادحة.

إلى مرحلة «الاستنزاف» التي شهدت عبور تشكيلات مصرية لقناة السويس وصلت إلى مجموعة كتيبة مشاة في عديد من المرات.

عاصرت أيضًا الفريق أول محمد أحمد صادق (١٤ أكتوبر ١٩١٧ - ٢٥ مارس ١٩٩١م)، الذي تولى إدارة الكلية الحربية خلفا للفريق فوزي، والفريق صادق شغل أيضًا منصب القائد العام للقوات المسلحة ووزير الحربية (١٥ مايو ١٩٧١ - ١٥ أكتوبر ١٩٧٢) خلفا للفريق محمد فوزي أيضًا.

أما كبير المعلمين فقد كان اللواء محمود زكي عبد اللطيف، الذي حصل على رتبة الفريق فيما بعد، وعين محافظا للإسماعيلية (٢٣ مارس ١٩٧٦ - ٢٦ نوفمبر ١٩٧٨م). والذي أذكره وأنا في السنة الأخيرة في الكلية الحربية أن السيد المشير محمد حسين طنطاوي، وزير الدفاع والإنتاج الحربي الأسبق، كان أحد ضباط الكلية برتبة «نقيب»، وكان من الشخصيات شديدة الانضباط، والمعروفة بحب ممارسة الرياضة.

تمضي أيامنا في الكلية الحربية ونحن منكبون على التدريبات الشاقة، وتلقي العلم العسكري، منغمسين في الحياة العسكرية التي يحكمها النظام والانضباط وبذل الجهد والعطاء بلا حدود.

تمر السنة الأولى وتظهر النتيجة وإذا بي من العشرة الأوائل في دفعتي التي يصل عدد الطلبة فيها إلى أكثر من ٦٠٠ طالب يتنافسون على المراكز الأولى لما لها من مميزات؛ حيث إن الأوائل يتولون قيادة باقي زملائهم في إطار حرص الكلية على تنفيذ المهام التعليمية وإعداد الطلاب لتولي مهام القيادة بطريقة علمية (تدريس علم وفن القيادة) وممارسة عملية.

خلال هذه الفترة ظهرت مبادئ كثيرة أثرت بعد ذلك في سلوكيات الفرد وتصرفاته في المواقف المختلفة؛ منها التضحية والفداء وإنكار الذات وتغليب مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، فضلًا عن التعاون.

كانت روح التنافس الشريف هي السائدة بين جميع طلاب الكلية، سواء في فهم واستيعاب المقررات الدراسية أو في المسابقات الرياضية والثقافية المختلفة. أذكر أنه كانت هناك مسابقة ثقافية تحت رعاية فرع «التوجيه المعنوي» بالكلية، حصلت على المركز الأول فيها، وكانت الجائزة عبارة عن مجموعة من الكتب.. ما زال صوت القائد يرن في أذني وهو يسلمني إياها: «هذه الكتب تصلح لأن تكون نواة لمكتبة ثقافية في منزلك».

حرب يونيو ١٩٦٧

قبل انتهاء الفصل الدراسي الثالث بالكلية الحربية، وإذا بالأجواء السياسية بين مصر وإسرائيل تتوتر، وشبح الحرب يلوح في الأفق في مايو ١٩٦٧م، وعلى عجل تم تخريج الدفعة «٥٠ حربية» التي تسبق دفعتي مباشرة؛ ليتم توزيع ضباطها لتغطية بعض أوجه النقص في وحدات القوات المسلحة. تولت دفعتي (٥١ حربية) قيادة الكلية، وما هي إلا أيام في بدايات صيف ١٩٦٧م وتصاعدت المواقف السياسية والتعبئة والشحن والشحن المضاد بين القاهرة وتل أبيب، وانتهى الأمر باستدراج القوات المصرية إلى معركة في سيناء.

من المهم هنا أن أعطي نبذة سريعة جدًا عن مقدمات حرب ٥ يونيو ١٩٦٧م؛ كي يفهم القارئ الكريم السياق الذي اندلعت فيه هذه الحرب، وفي هذا أقول: لقد اعتبرت إسرائيل أن الأحداث التي تلت هجومها على سيناء في حرب العدوان الثلاثي في أكتوبر من سنة ١٩٥٦م تشكل تهديدًا لأمنها، لاسيما جهود جمال عبد الناصر وتنامي شعبيته في العالم العربي والأفريقي، ونشاط سوريا ضد المستعمرات الإسرائيلية على الجبهة السورية وأمام الجبهة الأردنية، وقرار القمة العربية سنة ١٩٦٤ في القاهرة بتحويل مياه نهر الأردن في كل من سوريا ولبنان، وتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٥م.

وعلى ذلك بدأ تخطيط إسرائيل لشن الحرب على العرب مع مطلع عام ١٩٦٧م، في ظل تواطؤ خفي ظاهره عدوان ضد سوريا؛ حيث أبلغ وفد سوفيتي مصر أن إسرائيل حشدت ١١ لواء على الحدود السورية، وإعلان مصر تدخلها لمساندة سوريا وما تلاها من أحداث.

تصاعدت الأحداث بوتيرة متسارعة في الجانبين منذ منتصف مايو ١٩٦٧، ففي ٢٢ منه أعلن الرئيس جمال عبد الناصر غلق مضايق تيران في مدخل خليج العقبة بالبحر الأحمر في وجه الملاحة الإسرائيلية، وهو ما اعتبرته إسرائيل إعلانًا للحرب عليها؛ لأن هذا الإجراء يعزل ميناء إيلات، ويجعله أشبه بحمام سباحة، فلن تستطيع أي سفينة الخروج منه أو القدوم إليه. وفي ٢٩ من نفس الشهر وصل ملك الأردن الراحل الحسين بن طلال مصر، ووقع معاهدة دفاع مشترك مع عبد الناصر.

في الساعة ٨,٤٥ صباح الاثنين ٥ يونيو شنت إسرائيل - باستغلال القدرات الفنية الأمريكية المتمثلة في سفينة التجسس «ليبرتي Liberty» - لمدة ثلاث ساعات

غارات جوية على مصر في سيناء والدلتا والقاهرة ووادي النيل في ثلاث موجات: الأولى ١٧٤ طائرة، والثانية ١٦١، والثالثة ١٥٧ بإجمالي ٤٩٢ غارة دمرت فيها ٢٥ مطارًا حربيًا، وما لا يقل عن ٨٥٪ من طائرات مصر وهي جاثمة على الأرض، وتوالت الأحداث، وأصدرت القيادة المصرية أوامرها بالانسحاب إلى الشط الغربي لقناة السويس، وانتهت الحرب بهزيمة عسكرية للقوات العربية واحتلال إسرائيل لقطاع غزة والضفة الغربية وسيناء وهضبة الجولان السورية.

لن أتوقف في حديثي عن هذه الحرب عند أحداث وسير المعارك على جبهات القتال؛ ذلك أن مراجع عديدة تناولتها بالفحص والدرس؛ لكنني سوف أتحدث عن حالة الإحباط الشديدة التي أصابت الشعب المصري والعربي وأفراد القوات المسلحة بعد الهزيمة في هذه الجولة الثالثة من الحروب العربية- الإسرائيلية. تعود هذه الحالة من الإحباط وانخفاض الروح المعنوية - من وجهة نظري - إلى الأجواء الإعلامية التي هيَّأت الشعب المصري والعربي لاستقبال نصر كبير على العدو، واستعداد قواتنا ليس فقط لتدمير إسرائيل، ولكن لمحوها من الخريطة؛ ولذلك كان الإحباط بقدر الطموح الذي مهدت له الآلة الإعلامية المصرية، عبر الإذاعي «أحمد سعيد» وإذاعة «صوت العرب».

حالة الإحباط التي عمت جميع أفراد الشعب هي نتيجة طبيعية للفجوة (Gab) الواسعة بين ما كنا نطمح إليه (نصر عريض - تدمير إسرائيل)، وما تحقق بالفعل على أرض الواقع من هزيمة واحتلال لأجزاء واسعة من الأرض العربية.

بعد تخرج الدفعة «٥٠ حربية» انتقلت دفعتنا إلى الفصل الدراسي الأخير، وهو فصل التخصص؛ حيث تتناول الدراسة السلاح الذي سيخدم فيه الطالب في القوات المسلحة بعد تخرجه من الكلية، وقد تخصصت في سلاح المدرعات.

خلال دراستنا في القسم النهائي كانت الأنباء عن سير القتال تتوالى، ويوما بعد يوم اكتشفنا أن القوات الإسرائيلية ضربت المطارات المصرية، وأصابت سلاح الجو المصري بخسائر كبيرة، وأن قوات العدو تتقدم في سيناء، وأن قواتنا صدرت لها أوامر بالانسحاب والتمسك بالضفة الغربية لقناة السويس.

لا أبالغ إذا قلت إنه رغم هذا السواد الحالك الذي كان يسيطر على الأجواء في هذه الفترة فإن روحا غريبة كانت تسري بين طلبة الكلية الحربية. روحا ملأها الشعور العميق بالمهمة الصعبة التي تنتظرنا في قابل الأيام لاسترداد الكرامة المصرية وتحرير

التراب المصري والعربي، مع كل يوم يمر تتعزز ثقة رجال الكلية الحربية.. رجال «الواجب والشرف والوطن»، في الله وفي أنفسهم بأنهم الجيل الذي سيشارك في استعادة كل ما فقدناه خلال هذه الحرب من الأرض والكرامة والمكانة التي تستحقها مصر بين الأمم.

بعد عدة أيام من وقوع كارثة ٥ يونيو صدرت الأوامر لطلبة القسم النهائي بالاستعداد لمغادرة الكلية الحربية والانضمام إلى فرقة جديدة تحت التشكيل هي «الفرقة ١٨ مشاة»، التي لم تكن موجودة ضمن تشكيلات القوات المسلحة، وصدرت الأوامر بتشكيلها من بعض القوات، مع استكمالها بطلبة القسم النهائي في الكلية الحربية؛ وذلك للدفاع عن القاهرة، خاصة مع حالة الانهيار التي كانت عليها القوات التي شاركت في عمليات يونيو، سواء على صعيد التنظيم أو على صعيد انخفاض الروح المعنوية.

اجتاحتنا مشاعر من الحماس الشديد أثناء دفعنا للمعركة حتى لو من الخطوط الخلفية. لم نكن نصدق أننا سنشارك في القتال بهذه السرعة قبل تخرجنا وقبل إتمام تأهيلنا في التخصصات العلمية التي توزعنا عليها في القسم النهائي. كان كل ما يسيطر على تفكيرنا في هذه الأثناء هو أن نوقف تقدم العدو بأي ثمن إذا ما فكر - أو استطاع - الاندفاع غربًا في اتجاه القاهرة.

بعد انضمامنا لهذه الفرقة التي كانت تحتل مواقع شرق القاهرة بين منطقة «الرويكي» و«هايكستب» (موقع مدينة الشروق حاليًا)، بدأنا نمارس مهامَّ مختلفة عن تلك التي كنا نمارسها ونحن طلبة في الكلية الحربية. قال لنا قادة هذه الفرقة: إن وجودكم معنا لفترة محددة، ستعودون بعدها لاستكمال الدراسة بالكلية؛ استعدادًا لإنهاء الفصل الدراسي النهائي والتخرج والانضمام إلى وحدات القوات المسلحة.

في يوم ٩ يونيو ١٩٦٧م جاءت أنباء تنحي الرئيس جمال عبد الناصر عن السلطة، وقد كان لهذه الأنباء تأثير محطم لكل المعنويات، ورفع منسوب حالة الإحباط التي كانت تسيطر على القوات. ولا عجب في ذلك؛ فنحن المصريين عندما نضع ثقتنا في القائد نرتبط به ونعلق كل آمالنا عليه، فإذا ما جاء هذا القائد في ظرف صعب ليعلن ترك الساحة فحتمًا سنصاب بحالة من الإحباط المدمر، فضلًا عن أننا شعب عاطفي ثقافته الارتباط بالأرض والشخص، فمن منا عندما غادر قريته لأول مرة لاستكمال تعليمه بالمدينة لم يخفق قلبه، أو لم تنتبْه حالة فقدان شيء عزيز؟

خرجت جموع الشعب مطالبة عبد الناصر بتحمل مسئولياته والبقاء في السلطة حتى استعادة الأرض والكرامة السليبة، وما عزز تمسك شعبنا بقائده في هذه المحنة قناعة هذا الشعب الراسخة بأن ما تعرض له الجيش المصري في حرب ١٩٦٧م هو نتيجة مؤامرة محكمة هدفها استهداف ما كانت عليه حالة القيادة المصرية وخاصة جمال عبد الناصر من شعبية، وحرصه على بناء جيش قوي، والسعي من أجل تحقيق الوحدة العربية، وتكرار الحديث عن تدمير إسرائيل. وهو ما جعل العديد من القوى الغربية والعربية تعمل على إشغال الجيش المصري في اليمن (١٩٦٢- ١٩٧٠م)، واستنزافه في مسارح عمليات وعرة، تبعد آلاف الكيلومترات عن المسرح المصري لست هنا في وارد تقييم تجربة الجيش المصري في اليمن، أو تقييم القرار المصري في ذلك الوقت، ولكن المهم عندي هو النتيجة، التي تؤكد أنه تم استنزاف قواتنا المسلحة في هذه الحرب، التي أثرت بالسلب على استعداده وقدراته القتالية في حرب ١٩٦٧، وترتب على ذلك الهزيمة وضياع الأرض.

مضت الأيام ودفعتنا ضمن تشكيل «الفرقة ١٨ مشاة»، إلى أن استشعرت القيادة أن القوات المصرية غرب القناة سواء في النسق الأول المواجه لخط قناة السويس، أو الأنساق التالية، قادرة على صد أي محاولات للعدو لعبور قناة السويس، فصدرت الأوامر بعودتنا للكلية الحربية لاستكمال دراستنا.

عدنا إلى الكلية، وتمر الأيام ثقيلة؛ لأننا كـ«ضباط المستقبل» في شوق للخدمة في تشكيلات ووحدات القوات المسلحة. كنا ندرك أننا أول دفعة ستدخل إلى الخدمة في هذه التشكيلات والوحدات لم تكن مشاركة في حرب يونيو ١٩٦٧م. كنا في شوق كبير لتحمل أشرف مهمة، وهي استعادة الأرض (سيناء)، واستعادة المكانة واستعادة الشرف واستعادة الروح وهزيمة إسرائيل.

لا أحد يخفى عليه تأثير ما جرى للجيش المصري في يونيو ١٩٦٧م على العلاقة بين الجيش والشعب، وفقدان الثقة التي اهتزت في الأيام الأولى للهزيمة. لا أحد يخفى عليه محاولات إسرائيل - التي لم تتوقف - للعمل على تخريب هذه العلاقة العضوية بين القوات المسلحة المصرية وشعبها المصري العظيم.

وفي هذا المجال أشير إلى حديث تلفزيوني بيني وبين أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة بعد أحداث «إستاد بورسعيد» التي راح ضحيتها ٧٢ من مشجعي

كرة القدم في مباراة بين النادي الأهلي والنادي المصري البورسعيدي في فبراير ٢٠١٢؛ حيث تعرضت قيادة القوات المسلحة في هذه الفترة لهجوم عنيف من بعض التيارات التي طالبته بالتخلي عن الحكم في الفترة الانتقالية ما بين تنحي الرئيس الأسبق محمد حسني مبارك إلى أن تم انتخاب رئيس جديد في عام ٢٠١٢م.

الهجوم العنيف لهذه التيارات التي كانت تطالب بتسليم السلطة من المجلس الأعلى للقوات المسلحة كانت تخدم - سواء عن قصد أو غير قصد - مخططًا مدمرًا يهدف إلى القضاء على المؤسسة العسكرية، التي هي على مر التاريخ الحارس الأمين لهذا الوطن.

كان حديثي مع عضو المجلس الأعلى للقوات المسلحة في ذلك الوقت بعد حادث إستاد بورسعيد مركزًا حول المحاولات العنيفة والمستمية لاختراق العلاقة بين الجيش والشعب. قلت له: إن المجلس الأعلى للقوات المسلحة يتعرض لهجوم عنيف من التيارات التي تطالب بتسليم السلطة. الضغوط عنيفة والهدف المعلن هو تسليم السلطة، والهدف غير المعلن هو التأثير على العلاقة بين المؤسسة العسكرية والشعب، وإفساد هذه العلاقة هو الهدف الذي لم تستطع إسرائيل تحقيقه حتى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧. وأجبت أنه عندما يخفق المجلس الأعلى للقوات المسلحة في مهمته بالحفاظ على البلاد حتى انتخاب رئيس جديد سيصاب المواطن والمجتمع بالإحباط، لكن تمسك المجلس بتحقيق مهمته سيدحر كل محاولات التيارات والجماعات المختلفة لتحقيق أهدافها الخبيثة الضارة والمدمرة لعلاقة الشعب المصري بجيشه.

عودة إلى الكلية الحربية؛ حيث استكملنا الفصل الدراسي النهائي، وتم التخرج في حفل بالكلية الحربية تحت الشعار الدائم «الواجب.. الشرف.. الوطن»، فضلًا عن «النصر أو الشهادة».. النصر على العدو واستعادة الأرض والكرامة أو نيل الشهادة.

الفصل الثالث

مقاتل على الجبهة في حرب الاستنزاف

بعد تخرجنا في الكلية الحربية برتبة «ملازم» تم توزيعنا على تشكيلات ووحدات القوات المسلحة الموجودة على جبهة قناة السويس. ولأنني تخصصت في سلاح المدرعات منذ القسم النهائي في الكلية، فقد تم توزيعي يوم ٦/ ١٢/ ١٩٦٧ على قوة الفرقة الرابعة المدرعة، وبالتحديد على كتيبة استطلاع هذه الفرقة. استقبلني قائد هذه الكتيبة بترحاب شديد، قال لي بعد التعارف: «دفعتكم باكورة جيل جديد لم يكن موجودًا في صفوف القوات المسلحة في النكسة، ومصر تعلق عليه آمالًا عريضة لاستعادة الكرامة مع بقية الرجال».

منذ اليوم الأول لالتحاقي بالفرقة الرابعة المدرعة بدأت مهمة استعادة الكرامة من خلال التدريب الشاق والتحلي بالروح المعنوية العالية والإرادة الصلبة، وهو ما كنت شديد الحرص على نقله لجنودي، الذين كانوا يبذلون العرق والدم في التدريب استعدادا لمعركة الشرف واستعادة الأرض السليبة.

منذ الساعات الأولى لوصولي وحدتي العسكرية على جبهة قناة السويس لاحظت غارات الطيران الإسرائيلي من خلال نداء «غارة» الذي ينذر بغارة طيران إسرائيلية علينا؛ وهو ما يعني أن نتوجه جميعًا إلى الحفر البرميلية لتقليل الخسائر البشرية الناتجة عن هذه الغارات اللعينة. كانت مشاهدة الطيران الإسرائيلي يحلق فوق القوات المصرية عبر اختراقاته الجوية لمجالنا الجوي أمرًا مألوفًا، في ظل عدم فعالية الدفاعات المصرية المضادة للطيران، وعدم جاهزية قواتنا الجوية للدخول في معارك تصادمية مع طيران العدو، في هذه المرحلة المبكرة بعد نكسة سنة ١٩٦٧م.

لم تسلم الوحدات العسكرية أو المنشآت الاقتصادية أو التجمعات السكانية من غارات الطيران الإسرائيلي.. من الزيتية جنوبًا إلى بحر البقر[١] شمالًا. كانت تأثيرات

---

(١) في ٨ أبريل ١٩٧٠، قصف الطيران الإسرائيلي إحدى مدارس محافظة الشرقية، وهي مدرسة «أطفال بحر البقر» للضغط على مصر كي توقف حرب الاستنزاف على طول جبهة قناة السويس، المستمرة على امتداد أعوام ١٩٦٨، ١٩٦٩، ١٩٧٠، كما قصف أهدافًا مدنية أخرى؛ للتأثير النفسي في الشعب المصري.

الاختراقات الجوية الإسرائيلية على الروح المعنوية للجنود مع عدم فعالية دفاعاتنا الجوية بالغة السوء.

أمام هذه الأوضاع الصعبة لم تقف القيادة المصرية مكتوفة الأيدي؛ فبعد انتهاء حرب يونيو ١٩٦٧م زاد يقينها أن إسرائيل لا تريد السلام، ولكنها تريد أن تفرض إرادتها على العرب وهي في مركز قوة، باحتلالها الأرض العربية، وأنه لا أمل في تخليها طواعية عن هذه الأرض أو عن أطماعها التوسعية، إلَّا إذا أدركت ولمست أن ما تدفعه من ثمن لا يتناسب مع ما تحتفظ به من مكاسب.

ولم يكن الموقف العسكري الإسرائيلي في ذلك الوقت موقفًا صلبًا، بل كانت تعتريه الكثير من نقاط الضعف خاصة في بنائه الدفاعي؛ الأمر الذي يسمح للقوات المصرية بأن ترفع من تكاليف النصر العسكري الذي حققته إسرائيل وتحوله إلى عبء ضخم يقع على كاهلها.

لذلك، قررت مصر في سبتمبر ١٩٦٨م، التحول إلى إستراتيجية جديدة والانتقال بالجبهة من مرحلة «الصمود» إلى مرحلة جديدة من المواجهة العسكرية، أطلق عليها مرحلة «الدفاع النشط». وهذه الإستراتيجية هي إستراتيجية لصراع طويل الأمد يهدف إلى إجبار إسرائيل على تبديد طاقتها، واستهلاك مواردها، وخلق اقتناع مؤكد لديها أن ثمن الإصرار على العدوان هو ثمن فادح لا تحتمله، وإشعارها بمدى الخطأ الفاحش، الذي وقعت فيه عندما رسمت لنفسها دورًا أكبر من حقيقته.

وفي نطاق هذه النظرية فإنه ليس لزامًا للصراع أن يكون بهدف تحقيق انتصارات عسكرية مدوية، ولكن بالمحافظة على استمرار الصدام وتصاعده المنظم؛ ليتزايد ثقله وعبئه على الجانب المعادي شيئًا فشيئًا، معتمدًا على فرض ظروف قاسية عليه باستخدام وسائل محدودة، ولكن بأساليب تتسم بالمهارة والمرونة، مع استمرار العمل وتزايد ضغوطه المعنوية، التي تؤثر على عناصر القوة العسكرية.

وكان إصرار مصر على تسخين الجبهة عقب توقف القتال مباشرة تجسيدًا حيًّا لرفض الهزيمة، وتعبيرًا عمليًّا عن عقد العزم على إزالة آثار العدوان، ولما لم تكن قواتها المسلحة قد استعدت بعد لخوض حرب جديدة، فلم يكن أمامها إلا أن تمارس حرب الاستنزاف.

وخلال مرحلة الاستنزاف صعَّدت مصر القتال للقمة من خلال عبور بعض القوات إلى الشط الشرقي للقناة، والإغارة على الدفاعات الإسرائيلية؛ من أجل تدمير تحصيناته وتكبيده أكبر قدر من الخسائر في الأفراد والمعدات وإقناعه بأنه لا بد من

دفع الثمن غاليًا للبقاء في سيناء، وانتهت هذه المرحلة في أغسطس عام ١٩٧٠ عندما توقف إطلاق النار بناء على مبادرة أمريكية معروفة باسم «مبادرة روجرز»[١].

وأثبتت حرب الاستنزاف أن قوة صمود مصر وتحملها وقوة إرادتها وتمسكها بهدفها الأسمى، كانت هي العناصر الأساسية التي أعادت الثقة بعد أن كادت هزيمة يونيو ١٩٦٧م تقضي عليه[٢].

بناء ما عرف باسم «حائط الصواريخ» بامتداد جبهة قناة السويس كان أمرًا حتميًّا على القيادة المصرية لمنع طيران العدو من اختراق الأجواء المصرية، وهو ما من شأنه رفع الروح المعنوية للقوات المصرية، وإتاحة الفرصة لها للتدريب وزيادة معدلات كفاءتها القتالية في إطار الاستعداد لاستعادة الكرامة بعيدًا عن أعين العدو.

وفي هذا السياق قامت القوات المسلحة بالتعاون مع شركات المقاولات المدنية مثل «المقاولون العرب» بإنشاء الدشم الخاصة بالصواريخ الحديثة التي تم جلبها من الاتحاد السوفيتي في الخط الموازي للقناة بطول جبهة قناة السويس.

كانت إسرائيل تعلم مدى فعالية «حائط الصواريخ» في حال تمكنت القوات المصرية من استكماله؛ ولذلك قامت بمحاولات مستميتة لمنع عمليات بناء دشم الصواريخ بكافة الوسائل المخابراتية والعملياتية، عبر شن غارات مكثفة على

---

(١) وليم روجرز (١٩١٣ - ٢٠٠١): هو وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية في حكومة الرئيس ريتشارد نيكسون (٢٢ يناير ١٩٦٩ إلى ٣ سبتمبر ١٩٧٣). حاول الوصول إلى اتفاق سلام بين العرب وإسرائيل، لكن تأثيره اضمحل تدريجيًا لصالح مستشار الأمن القومي لنيكسون، هنري كيسنجر، الذي خلفه في وزارة الخارجية.

أما المقصود بـ«مبادرة روجرز» فهو تلك التي تقدم بها وزير الخارجية الأمريكي، الذي تحمل المبادرة اسمه، يوم ١٩ يونيو ١٩٧٠ إلى كل من مصر وإسرائيل، وجاء في نصها كالتالي: «تعلن أطراف النزاع في الشرق الأوسط، وتنفذ وقفًا محدودًا لإطلاق النار مدته تسعون يومًا، وفي هذه الفترة ينشط السفير جونار يارنج لينفذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، وبالتحديد فيما يتعلق بالتوصل إلى اتفاق سلام عادل ودائم، يقوم على الاعتراف المتبادل والسيادة ووحدة الأراضي والاستقلال السياسي، بسحب إسرائيل قواتها من الأراضي التي احتلتها في معركة ١٩٦٧".

وكانت المبادرة بهذه الصيغة المتوازنة تنبع من روح قرار مجلس الأمن ٢٤٢. ووجد الرئيس جمال عبد الناصر أن قبولها أمر ممكن؛ لإعطاء فرصة للقوات المسلحة لاستعادة كفاءتها القتالية بعد حرب متصلة استمرت قرابة ألف يوم. ووجدت فيها إسرائيل فرصة للخروج من أزمتها وإيقاف نزيف الخسائر الذي تتعرض له، وقبلت الأطراف المبادرة وأعلن وقف إطلاق النيران اعتبارا من يوم ٨ أغسطس ١٩٧٠م

(٢) موسوعة مقاتل في الصحراء، حرب الاستنزاف، النسخة الإلكترونية.

المهندسين والعمال المشاركين في أعمال البناء؛ ونظرا لعدم تدريب العاملين على كيفية تقليل تأثير هذه الغارات كان بعضهم يترك مكان العمل في إطار حرصه على تجنب الخسائر.

أمام هذا الوضع كان قرار قائد الجيش الثالث الميداني الذي كنت أعمل في وحدة من وحداته بتكليف عناصر من وحدات النسق الثاني للجيش بالتواجد مع العاملين المدنيين لدعم صمودهم وتدريبهم على كيفية التعامل مع الغارات الجوية الإسرائيلية، سواء كانت وهمية أو حقيقية، وجاء دوري مع أفراد سريتي للتواجد مع العمال غرب جبل جنيفة.

دربنا العمال على الإجراءات الوقائية من ضربات الطيران الإسرائيلي، وكيفية التصرف في مثل هذه المواقف، وتم بحمد الله الانتهاء من بناء الدشم الخاصة بالصواريخ في وقت أعتقد أنه قياسي بالتعاون بين أفراد الجيش والمهندسين والعمال المدنيين. ولا عجب في ذلك؛ فالجميع كان يدرك أهمية بناء هذا الحائط لتأمين العمق المصري من اختراقات الطيران الإسرائيلي، وهو ما من شأنه الاقتراب من ساعة الصفر لتحرير سيناء الحبيبة.

وبالتوازي مع ذلك نجحت جهود القيادة السياسية في الحصول على صواريخ دفاع جوي من طرازات «سام» المختلفة روسية الصنع، وكذلك نجحت في الحصول على وسائل الإنذار من رادارات وخلافه، وأثبت هذا الحائط بعد استكماله فعاليته على مدار الفترة حتى عبور القناة في أكتوبر ١٩٧٣م.

دوريات خلف خطوط العدو

ساهم بناء حائط الصواريخ بشكل فعال في رفع الروح المعنوية، ليس فقط لأفراد القوات المسلحة ولكن للشعب المصري كله، إلى جانب أعمال أخرى في نطاق عملي وتخصصي وهو «الاستطلاع خلف خطوط العدو»، الذي يهدف إلى جمع المعلومات عن قوات العدو ومواقعها وقدراتها من خلال الملاحظة المباشرة، وهو ما كان يتم من خلال عبور دوريات الاستطلاع إلى الشاطئ الشرقي لقناة السويس، والدخول إلى أعماق بعيدة في سيناء.

أستطيع أن أقول إن دوريات الاستطلاع خلف خطوط العدو، مع الإغارات والكمائن التي كانت تنفذها قوات الصاعقة في سيناء كانت من الخطوات المهمة

لإعادة ثقة المقاتل المصري في نفسه وقدراته بعد هزيمة سنة ١٩٦٧م[1]؛ ولذلك كانت كتائب الاستطلاع على كافة المستويات كانت تقوم بالعبور إلى سيناء بشكل منتظم، ولن أبالغ إذا قلت إن ذلك كان يتم كل ليلة تقريباً على امتداد جبهة قناة السويس.

كان التحضير لعملية دفع دورية استطلاع خلف خطوط العدو في سيناء أمراً يتم بمنتهى الدقة، بداية من تحديد مهمة الدورية بوضوح تام، سواء كانت المكوث لفترة طويلة في سيناء لجمع معلومات عن تسليح وتدريب القوات الإسرائيلية ومناطق تمركزها، وكذلك الأعمال الهندسية التي يشرع جيش الاحتلال في تدشينها على أرضنا السليبة، أو التواجد شرق القناة لفترات قصيرة بهدف استطلاع نقطة قوية من تلك التي كانت موجودة بطول خط بارليف على الشط الشرقي لقناة السويس، ورصد حركة الدخول والخروج منها وتوقيتاتها، أو مراقبة طريق لفترة ليل في إطار التمهيد لعملية عسكرية لقواتنا ستتم بعد ذلك مستهدفة دوريات العدو التي تمر على هذا الطريق.

---

(١) سبقت عمليات الدفع بدوريات إلى سيناء مجموعة من العمليات المهمة التي كان لها التأثير الكبير على المستوى المحلي والعربي والعالمي وهي:

أ. معركة رأس العش: في الأول من شهر يوليو ١٩٦٧. إن نجاح القوات المصرية، ذات القدرات المحدودة في ذلك الوقت وبسالتها، ضد قوات معادية متفوقة تساندها القوات الجوية «الذراع الطويلة لإسرائيل» كما يطلقون عليها، أثار مشاعر المقاتلين على طول خط الجبهة حمية وحماساً واستعداداً للمواجهة المنتظرة.

ب. معارك القوات الجوية: ففي خلال يومي ١٤، ١٥ يوليه ١٩٦٧، نفذت القوات الجوية المصرية طلعات هجومية ضد القوات الإسرائيلية في سيناء، أحدثت فيها خسائر فادحة، بل أدت إلى فرار بعض من الأفراد الإسرائيليين من مواقعهم. ومن هنا زادت الثقة لدى المقاتلين في قواتهم الجوية بعد هذه العملية الناجحة.

ج. معارك المدفعية: كان الاشتباك الكبير الذي ركزت فيه المدفعية المصرية كل إمكانياتها في قطاع شرق الإسماعيلية، في ٢٠ سبتمبر ١٩٦٧، والذي تمكنت فيه من تدمير وإصابة عدد غير قليل من الدبابات الإسرائيلية، وصل إلى تسع دبابات مدمرة، فضلاً عن الإصابات في الدبابات الأخرى وعربتي لاسلكي، وقاذف مدفعية صاروخية، بالإضافة إلى ٢٥ قتيلاً، و٣٠٠ جريح منهم ضابطان برتبة كبيرة.

د. إغراق المدمرة البحرية الإسرائيلية إيلات (انظر شكل إغراق المدمرة إيلات) (٢١ أكتوبر ١٩٦٧): إذ تمكنت زوارق الصواريخ البحرية المصرية من إغراق المدمرة البحرية الإسرائيلية (إيلات) في منطقة شمال شرق بورسعيد، وتعد هذه المعركة أول استخدام للصواريخ سطح/ سطح. وكانت خسارة فادحة للقوات البحرية الإسرائيلية، خاصة وأن هذه المدمرة كانت تمثل أهمية كبيرة للبحرية الإسرائيلية في ذلك الوقت، كما كانت خسائرها كبيرة في الأرواح؛ الأمر الذي دفعها لاستئذان مصر عن طريق الأمم المتحدة في البحث عن قتلاها والغرقى، في منطقة التدمير، شمال بورسعيد، واستمرت في عمليات البحث والإنقاذ لأكثر من ٤٨ ساعة بعد أن وافقت مصر على ذلك.

أدت هذه المعارك، التي شملت الأفرع الرئيسية الثلاثة للقوات المسلحة المصرية، إلى بعث الثقة في النفس والقادة والسلاح، بالإضافة إلى المردود الكبير والهائل على معنويات الشعب المصري والعربي، والمردود السلبي والإحباط على المستوى الإسرائيلي؛ حيث أثبتت هذه العمليات أن القوات المسلحة المصرية ليست بالجثة الهامدة، كما كانت تدعي إسرائيل.

بعد تحديد مهمة الدورية يأتي اختيار مكان العبور بمنتهى الدقة والحذر، وانتخاب الأماكن التي يقل فيها نشاط العدو كي تتمكن الدورية من الاندفاع شرقًا دون الاصطدام به، ويتم رصد ذلك من خلال أعمال المراقبة بالنظر لمكان العبور لفترة ليست بالقليلة.

لقد عبرت إلى سيناء خلال حرب الاستنزاف أربع مرات، لكن المرة الأولى كان إحساسي فيها مختلفا عن كل المرات التالية، حدث ذلك سنة ١٩٦٨م. كنت برتبة ملازم، وأعمل قائدا لـ«مجموعة استطلاع خلف الخطوط».

لكن قبل الدخول في استعراض تفاصيل عبوري للقناة في حرب الاستنزاف أود الإشارة إلى أن مهمة العبور خلال هذه الفترة كانت تقع على عاتق كتائب استطلاع النسق الأول لقواتنا، الذي كان بالنسبة لتشكيلنا يتمثل في الفرقة ١٩ المشاة، أما كتائب استطلاع قوات النسق الثاني فكانت القيادة العامة حريصة على عدم الدفع بها بمجموعات منها لشرق القناة؛ لأنه في حال وقوع أي منها في يد العدو سيكون لديها معلومات كثيرة ومهمة بحكم تواجدها في النسق الثاني الذي تتاح لرجاله معرفة أكثر من تلك التي تتوفر لرجال النسق الأول، خاصة بعد نجاحنا في وقف عربدة الطيران الإسرائيلي، الذي رافقه تراجع حاد في قدرته على القيام بطلعات استطلاع لخطوطنا غرب القناة.

حدث بعد ذلك أن قررت القيادة العامة الدفع بمجموعات استطلاع من قوات النسق الثاني لرفع معنويات القوات ولتطعيمها بتجربة مواجهة العدو واختراق صفوفه، فصدرت الأوامر بالسماح لكتيبة استطلاع الفرقة الرابعة المدرعة التي كنت أخدم فيها ببدء عمليات العبور، على أن يقتصر ذلك على «سرايا خلف الخطوط»، وهي سرايا استطلاع مؤخرة العدو.

أعود للمرة الأولى التي عبرت فيها القناة، وأقول إنه في سنة ١٩٦٨م صدرت الأوامر بقيامي بقيادة مجموعة استطلاع للعبور إلى سيناء، وبعد تحديد المهمة والتصديق عليها، بدأنا في التحضير للتنفيذ، عبر زيارة الشط الغربي للقناة نهارًا؛ بغرض تحديد نقطة العبور، من خلال مراقبة المنطقة المستهدف العبور منها لمرة ومرتين وثلاث وأحيانًا أكثر من ذلك إلى أن نحفظ إجراءات العدو على الضفة الشرقية للقناة في اتجاهنا.

بعد استطلاع نقطة العبور يتم تحديد يوم التنفيذ، الذي لا يعلمه إلا المخطط، وبعد انتهائنا من التدريب على خطة العبور واستيعاب المهمة، ننتظر اليوم الذي ستصدر فيه

الأوامر بعبورنا قناة السويس في اتجاه سيناء. في ذلك اليوم يتم استدعاء المجموعة لقيادة الفرقة لصرف المعدات اللازمة للعبور، والمتمثلة في القارب المطاطي وبعض الأشياء الأخرى، التي لم تكن تصرف إلا بتصديق من اللواء عبد المنعم واصل[1]، قائد الجيش الثالث الميداني وقتذاك؛ وذلك لفرض أعلى درجات السيطرة على عمليات العبور للشرق.

بعد صرف المعدات والقارب نتحرك مع الغروب في اتجاه القناة. كان العبور يتم أحيانًا في ليالٍ قمرية وأحيان أخرى في ليالٍ مظلمة أو نصف قمرية، حسبما يرى المخطط وفق اعتبارات موضوعية. عند نقطة العبور نجد في انتظار المجموعة قائد نقطة العبور، وهو ضابط مهمته السيطرة على دفع المجموعات للشرق، وبجواره رئيس استطلاع الفرقة الرابعة، الرائد خيري الشماع، ومهمتهما التأكد من أن من سيركب القارب للعبور هم المصرح لهم بذلك، والمكتوبة أسماؤهم في أمر القتال الذي صدق عليه قائد الجيش.

تبدأ إجراءات العبور بنزول فرد إلى قناة السويس؛ ليسبح في اتجاه الشط الشرقي ومعه حبل سيقوم بتثبيته على هذا الشط. يتم شد هذا الحبل من الضفة الغربية للقناة بحيث يكون طافيا على سطح المياه، بعدها يتم إنزال القارب المطاطي وعليه أفراد المجموعة، الذين سيشدون الحبل، وهو ما من شأنه تسريع اندفاع القارب إلى الشط الشرقي دون إحداث أي صوت يلفت انتباه العدو، مقارنة باستخدام «المقاديف» التي تم استخدامها يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣م.

بعد وصول المجموعة للشط الشرقي يعود الفرد الذي عبر بالحبل إلى الغرب بالقارب والحبل معا، ثم تبدأ المجموعة في تسلق الساتر الترابي بحذر شديد، وهي عملية ليست سهلة، لكن بمقارنتها بالعبور وقت الحرب فهي سهلة جدًا؛ لأن الفرد في دوريات الاستطلاع لا يحمل إلا سلاحه الشخصي، وعدد أفراد المجموعة قليل جدًا؛ وبالتالي لن يكون هناك زحام في تسلق الساتر كما كان بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر.

أول مرة أعبر فيها إلى سيناء وبينما أنا على صفحة المياه بقناة السويس خفق قلبي. كنا مازلنا متأثرين بالدعاية القوية التي بثها الجيش الإسرائيلي عن نفسه باعتباره «الجيش الذي لا يقهر»، لكن هذا الخفقان لم يفقدني تركيزي قط، فباعتباري قائدًا

---

(١) اللواء عبد المنعم واصل: أحد أهم ضباط المدرعات في التاريخ العسكري المصري، كان قائد لواء في حرب ١٩٦٧، ثم تولى قيادة الفرقة الرابعة المدرعة، وخاض حرب أكتوبر ١٩٧٣ وهو قائد للجيش الثالث الميداني، وأنهى حياته الوظيفية محافظا لسوهاج. توفي في ١٧ مايو ٢٠٠٢م.

للمجموعة لا يجب على الإطلاق أن يشعر رجالي إلا برباطة جأشي وقوة أعصابي. بمجرد أن وطأت أقدامنا تراب الشط الشرقي للقناة حتى قمت وبقية أفراد المجموعة بتقبيل رمال سيناء. كانت فرحتنا عارمة بملامسة تراب هذه الأرض الطيبة، وكأننا نوضح لهذه الأرض المصرية الطاهرة مدى المكانة التي تحتلها في قلوبنا، وكأننا نجدد العهد معها بأننا سوف نستعيدها إلى حضن الوطن مهما طال الزمن ومهما كلفنا من تضحيات، والحمد لله قد أوفينا بالعهد.

من الغريب أن هذا الإحساس الذي شعرت به عند أول مرة ألتقي فيها أرض سيناء الحبيبة خلال حرب الاستنزاف قد تكرر معي عند أول مرة أزور فيها إسرائيل بعد انتهاء خدمتي بالقوات المسلحة، والتحاقي للعمل بوزارة الخارجية، وهو ما سأتعرض له بالتفصيل في القسم الثاني من هذا الكتاب.

بمجرد نجاح المجموعة في العبور وتسلق الساتر الترابي يصبح تركيزها كله منصبًّا على تحقيق مهمتها بنجاح تام. ومع تكرار عمليات العبور زادت ثقتنا في أنفسنا وترسخ في يقيننا ووجداننا أننا قادرون على دحر العدو وتحرير أرضنا من دنسه. لم تنسَ القيادة المصرية استغلال ذلك في رفع الروح المعنوية للقوات، حيث تم استحداث نوط سُمِّيَ «نوط العبور»، يقوم القادة بمنحه للأفراد (ضباط، وضباط صف، وجنود) الذين نفذوا عمليات عبور إلى سيناء، وتم تطوير هذا الأمر بعد ذلك بكتابة عدد مرات العبور على صدر الفرد في المكان المخصص لتعليق الأنواط والنياشين والفرق الدراسية التي حصل عليها.

كان العبور إلى سيناء حلم كل فرد من أفراد القوات المسلحة، ولاسيما للضباط الذين عاصروا حرب سنة ١٩٦٧م، وفي هذا السياق لا أنسى تلك المرة التي كنت فيها على رأس مجموعة عند إحدى نقاط العبور استعدادا لتنفيذ مهمة خلف خطوط العدو في سيناء. كالعادة كان معنا قائد النقطة، والرائد خيري الشماع، رئيس استطلاع الفرقة الرابعة المدرعة، بجانب اللواء عبدالرحمن فهمي، رئيس أركان هذه الفرقة، الذي قال: سأعبر مع المجموعة كي أشاهد كيفية إتمام العبور، ثم سأعود مع القارب مرة أخرى. أريد أن ألمس بيدي أرض سيناء.

رددت عليه قائلًا: «هذه مخاطرة كبيرة جدًّا يا أفندم. ماذا لو حدث لسيادتك مكروه لا قدر الله؟». وهنا تدخل الرائد الشماع موجهًا خطابه إلى اللواء فهمي: «يا فندم مينفعش.. وهذا الأمر فيه مخاطرة عالية جدًّا، لا تناسب العائد منها». فعدل

الرجل عن فكرته، لكنه كان تواقا لمعانقة الأرض التي شعر أنها سلبت منا دون أن تتاح لنا فرصة حقيقية للدفاع عنها في سنة ١٩٦٧م.

تحديث شدة القتال

عندما توليت قيادة سرية في عام ١٩٦٩م وجدت أن شدة القتال الخاصة بالأفراد بما بها من ذخيرة ومياه ومعدات وتعيين لا تمكن الفرد من الاستخدام الجيد لما لديه من سلاح، بل بالعكس تنهكه. عند مناقشة هذا الموضوع مع القيادة وجدنا أن هذه الشدة هي المستخدمة بالجيش المصري من قديم الأزل. كانت مشكلتها تتمثل في أنها تمثل ضغطًا شديدًا على الكتفين؛ وبالتالى تضغط على الذراعين، وفي ظل هذا الضغط لا يمكن للفرد استخدام السلاح بالكفاءة المطلوبة، فضلًا عن أنها تصيب فرد الاستطلاع بالإعياء والإرهاق.

تناولت الموضوع والمشكلة مع جنود وضباط السرية (قادة المجموعات) طلبت من الجميع أن يضع تصورًا لحل مشكلة شدة القتال، ومن منطلق كوني ضابط مدرعات في الأساس فإنني أعلم أن الدبابة رغم أن وزنها يصل أحيانًا إلى ٤٠ طنًا، فإن جنزيرها لا يترك أثرًا عميقًا في الأرض، في حين أن وزني في ذلك الوقت ٦٧كم وعند مروري في نفس المكان الذي مرت عليه الدبابة فإن قدميَّ تتركان أثرًا أعمق.

ومن هنا جاءت فكرة الحل التي تتلخص في أننا لو قمنا بتوزيع نفس الحمولة الموجودة في الشدة على مساحة أكبر من مساحة الجربندية (هي الجزء العلوي في شدة القتال) وضاعفنا هذه المساحة إلى الضعف؛ فإننا سوف نقلل الضغط إلى ٥٠٪، وإذا أضفنا إلى الضعفين فـنقلِّل الضغط إلى ٢٥٪. بعد فترة قصيرة توصلنا إلى فكرة تصميم جيد للشدة تم فيه توزيع المياه والذخيرة والمعدات والتعيين على أجزاء الجسم.

تم عرض الفكرة والتصميم الجديد لشدة القتال، وبعد إقرارها تم إرسالي إلى إدارة المهمات بالتصميم، وتم تصنيع هذه الشدة وتعميمها على أفراد كتائب الاستطلاع، ثم جميع وحدات القوات المسلحة، وهي شدة القتال التي ترونها مع الجنود عند عبور القناة وحتى اليوم. إنها القوات المسلحة.. أسلوب علمي متميز يحل المشاكل من خلال خطوات متعددة، تبدأ بمناقشة المشكلة ووضع تصورات لحلها من خلال من يعانون منها، ثم اتخاذ الإجراءات الفعالة للتنفيذ بعد القناعة بالفكرة، وإتاحة الفرصة للتجربة، وبعد نجاحها يتم تعميمها بما يحقق الكفاءة والفعالية.

أردت سرد بعض جوانب الحياة والاهتمامات لنا نحن جنود وضباط وقيادة القوات المسلحة خلال الفترة من يونيو ١٩٦٧ إلى أكتوبر ١٩٧٣، حيث لم يكن هناك شاغل يشغلنا إلا الاستعداد لمعركة استعادة الكرامة، ولا هَمَّ للقيادة إلا تذليل الصعاب التي تواجهنا بالإمكانات المتاحة.

رفع الروح المعنوية للقوات

كانت القيادة السياسية حريصة كل الحرص على رفع الروح المعنوية للضباط والجنود خلال مرحلة الاستعداد لتحرير سيناء، من خلال إجراءات عديدة؛ منها زيارات الرئيس جمال عبد الناصر للجبهة؛ لمناقشة المشاكل والوقوف على طبيعة الحياة المعيشية والإدارية للجنود والضباط؛ أو للمشاركة مع ضيوفه العرب في حضور المراحل النهائية للمناورات والتدريبات الدورية.

أذكر أنه في إحدى الزيارات جاء الرئيس عبد الناصر ومعه الرئيس الليبي الراحل، العقيد معمر القذافي، لحضور المرحلة النهائية لمناورة الفرقة الرابعة المدرعة، ومرة أخرى جاء الرئيس بمفرده بصحبة الفريق محمد فوزي، وزير الدفاع، وعقد مؤتمرًا (اجتماعًا) مع الضباط والجنود، وكان اللواء عبدالمنعم واصل هو قائد الفرقة (قبل أن يصبح قائد الجيش الثالث الميداني)، وجاءت التعليمات من اللواء واصل بأن لا أحد يتحدث مع الرئيس عن الحياة الصعبة التي نعيشها، ولا النقص في المهمات والمعدات. كانت المفاجأة عندما سأل عبد الناصر عن المشاكل والمتاعب التي تعاني منها القوات؛ فقام اللواء عبدالمنعم واصل بسرد جميع المشاكل والمعاناة التي نعاني منها جميعًا، والنقص في المعدات وهو الأهم بجانب كل ما نحتاجه في مرحلة الاستعداد لمعركة استعادة الكرامة. كان الرئيس عبد الناصر يبدي تفهمه لحجم التضحيات، ويعد بحل المشاكل على قدر الإمكان.

في إطار رفع الروح المعنوية للقوات كانت تقوم وفود من الهيئات الشعبية وأعضاء المجالس النيابية بزيارة الوحدات على فترات مختلفة. كنا نعد لهم بيانات عملية توضح مدى الاستعداد الذي نقوم به حتى نطمئنهم بأننا ماضون لتحقيق الهدف الأسمى وهو تحرير الأرض.

خدمت في الجبهة منذ عام ١٩٦٧ وقت تخرجي في الكلية الحربية حتى عام ١٩٧٣، كنت خلال الإجازة أذهب إلى قريتي لأزور أسرتي، فأركب أتوبيس «نقل

عام» القاهرة ـ المنصورة، ثم أركب خط «المنصورة ـ المطرية»، وأنزل منه في القرية المقابلة لبلدتنا وهي قرية ميت عاصم، وأتحرك سيرًا على الأقدام لعبور الكوبري إلى بلدتنا «أبو ذكري».

لن أنسى ما حييت ما حدث في إحدى هذه الزيارات، فبينما أنا في طريقي إلى بيتنا بالقرية وجدت «القباني الفصيح» و«البقال» و«الحلاق الغلباوي» يجلسون على المصطبة، نادى ثلاثتهم عليَّ فذهبت إليهم. بعد تبادل السلام والتحايا إذا بأحدهم يقول لي: «مش قادرين تخرجوا إسرائيل من سيناء وترجعوهم أو تخلصوا عليهم؟» يقول وهو يشير بيديه كأنه قائد كبير خاض العديد من المعارك في الحرب العالمية الثانية: «شوية يخشوا من بورسعيد.. وشوية من السويس.. والباقي يخشوا على اليهود بالمواجهة ونخلص عليهم». منذ ذلك الحين وأنا أطلق على أمثال هؤلاء لقب «جنرالات المصاطب»، وأطلق نفس اللقب على من يُفتي بدون علم أو معرفة بالإمكانيات والتطورات والمخاطر.

وهنا أتذكر أنه بعد حوالي ٤٠ سنة من حديثي مع «جنرالات المصاطب» تذكرته في حديث لي مع الرئيس الفلسطيني محمود عباس (أبو مازن) دار حول من ينصحونه باتخاذ خطوات أو إجراءات معينة في الأزمات التي يتعرض لها على مدى رئاسته للسلطة الفلسطينية؛ حيث حكيت له عن نصائح «جنرالات المصاطب» فيما يخص الحرب، فصارت نادرة نتذكرها معا كلما التقيته عن أولئك الذين يفتون أو ينصحون بغير علم ومعرفة.

وما أكثر «جنرالات المصاطب» اليوم، حيث هم موجودون في جميع المجالات؛ منهم من يقرأ خبرا عبر شبكات التواصل الاجتماعي، أو مقالًا في جريدة أو يشاهد برنامجًا تلفزيونيًّا، وبعد ذلك نجده يجلس وسط معارفه أو أصدقائه ويتحدث وكأنه خبير في موضوع الحديث!

أعود إلى الجبهة والميدان فأقول: بينما كانت جهود القيادتين السياسية والعسكرية تتعاظم يوما بعد يوم استعدادا لمعركة الكرامة وإذا بحدث ينزل كالصاعقة ليس فقط على أفراد القوات المسلحة بل على جميع أفراد الشعب المصري، ولن أبالغ إذا قلت العربي أيضًا، ألا وهو وفاة الرئيس جمال عبد الناصر؛ ففي ذلك اليوم (٢٨/ ٩/ ١٩٧٠م) توقفت برامج الإذاعة المصرية المعتادة لتتفرغ لبث بعضٍ من آيات الذكر الحكيم. بدأ الجميع في التكهن بما حدث، وجاءت جميع التكهنات بعيدة

عن وفاة الرئيس عبد الناصر، حيث كان يمارس نشاطاته المعتادة في استقبال وتوديع ضيوف مصر[1].

استمرت حالة الترقب إلى أن ألقى نائب رئيس الجمهورية، أنور السادات، البيان الذي نعى فيه إلى الأمة وفاة الرئيس جمال عبد الناصر. ولك أن تتخيل مدى الإحباط الذي أصاب الشعب والجيش المصري نتيجة هذا الحدث المفاجئ. وفي كل هذه الأجواء المضطربة رفعت القوات المسلحة درجات الاستعداد القتالي تحسبًا لإقدام العدو الإسرائيلي على استغلال الظرف الذي تمر به مصر بتوجيه ضربات غدر لها.

في ٧ أكتوبر سنة ١٩٧٠م وافق مجلس الأمة على ترشيح السادات رئيسًا للجمهورية خلفا للرئيس الراحل عبد الناصر، وأجرى استفتاء شعبيًا على ترشيحه يوم ١٥ أكتوبر من نفس العام، ووافق الشعب على انتخاب السادات لرئاسة الجمهورية بنسبة ٩٠,٠٤٪، الذي واصل ما بدأه عبد الناصر في رفع الروح المعنوية للقوات والسعي لاستكمال النقص في المعدات والأسلحة استعدادا ليوم لا مفر منه وتنفيذ عهد قطعته القوات المسلحة على نفسها ليس فقط لاستعادة الأرض المحتلة، ولكن استعادة كل حبة رمل دنسها العدو الإسرائيلي في إطار استعادة الكرامة لكل فرد في الشعب المصري.

عودة إلى الأوضاع التي كنا عليها على الجبهة في قوات النسق الثاني للجيش الثالث الميداني وسعي القيادة لرفع الكفاءة القتالية للأفراد والمعدات من خلال التدريب الجاد. كان من أهم العوامل لرفع الروح المعنوية للجندي المصري خلال هذه الفترة هو ثقته في أن الاستخدام الأمثل لما بين يديه من سلاح هو الطريق إلى تحقيق النصر؛ لأنه عندما يثق المقاتل في قيادته وفي أن ما لديه من أسلحة ومعدات لن تخذله عند مواجهة العدو يكون قد اكتمل جناحا الثقة عنده (الثقة في القيادة، والثقة في كفاءة السلاح)؛ فتتعاظم فرصه في تحقيق النصر.

---

(١) كان الرئيس جمال عبد الناصر قبل وفاته بيومين في حركة دائبة لا تهدأ مواصلا الليل بالنهار في اجتماعات مع الملوك والرؤساء العرب الذين وفدوا للقاهرة في ذلك الوقت آملين في وقف نزيف الدم العربي، الذي كان يسيل وقتها في الأردن خلال المواجهات بين القوات الأردنية وبعض المنظمات الفلسطينية التي كانت تعمل من أراضيها، وهي الأحداث التي دخلت التاريخ العربي باسم (أيلول الأسود الفلسطيني)، وظهر الرئيس منهكا ومتعبا قبل وفاته بساعات أثناء توديعه أمير دولة الكويت.

كانت القيادة من خلال التدريب وإجراء المسابقات بين الأفراد وجميع الوحدات الفرعية الصغرى في كل سلاح على مدار العام التدريبي، تكتشف نقاط القوة والضعف، وتشعل الحماس بين الضباط من جميع الوحدات. كنت أحد قادة السرايا الذين منحوا شهادات الامتياز في التدريب تقديرًا من القيادة لتفوقي خلال المسابقات المختلفة، وخلال أعمال التفتيش الدوري والمفاجئ على جهازية الاستعداد للقتال.

في ختام هذا الفصل أود التأكيد على أن حرب الاستنزاف تعد أطول الحروب بين العرب وإسرائيل، هي أول صراع مسلح تضطر إسرائيل فيه إلى الاحتفاظ بنسبة تعبئة عالية ولمدة طويلة، وهو ما ترك آثاره السلبية علي معنويات الشعب الإسرائيلي واقتصاد الدولة، خاصة أن قادة إسرائيل كان قد سبق لهم الإعلان للإسرائيليين عن أن حرب يونيو ١٩٦٧م هي آخر الحروب!

كلنا يعلم إستراتيجية إسرائيل التي تعتمد على الحرب القصيرة الخاطفة، ونقل مسرح العمليات إلى أرض العدو، وإنشاء التحصينات القوية على خطوط الدفاع؛ ولذلك قامت بإنشاء خط بارليف، على اسم الجنرال الإسرائيلي حاييم بارليف، الذي تقابلت معه بعد حوالي عشرين عاما من إنشاء هذا الخط بحضور الجنرال الإسرائيلي إيهود باراك، رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، الذي كان منيعا باستحكاماته المتعددة، والتي كانت تمثل لنا نحن الجنود المصريين مادة جديدة للبحث في كيفية اقتحامه والتقليل من تأثيراته على استعادة الكرامة. وهو ما نجحنا في تحقيقه في النهاية بفضل من الله وعونه.

وهنا يحضرني ما صرح به مناحيم بيجن[1] رئيس وزراء إسرائيل الأسبق عن أن العرب واجهوا إسرئيل في خمس حروب، وهو ما أثار تساؤلات الكثير من المتابعين سواء المتخصصين أو المثقفين حيث إن الشائع أنهم أربع (حرب فلسطين ١٩٤٨، حرب ١٩٥٦، حرب ١٩٦٧، حرب أكتوبر ١٩٧٣)، وعندما سئل عن الحرب الخامسة قال إنها «حرب الاستنزاف».

---

(١) مناحيم بيجن (١٦ أغسطس ١٩١٣ - ٩ مارس ١٩٩٢). ولد في روسيا البيضاء ودرس فيها حتى أنهى المرحلة الثانوية؛ ومن ثَمَّ سافر إلى بولندا في عام ١٩٣٨ حيث جامعة «وارسو» لدراسة القانون. ويتعرَّف بيجن على العمل الصهيوني من خلال منظمة «بيتار» اليهودية البولندية التي ترأسها في عام ١٩٣٩. حصل على جائزة نوبل للسلام مناصفة مع الرئيس الراحل أنور السادات.

الفصل الرابع

الخداع بصيد الغزال قبل الحرب

عندما انتهت حرب الاستنزاف في أغسطس ١٩٧٠م، كانت مصر قد حققت فوائد كثيرة ودروسا مستفادة ثمينة، وأصبحت الكفاءة القتالية للقوات الإسرائيلية كتابا مقروءا أمام قواتنا. ولعل من أبرزها أن إسرائيل اقتنعت بفشلها في إسكات شبكة الدفاع الجوي المصرية (حائط الصواريخ)، ولم يعد متاحا لسلاح الجو الإسرائيلي العمل في الأجواء المصرية بكفاءة أو تأثير كما كان من قبل، ومن هنا عاد الجيش الإسرائيلي إلى مستوى كفاءته الحقيقية في القتال. وفي نفس الوقت أصبحت قواتنا قادرة على العمل بحرية تحت حماية الدفاع الجوي بالتعاون مع القوات الجوية، عندما يصدر قرار القيادة المصرية بالحرب الشاملة لتحرير سيناء.

كان من الطبيعي أن تتحمل مصر الخسائر في حرب الاستنزاف، وهو ثمن دفعناه في الطريق إلى حرب أكتوبر، كما دفعت إسرائيل ثمن بقائها في سيناء غاليا حتى نشوب هذه الحرب. إن الوضع العسكري والسياسي لمصر في نهاية حرب الاستنزاف، كان أفضل من وضعنا في بدايته. وفي الحقيقة فإن توقف القتال في يوم ٨ أغسطس ١٩٧٠ - بموجب اتفاقية روجرز - لم يكن يعني توقف عجلة الحرب، ولكنه كان بداية مرحلة جديدة لحرب أكتوبر ١٩٧٣م[1].

بعد انتهاء حرب الاستنزاف كانت الأيام تمر ثقيلة علينا على جبهة قناة السويس؛ لأننا وصلنا مرحلة انتظار قرار الحرب وأوامر القتال لتنفيذ ما عاهدنا الله والشعب المصري على تحقيقه، وهو تنفيذ أي مهمة في أي وقت وتحت مختلف الظروف حتى تحقيق النصر أو الشهادة في سبيل الله والوطن.

تمر الأيام ونحن نواصل الاستعداد لإزالة آثار عدوان سنة ١٩٦٧م وتحرير سيناء، ونرفع الكفاءة القتالية لوحداتنا ومعداتنا، ونرى أثر ذلك حيث انحسرت الغارات الإسرائيلية، وأصبح نادرا ما نلاحظ المشهد الذي كنت أراه في أول أيام التحاقي بكتيبة

---

(١) محمد عبد الغني الجمسي، مذكرات الجمسي.. حرب أكتوبر ١٩٧٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص ص ١٩٠: ١٩١.

استطلاع الفرقة الرابعة المدرعة في ديسمبر ١٩٦٧م، حيث كان الطيران الإسرائيلي يحلق فوق رءوسنا بشكل شبه يومي. بل على العكس من ذلك. فبعد اكتمال (حائط الصواريخ) في نهايات سنة ١٩٧٠م أصبحنا نشاهد تشكيلات من القوات الجوية المصرية تحلق في اتجاه جبهة القتال، أو في مشروعات التدريب والمناورات وهي تقدم الدعم للقوات البرية، وهو ما ساهم بدوره في رفع الروح المعنوية للقوات، التي أصابتها الصدمة مما جرى لقواتنا الجوية صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧م.

خلال هذه الفترة، ونتيجة لاجتهادي في العمل والتدريب تعززت ثقة قياداتي في شخصي المتواضع، سواء على مستوى كتيبة الاستطلاع، أو على مستوى قيادات الفرقة الرابعة المدرعة، خاصة قائد الفرقة العميد أركان حرب عبد العزيز قابيل[1]، وهو ما ظهر وانعكس على قراره بشأن تنفيذ نشرة تنقلات الضباط الصادرة في أول يوليو ١٩٧٣م، والتي قضت بنقلي إلى كتيبة استطلاع بالقاهرة، حيث طلب من إدارة المخابرات الحربية إرسال البديل الكفء والمناسب حتى يوافق على نقلي.

لا أرى عجبا في تصرف قائد الفرقة الرابعة المدرعة؛ حيث كان كل قائد حريصًا على التمسك بالضباط والقادة الأكفاء، فلا يفرط فيهم بسهولة. ذهبت بعد أسبوع لمقابلة العميد قابيل. طلبت منه السماح لي بتنفيذ النقل، وبعد نقاش، وعندما تأكد من رغبتي في الانتقال إلى وحدتي الجديدة وهي كتيبة استطلاع بالقاهرة أصدر تعليماته لفرع الأفراد باتخاذ الإجراءات اللازمة لإخلاء طرفي من الفرقة. وودعني بقوله: «إن شاء الله ترجع لنا قائد كتيبة».

ذهبت لتسليم خطاب إخلاء الطرف من كتيبتي بالفرقة الرابعة إلى «إدارة المخابرات الحربية والاستطلاع»، وأخذ خطاب منها إلى كتيبتي الجديدة، وإذا بأحد القادة يقول لي: «لن تذهب إلى كتيبتك الجديدة. ستعمل معنا هنا في إدارة المخابرات الحربية بدلًا من ضابط تم نقله. سنقوم بتعديل أمر النقل».

بعد مرور حوالي أسبوع قابلت رئيس عمليات كتيبة الاستطلاع التي نقلت إليها حيث كان في مهمة عمل بالإدارة. سألني: لماذا لم تحضر إلى الكتيبة حتى الآن؟

---

(١) اللواء أركان حرب محمد عبد العزيز قابيل (١٤ مارس ١٩٢٧ -)؛ قائد الفرقة الرابعة المدرعة قبل وأثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣م. ترقى إلى رتبة اللواء، وعين قائدا للمنطقة الغربية العسكرية، ثم الملحق الحربي في واشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، حتى أنهى حياته العسكرية عام ١٩٨٤. حصل على وسام نجمة الشرف العسكرية «أعلى وسام عسكري»، وشغل منصب عميد الملحقين العسكريين في العالم. اللواء قابيل - أيضًا - لاعب كرة القدم في نادي الزمالك في الخمسينيات، وقد شغل منصبي مدير عام نادي الزمالك ووكيل للنادي في الثمانينيات، وعين عضوًا بمجلس إدارة الاتحاد المصري لكرة القدم ثم نائبًا لرئيس اتحاد الكرة عام ٢٠٠٠م.

قلت: أنفذ تعليمات صدرت إليَّ بالعمل في الإدارة، وأن المسئولين سوف يعدلون أمر النقل الخاص بي.

كان تعليقه: أنت مقاتل.. وأظن أنك لست ممن يحبون العمل في المكاتب.

تمسكت قيادة كتيبتي الجديدة بانضمامي إليها، وبعد نقاش بين قائدها و«إدارة المخابرات الحربية والاستطلاع» تم الاتفاق على نقلي إلى هذه الكتيبة، على أن يتم في نشرة قادمة نقلي مرة أخرى للعمل في الإدارة.

وصلت بالفعل إلى هذه الكتيبة لاستلام عملي، وهي كتيبة تضم مجموعات استطلاع مؤخرة العدو. كانت تدفع مأموريات بشكل دوري إلى سيناء لاستطلاع أماكن تمركز قوات العدو، ونشاطه التدريبي.

خلال هذه الفترة من أغسطس ١٩٧٣م كان يتبقى على يوم (ي)[1] الذي سيتم فيه عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف حوالي شهرين، لكن ذلك كان معلومًا لعدد محدد من كبار قادة القوات المسلحة. أما بالنسبة لبقية القادة وصغار الضباط فضلًا عن الجنود فالأمور تسير بصورة اعتيادية؛ لأن القيادة العليا تحرص على تنفيذ خطة «الخداع الإستراتيجي» أو «المفاجأة الإستراتيجية»[2] اللازمة لعملية عسكرية كبيرة سيتم البدء في تنفيذها بعد عدة أسابيع؛ لأننا سنواجه عدوًا غادرًا، تتعاون معه قوى

---

(١) يقصد بيوم (ي) اليوم الذي ستبدأ فيه الحرب، ويقصد بساعة (س) ساعة بدء القتال.

(٢) حدد كارل فون كلاوزفيتز (١٧٨٠ - ١٨٣١م) أحد كبار المنظرين للإستراتيجية العسكرية عددًا من العناصر اعتبرها أساسية عند صياغة أي إستراتيجية عسكرية، من أهمها: امتلاك زمام «المبادرة» وتحقيق «المفاجأة». وقد أولى كلاوزفيتز اهتمامًا كبيرًا ببحث ودراسة «المفاجأة»، التي قال إنها تنقسم إلى قسمين: المفاجأة الإستراتيجية والمفاجأة التكتيكية.

أولًا «المفاجأة الإستراتيجية»: تبدأ زمنيًا من اتخاذ قرار الإعداد للحرب، والبدء في تنفيذه، وتمتد حتى البدء الفعلي للأعمال العسكرية. تختص «المفاجأة الإستراتيجية» بجعل مسألة الإعداد للحرب في جو من السرية الكاملة عن طريق تنفيذ عملية واسعة من الخداع والتضليل المعلوماتي، بحيث يتسنى تجهيز القدرات الذاتية لتكون في وضع يؤهلها للحرب وتحقيق النصر اعتمادًا على امتلاك عنصري «المبادأة» و«المفاجأة». في المقابل تعمل عملية الخداع والتضليل على إيجاد حالة من الاسترخاء أو بالأصح «التخدير» لدى العدو طوال فترة الإعداد للحرب، بحيث تستكمل الإعدادات دون أن يعرف العدو عنها شيئًا. يقوم الإعلام بالدور الرئيسي في تنفيذ وتحقيق «المفاجأة الإستراتيجية» من خلال قيامه بتنفيذ أعمال التضليل والخداع والحرب النفسية، وقبل هذا التحكم في حجم ونوعية المعلومات والتأثير في تفسير هذه المعلومات لدى العدو. «المفاجأة الإستراتيجية» يقررها رئيس الدولة، ويشرف عليها شخص مسئول واحد، وتتم في إطار كامل من السرية والمركزية.

ثانيًا «المفاجأة التكتيكية»: تبدأ زمنيًا عند تحديد ساعة الصفر، أي تحديد وقت الهجوم، وتتوقف على المستوى القتالي المتميز للقوات بالاستخدام الأمثل للإمكانيات المتاحة لتحقيق المفاجأة التكتيكية، وهو ما نجحت فيه قواتنا المسلحة في حرب أكتوبر ١٩٧٣م.

عظمى لها عناصرها المخابراتية المتغلغلة في كثير من نواحي الحياة، مستغلة النفوس الضعيفة والمريضة، وهو ما كشفت عنه بعض قضايا الجاسوسية في ذلك الوقت؛ لأن العدو كان يستهدف الحصول على معلومات تكشف أسرار عمليات العبور أو مواصفات المنشآت العسكرية المصرية أو كشف النوايا الحقيقية للقيادة سواء السياسية أو العسكرية، وهي كلها أمور لم يتمكن منها بفضل الروح الوطنية السائدة في شعبنا المصري العظيم ويقظة أجهزة المخابرات المصرية؛ بدليل تحقيق المفاجأة الكاملة في عملية السادس من أكتوبر، دون أن تكتشفها لا إسرائيل بأجهزتها الأمنية ولا حليفتها الولايات المتحدة الأمريكية بأجهزتها المخابراتية التي تتمتع بإمكانيات جبارة.

بعد وصولي كتيبتي الجديدة بالقاهرة جلست مع قائدها ورئيس عملياتها، وأخبرتهما أنني أتولى قيادة سرية منذ سبتمبر ١٩٧٠م وحتى أغسطس ١٩٧٣م في كتيبة استطلاع الفرقة الرابعة المدرعة بالجيش الثالث، وأنني كنت متفوقا، وحصلت على أفضل قائد سرية استطلاع في هذا التشكيل التعبوي الكبير، وتم منحي شهادات الامتياز والتقدير في التدريب.

أخبرني قائد الكتيبة بأن قادة السرايا الموجودين جميعهم أقدم مني؛ ولذلك رأى القائد ومعه رئيس العمليات - الذي سبق لي الخدمة معه عندما كان يخدم في الجيش الثالث - أن أتواجد بمكتبه حتى يجدا حلًا لهذا الموقف. في تلك الأثناء كانت هناك «مجموعة قيادة» ستسافر إلى مرسى مطروح لإعداد معسكر تدريبي لبعض عناصر الكتيبة بشكل اعتيادي، ولم أكن أعلم - وقتها - أن هذه هي إحدى إجراءات التمويه و«الخداع التكتيكي» على مستوى الكتيبة.

وهنا طرح عليَّ رئيس العمليات فكرة الذهاب معهم إلى مرسى مطروح للإعداد والاشتراك في تدريب عناصر الكتيبة، وقبل أن أجيب ذهب إلى المكتب المقابل وأخذ موافقة قائد الكتيبة على سفري. كانت هذه هي أول مرة أسافر فيها إلى مرسى مطروح. سافرنا بالقطار، وقبل ذلك تم شحن المركبات على القطار الحربي إلى هذه المدينة الساحلية.

وصلنا مرسى مطروح ولم تصل السيارات والمركبات، ومن خلال التعاون مع القوات البحرية تم تدبير بعض المركبات لتنفيذ مهام استطلاع المنطقة، واختيار أماكن التدريب، وكذلك موضوعات التدريب التي تخدم المهام التي سيتم تنفيذها مستقبلا في العمليات العسكرية في إطار معركة استعادة الكرامة.

وهنا أشدد على أنها «معركة استعادة الكرامة»؛ لأننا لو استعدنا سيناء بدون معارك لكانت كرامة الجندي وفرد القوات المسلحة والشعب كله ستضيع حتى يومنا هذا، لكن استعادة الأرض من خلال المعارك وتحقيق الانتصار كانت كفيلة باستعادة مصر بكامل أفرادها للكرامة والكبرياء اللتين تليقان بأمة عظيمة مثل الأمة المصرية الضاربة في جذور التاريخ. استعادة سيناء من خلال القتال قبل أي شيء آخر أثبت للعالم أن هزيمة يونيو ١٩٦٧م كانت نتيجة للخداع، وأن الجيش المصري لم يمنح فرصة حقيقية للتعبير عن نفسه في الذوْد عن الوطن، ولسنا في وارد ذكر أسباب ذلك في هذا الكتاب.

قضينا ليلتنا هذه في «فندق البوسيت» (Beau Site Hotel)، الموجود إلى الآن، والذي كان في أغسطس ١٩٧٣م أشهر فنادق مرسى مطروح، من خلال الإدارة الناجحة، لعائلة «ميتيو» وشقيقه «توني» وزوجته وابنتيه. كانت هذه المدينة في ذلك الوقت «بلا خدمات»؛ المياه تأتيها بالقطار في عربات وفناطيس. وسيلة المواصلات الرئيسية فيها هي «الكاريتة» أو «الحنطور»، شواطئها بكر، نسبة التلوث فيها صفر، هواؤها نقي وصحي، لكنك تشاهد الفصول الأربعة في اليوم الواحد؛ حيث في الصباح يكون الطقس ربيعيًا، وفي الظهر صيفيًا، وقبل الغروب خريفيًا، وبالليل شتويًا!

من خلال أعمال الاستطلاع واختيار مناطق التدريب تم التعرف على المنطقة بشكل جيد. استمرت هذه العملية حوالي أربعة أيام، كنا نقضي فيها النهار في العمل، وفي الليل نجلس في فندق «البوسيت». أصبحنا معروفين بين رواد هذا الفندق، سواء للأجانب أو المصريين، خاصة وأن القطار لم يصل بالمركبات؛ وبالتالي الجنود لم يصلوا حتى الآن من القاهرة.

مرت أيام التدريب كلها شاقة وعنيفة. أذكر أننا كنا نتناول الغداء أيامًا كثيرة في الساعة الخامسة مساء على مقدمة العربات. ما أحلى بذل العرق في التدريب الذي يوفر الدم في المعركة! كان أفراد الكتيبة يصلون إلينا في مرسى مطروح على دفعات.. تغادر دفعة ونستقبل الدفعة الثانية بعد ٢٤ ساعة؛ فقررنا إعداد مفاجأة للدفعة القادمة بإعداد عشاء أسطوري.. على «غزال»!

أعددت رحلة لصيد الغزال تضم بعض أصدقائنا من سكان مرسى مطروح، الذين تم التعرف عليهم خلال تواجدنا في المدينة، بجانب من لديهم الخبرة في الطرق وأماكن تواجد الغزال. لم تكن هناك تعليمات تحرم أو تجرم صيد الغزال في ذلك الوقت. بدأنا رحلة الصيد والخروج من مرسى مطروح في الثالثة فجرًا حتى نكون في

المنطقة الذي يتواجد بها الغزال مع شروق الشمس، وقت خروجه بحثًا عن المرعى. كنا نتعقب آثار أقدامه إلى أن نصل إلى الأماكن التي يرعى فيها.

كانت رحلة ممتعة وشاقة في آن واحد، وتحتاج لترتيبات وضوابط محكمة، لكنها أثمرت - في نهاية المطاف - عددًا وفيرًا وصل إلى ١٥ غزالة تم توزيعها على المشاركين. بعد أن وضعنا في الاعتبار ما نحتاجه لعشاء الضباط والجنود القادمين من القاهرة. وأرسلنا بعضا من هذا الصيد إلى مطعم وملهى «سيروكو» وهو مطعم على ربوة عالية في مرسى مطروح، يعتاد القاطنون والمصطافون قضاء الليل فيه.

كانت حفلة استقبال رائعة للجميع تلك التي نظمناها لزملائنا وجنودنا القادمين من القاهرة، وبداية مشجعة قبل الاندفاع في اليوم التالي لبدء العمل الشاق، إلى أن يتم توديعهم إلى القاهرة. كان الكثير من ضباط وجنود كتيبة الاستطلاع التي نقلت إليها لا يعرفونني، لكنهم يسمعون عني؛ نظرا لانتقالي حديثا إلى الكتيبة، ومغادرتي فور انضمامي إليها إلى مرسى مطروح.

لقد ساهمنا في خطة «الخداع الإستراتيجي » أو «المفاجأة الإستراتيجية» السابقة على حرب أكتوبر ١٩٧٣م دون أن نعلم؛ حيث لا يمكن لجيش يستعد للحرب أن يذهب رجال من وحدات الاستطلاع فيه إلى رحلات لصيد الغزال، أو السهر في الملاهي والمطاعم، والسباحة في مياه بعيدة جدًا عن الجبهة، ومشاهدتهم كل ليلة في الفنادق والمطاعم، خاصة في فندق مثل «البوسيت» الذي يتواجد به أجانب من جنسيات مختلفة.

خلال الأسبوع الأول من أكتوبر ١٩٧٣م كنا قد أتممنا تدريب جميع الدفعات، وعاد جميع الضباط والجنود إلى القاهرة عدا من تم تكليفه بمهام في مناطق أخرى، ولم يبقَ في المعسكر سواي وبعض الجنود والإداريين ومركبة واحدة.

جاءت التعليمات من القاهرة بأن أقوم بإعداد عشاء لكل من قام بمساعدتنا، سواء في القوات البحرية أو المنطقة الغربية أو مخابرات الحدود، وبنفس طريقة استقبال دفعة التدريب تم ترتيب طلعة «صيد غزال» بنفس المجموعة، ومعنا «توني» شقيق مدير فندق «البوسيت»، وبعد انتهاء الرحلة تم استخدام ما قمنا بصيده في إعداد حفل وداع لمرسى مطروح.. الأرض والسكان والسائحين. دعوت كل من تعاون معنا وسهل لنا مهمة التدريب، سواء من القاعدة البحرية أو مكتب مخابرات الحدود وعدد من الشخصيات العامة بمرسى مطروح، وخلال حفل العشاء ألقيت كلمة شكر

وعرفان لجميع الحاضرين على دعمهم لنا مع أمل العودة مرة أخرى في ظروف أفضل وبعد تحقيق النصر.

خلال إحدى الزيارات التي كنت أقوم بها للقاعدة البحرية لاحظت أن شيئًا غير عادي يحدث. رأيت قطعا بحرية تغادر المرسى[1]، وعند سؤالي: «على فين العزم؟». ذكر أحد الرجال: «إلى باب المندب»، أي إلى مدخل البحر الأحمر. عند هذه اللحظة أيقنت أن شيئًا ما سوف يحدث.

هلَّ هلال شهر رمضان ١٣٩٣هـ. وقد بدأ الشهر الكريم ونحن في انتظار التعليمات الأخيرة من القاهرة بالعودة. مرت الأيام القلائل المتبقية ثقيلة؛ لأن التدريب انتهى، والرفاق غادروا، وجو المدينة أصبح باردًا. إلى أن جاء اليوم الخامس من رمضان الموافق الأول من أكتوبر وصدرت الأوامر بعودتي من مرسى مطروح؛ فقررت التوجه إلى الإسكندرية في «سيارة أجرة ٧ راكب»، على أن أستقلَّ القطار من الإسكندرية إلى القاهرة.

بعد تناول السحور في مرسى مطروح استرحت حتى الصباح، واتفقت على العودة مع أحد السائقين العاملين على خط مطروح - الإسكندرية، الذي قال لي إنه سيتحرك بعد الظهر، فذهبت في صباح ذلك اليوم إلى «سوق ليبيا»، واشتريت نوعيات من «قماش الشاي» المستورد، التي لم تكن موجودة بالسوق المحلية. وفي الموعد المحدد تواجدت مع السائق الذي سيقلنا من مطروح إلى الإسكندرية.

---

(١) يقول المشير محمد عبد الغني الجمسي، رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة إبان حرب أكتوبر ١٩٧٣م في الصفحتين ٢٨٦ و٢٨٧ من مذكراته ما يلي: «وللتعرض لخطوط المواصلات البحرية الإسرائيلية في مضيق باب المندب بواسطة البحرية المصرية، كان لابد من أن تصل المدمرات المصرية إلى منطقة عملها قبل ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣م؛ لذلك قمنا في وقت مبكر خلال عام ١٩٧٣ بالاتصال بإحدى الدول الآسيوية الصديقة لقبول هذه القطع البحرية للإصلاح في ورشها. تمت الاتصالات مع السودان واليمن الجنوبية للحصول على موافقة كل منهما لتقوم مدمراتنا بزيارة ميناءي بورسودان وعدن زيارة ودية. ووضع برنامج الرحلة والزيارات بحيث تتواجد المدمرات في مضيق باب المندب صباح يوم ٦ أكتوبر تبدأ تنفيذ مهمتها.

وللمحافظة على سرية الهدف من الزيارة ومهمة القتال، فقد تأكدت قيادة القوات البحرية أن المدمرات أبحرت مستعدة تمامًا للقتال. وعندما حان الوقت المناسب في أثناء الرحلة البحرية، فتح قائد القوة مظروفًا سريًّا، وجد به تعليمات القتال للتعرض لخطوط المواصلات البحرية الإسرائيلية في المضيق، وهو ما تم تنفيذه بكفاءة. وكانت هذه المهمة الإستراتيجية مفاجأة غير سارة لإسرائيل، التي لم يكن أمامها إلا أن تقتنع بأن تمسكها بشرم الشيخ لتأمين الملاحة البحرية في مضيق خليج العقبة إلى إيلات لا قيمة له، وسقطت دعواها في هذا الشأن».

الطريق إلى الإسكندرية كان مخيفًا وضيقًا، ويستخدم للسير في الاتجاهين دون فاصل بينهما، ومليئًا بالمطبات، وجزء كبير منه متهالكًا ومهلكًا للسيارة والسائق والراكب معا. وصلنا إلى مدينة العلمين وقت أذان المغرب بالضبط. انحدر السائق يمينا في مدخل المدينة، ثم انتشرنا على المقاهي، ليختار كل منا المقهى أو المطعم الذي سيتناول فيه طعام الإفطار.

بعد تناول الإفطار وشرب الشاي ثم صلاة المغرب تحركنا في اتجاه الإسكندرية، وإذا كان الطريق نهارًا مهلكًا للجميع فإنه من العلمين إلى الإسكندرية مهلك ومرعب حتى العجمي. عند وصولي إلى الإسكندرية ذهبت إلى فندق ضباط القوات المسلحة بمحطة الرمل، وكأنه قدري. استرحت قليلًا من عناء الرحلة، ونفضت غبارها في حجرتي؛ حيث أخذت حماما دافئا، وبعدها تحركت إلى محطة القطار وحجزت تذكرة للسفر إلى القاهرة في قطار الساعة التاسعة صباحًا. ثم بعد ذلك أخذت جولة للتنزه في محطة الرمل، وقد أنهكني التعب وحلَّ بي الإرهاق رغم ما عرف عني من قوة التحمل والقدرة الفائقة على مقاومة التعب.

كان ميدان محطة الرمل في ذلك الوقت جميلًا، ومحلات الفاكهة والبقالة الموجودة به رائعة ومشجعة على الشراء. قررت أن أشتري بعض الأصناف لطعام السحور. وقفت أمام أحد محلات الفاكهة وأخذت كيسًا من الورق ووضعت فيه تفاحة وثمرة كمثرى وجوافتين وإصبع موز واحدة، وهنا صاح صاحب المحل: «إيه.. هو أنت خواجة؟».

قلت له: «مزعل نفسك ليه؟ اوزنهم وبأعلى سعر سأحاسبك!»، وقد تم ذلك بالفعل، ثم أخذت «علبة زبادي» و«رغيف عيش فينو»، واشتريت جريدة - أعتقد أنها كانت جريدة صباحية - وتوجهت إلى الفندق. وضعت ما اشتريته في ثلاجة الحجرة، وألقيت نفسي على الفراش بعد عناء السفر في «السيارة الأجرة» التي لم يعرف سائقها حدودا للسرعة ولم يستجبْ لاستغاثات الركاب: «يا عم هدي السرعة شوية»، مع طريق يحتاج إلى طريق!

استدعيت جنديًا من العاملين في الفندق. طلبت منه إيقاظي لتناول طعام السحور، ورحت أتصفح الجريدة، ولم أدرِ بعدها إلا والشمس وأشعتها قد ملأتا الحجرة. هنا استيقظت ووجدت كل شيء كما هو. اكتشفت أنني لم أستيقظ، ولم أتناول سحوري «يا نهار أبيض»!

استدعيت الجندي مرة أخرى وسألته: لماذا لم توقظني لتناول وجبة السحور؟ أجاب بأنه وقت السحور وجد نور الحجرة مضاء؛ ولذلك اعتقد أنني استيقظت. قلت: الحمد لله أن السحور قد فاتني لكن القطار لم يفتني. تذكرت الفاكِهانيّ وهو يقول لي: «هو انتَ خواجة؟». عندما كنت أختار ثمرة واحدة من كل نوع من الفاكهة، والجدال والنقاش معه، وأخيرًا قلت: «هذه الثمرات ليست من نصيبي».

رحلة القطار من الإسكندرية إلى القاهرة والعكس من الرحلات المحببة إلى قلبي؛ حيث كان القطار هو الوسيلة المفضلة لديَّ خلال السنوات الماضية؛ لأنني تعودت على قضاء إجازاتي في الصيف في مدينة الثغر، وفي فندق الضباط بمحطة الرمل ذي المباني الإنجليزية الطابع؛ حيث الطراز المعماري الفريد من السقوف العالية، والحجرات المتسعة ، وأماكن تغيير الملابس المريحة (Dressing area).

انتهيت من إعداد حقيبتي وهبطت إلى مكتب الاستقبال بالفندق. دفعت حساب الليلة، ثم توجهت لركوب الترام من «محطة جامع إبراهيم»، التي كانت هادئة وقليلة الركاب؛ لأننا كنا في شهر أكتوبر؛ حيث زحام المصيف قد انتهى، ومنها إلى محطة قطار سيدي جابر.

خلال رحلة العودة مرت بخاطري تفاصيل الفترة من ٥ أغسطس وحتى السحور الذي لم يكتمل قبل فجر يوم ٢ أكتوبر ١٩٧٣م (يوافق ٦ رمضان ١٣٩٣هـ). تذكرت معسكر الإعداد الذي تم بعيدًا عن مقر الكتيبة بالقاهرة. تذكرت التدريب الشاق على الموضوعات والأعمال التي سنحتاج إليها في المعركة المقبلة المنتظرة، من: طوابير السير لمسافات طويلة، الملاحة البرية النهارية والليلة، السباحة والتجديف، الرماية، اللاسلكي والكود المستخدم، إلى تمييز الأسلحة. مرت بخاطري جميع الخطوات والأعمال التي تم تنفيذها بالمعسكر، حتى حفلات الترفيه والشخصيات التي تعرفنا عليها سواء شخصيات عسكرية، أو مدنية مثل إدارة الفندق ورجال وأعيان مرسى مطروح.

رغم حالة الهدوء التي كانت تسود جبهة القتال على قناة السويس والنكات والتهكمات التي أطلقت خلال عام ١٩٧٣م عن وعود الرئيس الراحل أنور السادات بشأن «عام الحسم»، الذي أطلقه على عام ١٩٧١م، والمعركة القادمة، لكن كان هناك شيء في صدري يقول لي: إن المعركة أقرب مما يتصور الجميع. تأكدت من ذلك خلال النصف الأخير من سبتمبر ١٩٧٣م، وخلال تواجدي ذات مساء في القاعدة البحرية بمرسى مطروح حيث لاحظت حركة غير عادية لدى الضباط وتحركات

لعدد من القطع البحرية، وعند سؤالي: «على فين العزم؟». ذكر أحدهم: «إلى باب المندب»، أي إلى مدخل البحر الأحمر - كما سبق وأشرت - وهو ما ظهر بعد ذلك عندما أغلقت قواتنا البحرية مدخل البحر الأحمر قبل بدء العمليات العسكرية على جبهة قناة السويس.

في حرب يونيو ١٩٦٧م أغلقت قواتنا البحرية مدخل خليج العقبة عند جزيرتي تيران وصنافير، وهذه المرة اتجهت جنوبا أكثر لتغلق البحر الأحمر من بابه عند باب المندب. إنها المفارقة.. أغلقنا خليج العقبة وحدثت الهزيمة، وعندما أغلقنا البحر الأحمر بكامله انتصرنا رغم أن الجندي المصري لم يتغير، ولكن الفارق هذه المرة يتمثل في أن هناك إعدادًا جيدًا، وتدريبًا شاقًا، وتخطيطًا محكمًا، وتهيئة للمجتمع، وتنفيذًا لمبادئ الحرب الحديثة بكل دقة؛ من إحداث المفاجأة، وتحقيق المبادأة، واستخدام أفكار جديدة من صنع المصريين.

اقترب القطار من محطة مصر بالقاهرة العامرة. بعد الوصول توجهت لركوب المترو من ميدان رمسيس إلى مصر الجديدة حيث منزلي، وأخذت قسطًا من الراحة، ثم تناولت طعام الإفطار عند أذان المغرب، واحتسيت كوبا من الشاي المستورد، الذي اشتريته من سوق ليبيا بمرسى مطروح، توجهت بعدها إلى منزل شقيقي الأكبر الذي كان يسكن بالقرب مني عند مستشفى هيلوبوليس؛ حيث لم أكن قد شاهدته منذ مغادرتي إلى مرسى مطروح.

وبالمناسبة فإن الشاي المستورد «كان حكاية» في هذا الزمان؛ فالكل كان يفضله. جلست بعض الوقت، ثم عدت إلى منزلي، واتصلت بالضابط النوبتجي بالكتيبة لإعطائه تمام وصولي إلى القاهرة، وطلبت إليه أن يقوم بالتنبيه على المركبة التي تحضر الضباط صباح الغد بالمرور على منزلي في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي.

الفصل الخامس

التخطيط لـ«العملية لطفي»

وصلت مقر كتيبة الاستطلاع بالقاهرة بعد العودة من الإسكندرية صباح يوم ٣ أكتوبر ١٩٧٣م (٧ رمضان ١٣٩٣هـ). الأجواء في الكتيبة عادية؛ فالسرايا والمجموعات تمارس النشاط التدريبي العادي، مع بعض الإجراءات التي تتعلق بمراجعة «الاستعداد القتالي»، والتأكد من سلامة وصلاحية أجهزة الاتصال اللاسلكية. جلست أتابع تنفيذ كل هذه الأعمال من مكتب رئيس عمليات الكتيبة.

كانت الكتيبة في ذلك الوقت قد بدأت في استقبال عددٍ من أفراد الاحتياط المستدعى، طبقًا للمعلن في ذلك الوقت، وهو تنفيذ الواجب التدريبي السنوي (المناورة السنوية)، الذي كان من ضمن أهدافها تنفيذ التدريب التنشيطي للوحدات والأفراد على المهام التي توكل إليهم.. كلٌّ طبقًا لوظيفته (أفراد اللاسلكي، أفراد الاستطلاع، السائقين..إلخ)، وكل ذلك بهدف تأهيلهم لتنفيذ مهمة التشكيل الذي يخدمون فيه في نهاية المطاف.

على الرغم من أن استدعاء الضباط والجنود الاحتياط قد تم في شهر رمضان المبارك، فإنني أشهد أن الجميع (قوة أساسية/ احتياط مستدعى) كانوا ينخرطون في التدريب بكل جد وهمة ونشاط غير مبالين بمشقة الصيام، وبروح معنوية مرتفعة؛ استعدادا لمعركة وقر في قلوبهم جميعًا أن قدرهم هو خوضها، وأنه لا بديل عنها لتحرير الأرض واسترداد الكرامة.

جاءتني المفاجأة يوم ٥ أكتوبر (٩ رمضان)، أي قبل ساعات من قيام معركة الكرامة التي لم يكن يعرف موعدها إلا عدد قليل من كبار قادة القوات المسلحة. استدعاني السيد قائد الكتيبة، العقيد أركان حرب، محمود عبد الله إلى مكتبه ومعي السيد رئيس عمليات الكتيبة، المقدم صلاح كامل. بدأ القائد يتحدث إليَّ بقوله: أسامة.. سأقول لك كلمتين.. اسمعهم إلى الآخر.. وأرجوك لا تقابلهما بعصبية أو انفعال.

هنا تبادر إلى ذهني أنه بالرغم من أنني قائد سرية بأقدمية ثلاث سنوات، فإنني مُذْ نقلت إلى هذه الكتيبة وأنا لا أتولى هذه الوظيفة؛ لوجود ضباط أقدم مني يتولون قيادة سرايا الكتيبة. توقعت أن يتحدث إليَّ العقيد عبد الله في شيء لا يتماشى مع طموحي أو أقدميتي، ولا مع طبيعة النفس البشرية الطبيعية التي تميل إلى الصعود والارتقاء؛ فقائد السرية يتطلع إلى أن يكون قائد كتيبة، خاصة إذا كان قائد سرية ناجحًا ومقاتلًا أشدَّ، مثلما كنت منذ أكثر من ثلاث سنوات، بشهادة كل القادة الذين خدمت معهم. أعترف بعد كل هذه السنوات أن عدم إسناد قيادة سرية من سرايا الكتيبة لي، كان من الأمور التي تؤرقني، والتي تتسبب في غصة في حلقي، خلال هذه الفترة.

واصل قائد الكتيبة حديثه بأن «حمل تحرير الأرض ثقيل، ولا يتحمله إلا الرجال الأشداء، وأنت واحد من هؤلاء الرجال، الذين نكن لهم كل تقدير، والدليل على ذلك المحاولات الكثيرة التي بذلت مع قائد الفرقة الرابعة المدرعة لكي تنقل إلى كتيبتنا هذه.

أضاف القائد بعد هذه المقدمة: لدينا مهمة خلف خطوط العدو في عمق سيناء، على المحور الأوسط بالتحديد، وتحظى هذه المهمة باهتمام كبير من القيادة. لقد تم اختيارك للقيام بهذه المهمة الخطيرة يا أسامة.

رغم علمي بأن هذا النوع من المهام التي صدرت الأوامر بقيامي بتنفيذها يحتاج إلى جهد بدني شاق، ومستوى من التدريب لم أمارسه طيلة السنوات الثلاث السابقة، بحكم أنني كنت «قائد سرية»، لا «قائد مجموعة» (قائد السرية يقود عددا من المجموعات)، فإن ثقتي الكاملة في نفسي وفي قدرتي على تنفيذ أيِّ مهمة في أي وقت وتحت أي ظرف، جعلتني أتقبل الأمر بمزيد من الهدوء والثقة.

سألت العقيد عبد الله: بأي أفراد سأنفذ هذه المهمة، علمًا بأنني لا أعرف أيًا من هؤلاء الجنود؟ وقائد المجموعة - طبقًا لما تعلمناه - يجب أن يتعايش فترة طويلة مع جنوده؛ لأنه خلال العمل يواجه مواقف مختلفة تتطلب إلمامًا كاملًا بالنواحي النفسية لرجاله.

رد القائد: أنت لوحدك كفاية، نحن نثق في قدراتك يا أسامة. (بالفعل نفذت المهمة التي كلفت بها فيما بعد بمفردي ومعي فرد لاسلكي واحد).

استأذن القائد الذي جاءه استدعاء لمركز عمليات القوات المسلحة. ومنذ هذه اللحظة بدأت في الاستعداد النفسي لتنفيذ المهمة المنتظرة، التي لم يفصح لي القائد عن تفاصيلها بعد.

مضى الوقت سريعًا في هذا اليوم. وفي المساء كنت جالسًا مع رئيس العمليات، المقدم صلاح كامل، وإذ بجرس التلفون يدق. كان على الطرف الآخر قائد الكتيبة. فهمت في بداية الحديث أن القائد يطلب النقيب أسامة، وهنا بدأ الاثنان في استكمال الحديث باللغة الروسية. لم أفهم منه بعد ذلك سوى كلمة «باتشمو»، وهي تعني بالعربية كلمة «اشمعنى»؛ فكان رد قائد الكتيبة، بحسب ما علمت بعد ذلك: «هذا قرار إدارة المخابرات الحربية، وليس لي أي دخل فيه».

بعد عودة العقيد عبد الله إلى مقر الكتيبة، استدعاني رئيس العمليات، وتوجهنا معًا إلى مكتب القائد، الذي عرض عليَّ أربعة جنود لأتولى قيادتهم كمجموعة لتنفيذ المهمة المنتظرة التي لم أعرف طبيعتها حتى هذه اللحظة.

كان ردي: أعمل بيهم إيه؟ أنا لست في حاجة إليهم.. كل ما أحتاجه فرد لاسلكي واحد.

أجاب: هذا قرارك.. تصدق على ما تريد.

لأن العمل خلف خطوط العدو يحتاج إلى انضباط شديد وحسن وسرعة تصرف؛ قررت إجراء اختبار لأفراد اللاسلكي من أفراد الاحتياط المستدعى غير المنضمين للمجموعات الموجودة بسرايا الكتيبة لانتقاء أفضل عنصر منهم للعمل معي في تنفيذ المهمة المنتظرة؛ قمت بذلك لأنني أعرف أن كل قائد مجموعة في الكتيبة قد درب أفراد مجموعته خلال السنوات الماضية، وهو ما خلق بينه وبينهم نوعًا من التآلف والتوافق والفهم المتبادل؛ وتاليًا رأيت أنه لا يجب عليَّ سحب أي فرد من مجموعة أخرى كي لا أحرم قائده من الاستفادة منه إذا ما اندلع القتال، فضلا عن المعارضة المتوقعة لقادة المجموعات إذا ما طلب منهم سحب أي من رجالهم.

قررت إجراء اختبار لأفراد اللاسلكي من الاحتياط المستدعى، الذين لا تربطني بأي منهم علاقة أو سابق معرفة. كلفتهم بمهمة بسيطة تساعدني على اختيار الأفضل. طلبت منهم التواجد في مكان معين بأرض الكتيبة في ساعة محددة، ثم رافقتهم فيما كلفتهم به، وهو ما ساعدني على تصنيفهم طبقًا لمدى التزامهم وانضباطهم في تنفيذ هذه المهمة البسيطة.

انتهى الأمر بأن اخترت من هو متخصص في اللاسلكي وفي الإرسال والاستقبال بالمورس[1]. لم يكن أي منهم يصل إلى الحدود الدنيا للمقاييس التي يعرفها ويطبقها النقيب أسامة المندوه، الذي يقول عنه قادته وزملاؤه السابقون «إنه لا يقبل إلا بالحد الأقصى للجودة».

تفاصيل المهمة

عدت إلى قائد الكتيبة. أخبرته باسم فرد اللاسلكي الذي اخترته لتنفيذ المهمة معي، وهو العريف مستدعى، فتحي عبد الهادي. اصطحبني إلى غرفة تخصيص المهام. بدأ بأن قال: المهمة المطلوب تنفيذها تتلخص في دفع المجموعة التي ستحمل اسم «لطفي» إلى عمق سيناء؛ لتتمركز في واحدة من أهم المناطق الحيوية التي من خلالها يمكن رصد تحركات القوات الإسرائيلية من وإلى قناة السويس.

لتوضيح تفاصيل المهمة وضع القائد أمامنا خريطة لوسط سيناء المواجهة للإسماعيلية والجزء الشمالي من البحيرات المرة، والواقع إلى الجنوب من المحور الساحلي في شبه الجزيرة، المواجهة لبورسعيد والقنطرة، وإلى الشمال من المحور الجنوبي المواجه للسويس.

قال العقيد عبد الله: انظر يا أسامة.. هذه خريطة وسط سيناء.. إنه يتميز بوجود سلسلة مضايق بين الكثبان الرملية، مثل مضيق الصبحة، والمخازين، والمحجر، والرويسات (في الشمال الغربي منه)، ومضايق جبلية مثل مضيقَيّ جبل أم مرجم (أم رجام)، وجبل سحابة (نحو ٩٠ كيلو شرق القناة).

وأضاف بأن الأرض في هذا المحور الأوسط غير صالحة للسير في معظمها، لمعظم أنواع المركبات، عدا الجزء الملاصق لقناة السويس باتساع ٥ ١٠ كم. ويخترق هذا الاتجاه محور رئيسي مُعَبَّد، وهو الطريق الأوسط، الذي يربط ما بين

---

(١) شفرة مورس (بالإنجليزية: Morse code): هي شفرة حرفية من أجل إرسال المعلومات التلغرافية، باستخدام تتابعات قياسية من عناصر طويلة وقصيرة تعبر عن الحروف والأرقام والعلامات والحروف الخاصة الموجودة في الرسالة. العناصر الطويلة والقصيرة من الممكن أن يتم تكوينها عن طريق صوت أو علامات أو فتح وغلق المفاتيح، وهما مشهوران على أنهما نقاط وعلامات مائلة.
صنعها صمويل مورس في بدايات ١٨٤٠. استخدمت شفرة مورس أيضًا في اتصال الراديو في بدايات ١٨٩٠. في النصف الأول من القرن العشرين، كانت الغالبية من الاتصالات العالمية عالية السرعة تستخدم فيها شفرة مورس، باستخدام خطوط التلفون، وكابلات بحرية، ودوائر الراديو. على أي حال، الطول المتغير لحروف مورس جعلها صعبة لكي تكون أوتوماتيكية الدوائر أو أن تكون إلكترونية.

الإسماعيلية شرق القناة، والعوجة على الحدود الدولية الشرقية لمصر، ويمر بالطاسة والجفجافة، وبير روض سالم، وأبو عجيلة (أبو عويقلية) ويتصل الطريق الأوسط بالطريق الساحلي، بطريق مُعَبَّد عرضي من الطاسة إلى رمانة، وآخر من الإسماعيلية شرق إلى القنطرة شرق.

استفاض السيد قائد الكتيبة في استعراض طبوغرافية المنطقة وأضاف:

لا توجد مصادر مياه عذبة في هذا المحور، والذي يعتبر المدخل الطبيعي للإسماعيلية، بينما يؤدي إلى هذا المحور من الشرق مدخلان طبيعيان؛ الأول من الجنوب الشرقي (وادي اليرموك، من خلال وادي المليز)؛ والثاني امتداد المحور الأوسط. يسيطر على المداخل الشرقية للاتجاه جبل أم مرجم (أم رجام)، وجبل سحابة، والذي يمر خلالهما المدخل الأول (وادي اليرموك) وهو مضيق ذو أهمية خاصة، في شمال الحائط الجبلي الغربي لسيناء، والذي يبعد ٥٠ كم عن قناة السويس.

وأضاف العقيد محمود عبد الله: أسامة.. نركز جيدًا على الجزء الأخير من كلامي.. وبالتحديد الكلام الخاص بمنطقة وادي المليز وبير جفجافة وجبل أم مرجم وجبل سحابة؛ لأن الموقع الذي ستنفذ منه مهمتك سيكون في القلب من هذه المنطقة.

تصورت الأهمية الكبيرة لهذه المنطقة التي يتحدث عنها القائد بحكم معرفتي بها، وبكل شبر من أرض سيناء.

واصل قائد الكتيبة قائلًا: كما تعرف فإن هذا الموقع الحاكم لهذه المنطقة وما يضمه من منشآت وأهداف عسكرية إسرائيلية حيوية يحتم علينا التواجد في قلبها؛ كي نرصد تحركات العدو، ونجمع المعلومات عن نشاطه فيها، والتي يمكننا من خلال تحليلها اكتشاف نواياه. انظر معي إلى أهم الأهداف الحيوية بهذه المنطقة:

أولا: الطريق الأوسط ومنطقة المفارق:

كما سبق وأشرت، يخترق هذه المنطقة الطريق الرئيسي المُعَبَّد، الذي تعتمد عليه إسرائيل في الدفع بقواتها إلى جبهة القتال على قناة السويس، وهو الطريق الأوسط، الذي يربط ما بين الإسماعيلية شرق القناة، والعوجة على الحدود الدولية الشرقية لمصر، وفي حال قيام الحرب فإن هذا الطريق سيكون الطريق الرئيسي الذي ستدفع فيه إسرائيل بتعزيزاتها من الشرق، سواء من الرجال أو المعدات في اتجاه قناة السويس.. إنه طريق الإمداد والتموين الرئيسي بالنسبة لها. وتاليا تصبح مراقبته من موقع مشرف، وعلى مسافة بعيدة في العمق هدفًا استراتيجيًا بالنسبة لقواتنا وقيادتنا.

بجانب أهمية هذا الطريق، تتعزز المنطقة التي ستتمركز فيها المجموعة بوجود منطقة مفارق طرق في عدد من الاتجاهات المهمة في سيناء، والتي من خلالها يمكننا مبكرًا رصد أعمال المناورة بالقوات من الجانب الإسرائيلي؛ فيتفرع من نقطة المفارق القريبة من مطار المليز، طرق: (الجفجافة – العريش) في الاتجاه الشمالي، (الجفجافة- البحيرات المرة المعروف باسم «طريق شعير») في الاتجاه الجنوبي الغربي، (الطريق الأوسط – ممر متلا، «يعرف بوصلة الجفجافة – بير تمادة») في الاتجاه الجنوبي. مجهود مراقبتك الرئيسي فيما يخص هذه الطرق سينصب بالدرجة الأولى على الطريق الأوسط، ووصلة (الجفجافة- بير تمادة)؛ لأن الموقع الذي سوف تتمركز فيه المجموعة للقيام بمهام الاستطلاع ومراقبة نشاط العدو سيكون مشرفا تمامًا عليهما.

ثانيا: مطار المليز:

يقع مطار المليز (قاعدة المليز الجوية) في وسط سيناء بالقرب من وادي المليز، وبالقرب من مركز القيادة الإسرائيلي في منطقة أم مرجم (أم رجام)، وهو المطار الأول الذي تعتمد عليه إسرائيل في سيناء خلال مواجهاتها مع قواتنا. يضم المطار ممرًّا واحدًا رئيسيًّا طوله ٣٠٠٠ متر، وعرضه ٤٠ مترًا، وممرًّا آخر فرعيًا بنفس الطول، وبالمطار ثلاث عشرة دشمة لحماية الطائرات، وهنجر كبير لإصلاح وصيانة الطائرات، ويوجد مطار آخر هيكلي له نفس مواصفات مطار المليز على مسافه ٧ كيلو مترات إلى جنوبه، ويسمى مطار شعير[١].

ثالثا: مركز القيادة والسيطرة بـ «أم مرجم»:

تضم هذه المنطقة أيضًا واحدًا من أهم مراكز القيادة والسيطرة المعادية التي تم التخطيط لقذفها ومراقبتها، وهو مركز القيادة والسيطرة الرئيسي في منطقة أم مرجم، ويقع بالقرب من مطار المليز في وسط سيناء على الطريق الأوسط، ويحده من الشمال جبل قديرة، ومن الجنوب جبل سحابة. ولهذا المركز مركز قيادة تبادلي في منطقة أم مخسة.

(١) صباح يوم السادس من أكتوبر كان مطار المليز خاليًا من الطائرات المعادية، لكن كان يوجد شماله مركز قياده القوات الجوية الإسرائيلية في سيناء، وهو هدف حيوي جدًّا ومؤثر لعمليات القوات الجوية الإسرائيليه في سيناء.

ناقشت الخطة مع القائد لمزيد من فهمها واستيعابها، واستعرضنا معا خط سير المجموعة من موقع كتيبتنا في القاهرة وصولا إلى موقع تنفيذ المهمة في عمق سيناء.

بعد ذلك قال لي العقيد عبد الله: استلم المهمات اللازمة لتنفيذ المهمة، وكن مستعدًّا للتحرك في أي وقت.

بعد انتهاء اجتماعي مع قائد الكتيبة استلمت الخرائط والشفرة، وأخبرني رئيس عمليات الكتيبة أنه تم إطلاق اسم كودي على المجموعة هو «الطفي». استلم فرد اللاسلكي جهازه، واختبره، وأعاد شحن بطارياته، بعدها توجهت إلى ميدان العتبة، واشتريت راديو «ترانزستور» صغيرًا لأخذه معي خلال تنفيذ المهمة؛ كي أتابع من خلاله الأحداث، والاستماع إلى الأغاني وأتواصل به مع العالم، ولهذا الجهاز فوائد سوف نتناولها في حينه، حيث من خلاله تتبعنا سير المعارك والأنشطة المختلفة من خلال نشرات الأخبار من هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) .

فى إطار حرص قيادة الكتيبة على إزالة قلق الأسرة إذا ما طال أمد المهمة، فقد تم إعداد تسجيلات بصوتي تحدثت فيها إلى والدي ووالدتي، وبعثت لهما التحية، وكذلك إلى إخوتي وأخواتي بأسمائهم، أطمئنهم جميعًا عليَّ وأنني بخير وسأعود قريبًا. وبالفعل قد تم استخدام هذه التسجيلات عندما طالت المأمورية، كما سأعرض في حينه.

الفصل السادس

معجزة البشر يوم ٦ أكتوبر

في صباح اليوم التالي الموافق ٦ أكتوبر ١٩٧٣م (١٠ رمضان) كانت الأمور في الكتيبة عادية جدًّا. لم نتوقع كضباط صغار قيام الحرب في هذا اليوم، فلم يكن لدينا ما يؤشر على ذلك. بدأنا التدريب المعتاد، ولم ندرك أن معركة الكرامة التي نحلم بخوضها وبذلنا العرق والدم استعدادا لها ستبدأ بعد ساعات!

وهنا أرى أنه من الأهمية بمكان قبل الدخول في تفاصيل مهمتي التي كلفت بها والتحرك لتنفيذها خلف خطوط العدو أن أتوقف لتقديم عرض بانورامي لمجرى الحوادث على جبهة قناة السويس، مع اندلاع القتال بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر، فما جرى بطول الجبهة من بورسعيد شمالًا إلى ميناء الأدبية على خليج السويس جنوبًا هو السياق العام الذي تندرج تحته المهمة التي نحن بصدد تنفيذها.

أتوقف في البداية مع خطة عبور قناة السويس، التي نفذتها القوات المسلحة في هذه الحرب المجيدة بأعلى كفاءة ممكنة، فأقول في البداية: نظرًا لأن التوجيه الإستراتيجي الصادر في ٥ أكتوبر ١٩٧٣ كان ينص على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية، حسب نمو وتطوير إمكانات القوات المسلحة، فقد تركت الأهداف العسكرية مرنة تسمح بالتغيير والتبديل على ضوء الموقف العسكري، وكانت الخطة العسكرية (بدر) مبنية على الأسس التالية:

المهمة المباشرة: اقتحام قناة السويس، وتدمير خط بارليف، وإنشاء منطقة رءوس كبارٍ[1] على الشاطئ الشرقي للقناة على عمق ١٠ ١٢ كم، وصد وتدمير الهجمات المضادة التي يقوم العدو بشنها.

---

(١) مصطلح «رأس الكوبري» أو «رأس الجسر» أو «رأس الشاطئ»، يعني «مساحة من الأرض شرق قناة السويس في سيناء، تستولي عليها قواتنا وتجعلها مؤمنة؛ بحيث تنزل إليها القوات المندفعة بأمان، وتكون هذه المساحة كبيرة، بحيث تكفي تنظيم القوات القادمة ودفعها لميدان القتال، وتكفي لتخزين الإمداد والتموين، والأهم هو أن ينشأ بها مركز قيادة تتم منه السيطرة على أعمال القتال مع العدو».

أما المهمة التالية: فهي «بعد وقفة تعبوية أو بدون وقفة تعبوية، يتم تطوير الهجوم نحو الشرق للاستيلاء على خط المضايق الجبلية الإستراتيجية، وهي من الشمال إلى الجنوب (الختمية ـ الجدى ـ متلا ـ رأس سدر)»، ولتنفيذ الخطة الهجومية «بدر» تم حشد القوات المصرية في منطقة البحر الأحمر العسكرية والجيشين الثالث والثاني الميدانيين، وتحديد الأنساق الأمامية والاحتياطية.

إن عملية اقتحام مانع مائي مثل قناة السويس ضد عدو يتمركز في نقط قوية محصنة تحصينًا جيدًا على الجانب الآخر من أصعب العمليات الحربية وأكثرها تعقيدًا، خصوصًا أن عبور المانع المائي تم بواسطة خمس فرق مشاة وعلى مواجهة قدرها ١٦٠ كم. وكان التخطيط موضوعا على أن الموجة الأولى من قوات العبور تتكون من الأنساق الأولى لكتائب النسق الأول على طول القناة، وكان عليها عبور القناة في قواربها المطاطية والخشبية تحت ستر غلالة من قصفات المدفعية في نقط بعيدة عن النقط الإسرائيلية الحصينة، ثم تتسلق الساتر الرملي الناعم المقام على الشاطئ الشرقي للقناة، وتُلْقَى السلالم إلى الجانب الآخر لكي يسهل بعد ذلك للموجات الأخرى التي ستتبعها من المشاة اجتياز الساتر الرملي.

إن المهمة التي كانت مخصصة لقوات الموجة الأولى هي الاندفاع السريع نحو خط النسق الثاني للدفاعات الإسرائيلية مع عدم الانشغال بالنقط الحصينة من حصون خط بارليف المقامة في النسق الأول على الشاطئ الشرقي للقناة. ولكي يمكن نجاح القوات المصرية في هذه المهمة، خصصت عناصر معينة سميت «جماعات اقتناص الدبابات» لمواجهة الدبابات الإسرائيلية الموجودة بدفاعات النسق الثاني، والتي كان من المفترض اندفاعها في اتجاه قناة السويس بمجرد بدء عملية العبور.

وكان التخطيط المرسوم يقضي بأن تتجه الموجة الثانية من المشاة بعد عبور القناة نحو اليمين ونحو اليسار في اتجاه النقط الحصينة من خط بارليف لتطويقها واقتحامها، ونظرًا لأنها كانت في حاجة إلى المعاونة بقذائف ناسفة للتحصينات من مدافع الضرب المباشر، اتخذت الترتيبات ضمن خطة المدفعية كي تتولى مدافع الضرب المباشر من مصاطبها على الشاطئ الغربي للقناة معاونة المشاة في اقتحام هذه النقط الحصينة.

ونظرًا لتوقع قيام العدو بإشعال سطح مياه القناة بالنابالم السائل من تجهيزات إشعال اللهب المقامة داخل حصون خط بارليف، فقد أرسلت جماعات من أفراد الصاعقة والمهندسين المصريين يوم ٥ أكتوبر لقص الخراطيم التي كان مفروضًا

طبقًا لخطة العدو أن تحمل كميات هائلة من النابالم وتلقيها في القناة لكي تشتعل بالنار عند الإحساس ببدء العبور[1].

كان هذا هو جوهر فكرة خطة العبور لتحرير سيناء، التي نفذها الرجال بجسارة منقطعة النظير، وهنا أرى أن نتوقف مع الفريق سعد الشاذلي، رئيس أركان حرب القوات المسلحة خلال حرب أكتوبر؛ لنرى كيف تمت مراحل تنفيذ هذه الخطة (بدر) بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر، كما تابعها من مقر القيادة العامة في هذا اليوم المشهود من أيام مصر العظيمة عبر تاريخها الطويل.

يقول الفريق الشاذلي في مذكراته: «في الساعة ١٣٠٠ (الواحدة ظهرًا) يوم ٦ أكتوبر وصل رئيس الجمهورية ومعه وزير الحربية إلى مقر القيادة العامة، ودخلا غرفة العمليات حيث كان كل فرد في مكانه منذ الصباح.

كان الوقت المحدد لعبور الموجة الأولى من المشاة هو الساعة ١٤٣٠ (الساعة ٢,٣٠ ظهرا) ولكن كان هناك الكثير من المهام الأخرى التي يجري تنفيذها قبل ذلك. ولعل أهم هذه المهام هو قيام قواتنا الجوية بتوجيه ضربة جوية إلى مطارات العدو ومراكز قيادته ومناطق حشد مدفعية في سيناء، وقد اشترك في هذه الضربة الجوية أكثر من ٢٠٠ طائرة عبرت خط القناة على ارتفاع منخفض جدًا في الساعة ١٤٠٠.

وبمجرد عبور قواتنا الجوية لخط القناة بدأت مدفعيتنا عملية القصف التحضيري المكثف على مواقع العدو شرق القناة، وفي الوقت نفسه تسللت عناصر استطلاع المهندسين وعناصر من الصاعقة إلى الشاطئ الشرقي للقناة للتأكد من تمام إغلاق المواسير التي تنقل السائل المشتعل إلى سطح القناة.

وبينما كانت تلك الأعمال جميعها تتم بنجاح كان الجميع ينتظرون أخبار عبور المشاة، حيث إن ذلك هو الذي سيحدد مصير المعركة. وبينما كنا ننتظر وكأن على رءوسنا الطير وصلت المعلومات بتمام عبور الموجة الأولى ودوت مكبرات الصوت داخل مقر القيادة العامة تعلن الخبر المهم، الذي بعث الفرحة والسكينة في نفوس الجميع. أخذت المعلومات عن عبور الموجات التالية للمشاة تتوالى وفي توقيتات تتطابق تمامًا مع توقعاتنا. وبعد أن اطمأن الرئيس بهذه الأخبار السارة انسحب هو ووزير الحربية من غرفة العمليات للراحة، وحوالي السابعة مساء غادر الرئيس مقر القيادة العامة عائدًا إلى قصر الطاهرة.

---

(١) جمال حماد، المعارك الحربية على الجبهة المصرية.. حرب أكتوبر ١٩٧٣، دار الشروق، ط١، القاهرة ٢٠٠٢.

وفي الساعة ١٨٣٠ من يوم ٦ أكتوبر كان قد عبر إلى الشاطئ الشرقي للقناة ٢٠٠٠ ضابط و ٣٠,٠٠٠ رجل من ٥ فرق مشاة، واحتفظوا بخمسة رءوس كبار، قاعدة كل منها تتراوح بين ٦ و ٨ كيلومترات، وعمق كل منها يتراوح بين ٣ و٥ كيلومترات. كان المهندسون مازالوا يعملون بجد في فتح الثغرات في الساتر الترابي ولكنهم لم يكونوا قد انتهوا بعد من هذا العمل. وبالتالي لم تكن لدينا دبابات أو مركبات على الجانب الآخر، وذلك فيما عدا اللواء البرمائي الذي عبر البحيرات المرة ما بين سعت ١٤٠٠ و١٥٠٠ في قطاع الجيش الثالث وقد بدأ العمل في عمق العدو وكان معه ٢٠ دبابة برمائية و ٨٠ مركبة برمائية (توباز).

وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك أعداد محدودة أخرى من المركبات البرمائية التي عبرت بحيرة التمساح لكي تعمل في قطاع الجيش الثاني. كانت دبابات اللواء البرمائي هي الدبابة (ت ٧٦) وهي تشكل قوة نيران كبيرة، إذا استخدمت ضد وحدات العدو الإدارية ومراكز قيادته والمواقع غير الحصينة، ولكن خفة تدريعها وصغر عيار مدفعها يجعلانها ليست ندًا لدبابات العدو المتوسطة بأنواعها كلها، والتي كانت مسلحة بالمدفع ١٠٥ ملليمتر؛ لذلك كنت أنتظر بفارغ الصبر تمام عملية فتح الثغرات في الساتر الترابي للعدو. إن فتح هذه الثغرات هو الذي سيمكننا من البدء في عملية نقل دباباتنا إلى الضفة الشرقية سواء عبر المعديات أو عبر الكباري.

في الساعة ١٨٣٠ وصلت المعلومات عن فتح أول ثغرة وتشغيل أول معدية في قطاع الجيش الثاني، ثم توالت الأخبار خلال الساعة التالية عن فتح المزيد من الثغرات، وبالتالي بدأ تشغيل المعديات التي أخذت تنقل دباباتنا إلى الشاطئ الآخر بأعداد محدودة، وفي الساعة ٢٠٣٠ كان قد تم بناء أول كوبري ثقيل على القناة، وفي الساعة ٢٢٣٠ كان قد تم بناء ٧ كبارٍ ثقيلة أخرى. وكانت دباباتنا وأسلحتنا الثقيلة تتدفق نحو الشرق مستخدمة ٧ كبارٍ ثقيلة و٣١ معدية.

بحلول الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد ٧ أكتوبر كانت قواتنا قد حققت نجاحًا حاسما في معركة القناة، فقد عبرت أصعب مانع مائي في العالم وحطمت خط بارليف في ١٨ ساعة، وهو رقم قياسي لم تحققه أي عملية عبور في تاريخ البشرية، وقد تم ذلك بأقل خسائر ممكنة. فقد بلغت خسائرنا ٥ طائرات و٢٠ دبابة و٢٨٠ شهيدًا. ويمثل ذلك ٢,٥٪ في الطائرات و٢٪ في الدبابات و٠,٣٪ في الرجال. أما العدو ففقد ٣٠ طائرة و٣٠٠ دبابة وعدة آلاف من القتلى، وخسر معهم خط بارليف بكامله.

لقد تم سحق ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مشاة كانت تدافع عن القناة وأصبحت أسطورة خط بارليف التي كان يتغنى بها الإسرائيليون في خبر كان»[1].

التغلب على العقبات الرئيسية التي واجهت عملية العبور

في حوار نادر أجراه الصحفي موسى صبري، بعد حرب أكتوبر بفترة قصيرة، مع الفريق سعد الشاذلي[2]، رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة في حرب أكتوبر حدد له الأخير ٥ عقبات رئيسية واجهت القوات المسلحة قبل العبور، وكيف استطاعت التغلب عليها، وأرى من الأهمية بمكان أن نعرض لهذا التصور البانورامي للفريق الشاذلي عن هذه العقبات التي واجهت قواتنا المسلحة أثناء عبور قناة السويس، وكيف نجحت في التغلب عليها.

في البداية تحدث الفريق الشاذلي عن صعاب عملية العبور فقال: إن عبور قناة السويس بواسطة جيش كبير بل بواسطة جيشين في وقت واحد بكامل أسلحتهما وعتادهما، وفي وجه مقاومة من العدو على الضفة الشرقية يعتبر مشكلة ضخمة، بل كانت تبدو أحيانًا كأنها عملية مستحيلة. إن عبور الموانع المائية بواسطة الجيوش كان دائمًا من العمليات الصعبة، ولكنها لم تكن أبدا من العمليات المستحيلة فكم من جيوش عبرت موانع مائية في الماضي البعيد والماضي القريب دون أن يشد ذلك انتباه العالم.

لقد فقدت الموانع المائية قيمتها بعد تطور أسلحة القتال وإدخال المركبات والدبابات البرمائية والدبابات التي تستطيع الغوص في الماء والسير على قاع المانع المائي ضمن تنظيم القوات البرية. أما قناة السويس فإنها تعتبر مانعًا مائيًا فريدًا يختلف عن جميع الأنهار والقنوات للأسباب التالية:

١ - انحدار الشاطئ من الناحيتين و(تدبيشه) مما يعوق المركبات البرمائية عن النزول إلى المانع المائي أو الصعود منه إلا بعد تجهيزات هندسية مسبقة. وهذه الصفة لا يشترك فيها مع قناة السويس سوى قناة بنما وعدد محدود من القنوات الصناعية.

---

(١) سعد الشاذلي، مذكرات حرب أكتوبر، دار بحوث الشرق الأوسط الأمريكية، ط ٤، سان فرانسيسكو، ٢٠٠٣، ص ٢٤٠.

(٢) ولد الفريق سعد الشاذلي في أبريل ١٩٢٢ في شبراتنا مركز بسيون محافظة الغربية، شارك في حروب مصر المعاصرة منذ الحرب العالمية الثانية، مرورا بحرب فلسطين ١٩٤٨، وحرب ١٩٥٦، وحرب اليمن (١٩٦٢ - ١٩٧٠)، حرب يونيو ١٩٦٧، وكان قائدا لمجموعة العمليات رقم (١) في سيناء خلال هذه الحرب. تولى رئاسة هيئة الأركان العامة في الفترة بين ١٥ مايو ١٩٧١ و١٢ ديسمبر ١٩٧٣م. وتوفي في ١٠ فبراير ٢٠١١م.

٢- قيام العدو بإنشاء ساتر ترابي على الضفة الشرقية للقناة مباشرة بارتفاع ١٠ - ٢٠ مترًا؛ مما يجعل من المستحيل على أي مركبة برمائية العبور إلا بعد إزالة هذا الساتر.

٣- إنشاء خط بارليف على طول الساحل الشرقي للضرب على أي قوات تحاول العبور. وقد انتخبت مواقع هذا الخط بعناية فائقة بحيث تتحكم في جميع الاتجاهات وتستطيع أن تغمر بالنيران الجانبية أي قوات تعبر القناة وفي أي جزء منها.

٤- وجود خزانات للمواد الملتهبة يسع كل واحد منها ٢٠٠ طن من المواد الملتهبة على مسافات متقاربة بحيث يمكن للعدو أن يدفعها فوق سطح المياه، ثم يشعلها فيتحول سطح القناة إلى حمم ملتهبة تحرق كل شيء فوق الماء بل وتشوي الأسماك في عمق القناة وتلفح حرارتها الشخص الذي يبعد عنها بمسافة ٢٠٠ متر. ويستطيع العدو أن يتحكم في استمرار هذه النيران باستمرار دفع المواد الملتهبة إلى سطح الماء.

ومن هنا نجد أن قناة السويس ليست مجرد مانع مائي، بل إنه مانع فريد ليس له شبيه في العالم وليس هناك خبرة سابقة في التاريخ لعبور مثل هذا المانع. وكان من واجب القيادة العامة للقوات المسلحة وأجهزتها الفنية أن تحل جميع هذه المشاكل، وقد تم بتجزئة مشكلة العبور الكبرى إلى عدد من المشاكل الصغيرة.

وبعد الكثير من المحاولات والتجارب نجحنا في حل جميع هذه المشاكل. وقد صرح قادة إسرائيل أكثر من مرة أننا لن نستطيع أن نعبر، وأن قواتنا ستدمر تدميرًا كاملًا قبل أن تصل إلى الشاطئ الشرقي للقناة إذا نحن تجاسرنا وحاولنا العبور.

بعد هذا العرض العام للعقبات سأل موسى الفريق الشاذلي هذا السؤال الكبير: كيف بدأ العبور؟ وكيف تغلبتم على كل هذه المشاكل؟ وكانت إجابة الشاذلي كالتالي:

كانت المشكلة الأولى التي يجب أن نتغلب عليها هي كيف نتغلب على النيران الملتهبة التي سوف تغطي سطح القناة عند بدء العبور. وقد اتجه التفكير أول الأمر إلى إطفائها وتم عمل تجارب عملية على ذلك في أماكن شبيهة بالقناة، فاتضح لنا أن عملية الإطفاء تحتاج إلى مجهودات ضخمة وأن النيران تبقى مشتعلة حوالي نصف ساعة إذا لم يتم تزويدها بكميات إضافية من المواد الملتهبة.

ومن هنا اتجه تفكيرنا إلى ضرورة إبطال استخدام هذه المواد قبل العبور وإذا حدث أن أخفقنا في إبطال استخدامها في بعض الحالات، فإنه يجب علينا أن نمنع العدو من تغذية الحريق بكميات إضافية من المواد الملتهبة؛ وذلك لإقلال فترة

تعرض قواتنا للحريق إلى أقل وقت ممكن. بدأنا العمل وصدرت أوامر القيادة العامة بالبدء في استطلاع تجهيزات العدو الخاصة بهذا الموضوع، واتضح أنه يضع هذه المواد في خزانات كبيرة مدفونة تحت سطح الأرض حتى يصعب تدميرها بواسطة المدفعية، وكانت هذه الخزانات متصلة بمواسير تحت سطح المياه لتندفع منها السوائل الملتهبة إلى سطح المياه.

ومن الواضح أنه لو أمكن إغلاق هذه المواسير بأي وسيلة قبل بدء عملية العبور فإن السوائل الملتهبة لن تصل إلى سطح الماء ولن يحدث الحريق. وكانت خطة القيادة تتضمن أن يقوم بعض أفراد من الصاعقة بسرعة الاستيلاء على هذه المستودعات ومنع استخدامها في حالة الفشل في إغلاق المواسير الموصلة إلى المياه. وزيادة في الحيطة تمت دراسة اتجاه التيار في القناة على طول ساعات اليوم، وتم انتخاب قطاعات الاختراق بحيث تعبر قواتنا فوق التيار وبذلك تتفادى النيران العائمة فوق سطح الماء.

وقد تمت العملية بنجاح تام ولم ينجح العدو في إشعال حريق واحد فوق سطح القناة وتم الاستيلاء على مستودعات المواد الملتهبة سليمة بكل ما فيها، بل وتم أسر الضابط المهندس الإسرائيلي الذي قام بتصميمها. وقد أدلى في أقواله بأنه حضر إلى القناة في اليوم السابق للقتال لكي يختبر هذه المستودعات.

وكانت المشكلة الثانية هي كيفية إزالة الساتر الترابي الذي أقامه العدو على الضفة الشرقية حتى يمكن أن نقيم المعديات والكباري على القناة. ويمكننا أن نتصور ضخامة هذه العملية إذا علمنا أن ثغرة واحدة في الساتر الترابي بعرض حوالي ٧ أمتار تعني إزالة ١٥٠٠ متر مكعب من الأتربة. كانت احتياجاتنا تتطلب فتح ٨٠ فتحة شاطئية على طول القناة في كل جانب، أي إزالة حوالي ١٢٠ ألف متر مكعب من الساتر الترابي شرق القناة. فإذا علمنا أننا خلال السنوات الست الماضية كنا قد أقمنا أيضًا ساترًا ترابيًا في غرب القناة فاتضح لنا أن المشكلة أصبحت مضاعفة، وأنه يتحتم علينا أن نفتح ثغرات مماثلة في الساتر الترابي الغربي. اتجه تفكيرنا أول الأمر إلى أن نفتح هذه الثغرات بوساطة التفجير واستمرت نظرية التفجير هي السائدة حتى منتصف عام ١٩٧١، إلى أن اقترح أحد الضباط المهندسين الشبان نظرية التجريف وهي استخدام المياه المندفعة تحت ضغط عالٍ في إزالة هذه الرمال. قمنا بعمل التجارب وثبت نجاحها وأفضليتها على نظرية التفجير وأخذنا ندخل التحسينات

بزيادة قوة الماكينات إلى أن أصبح في مقدورنا أن نفتح الثغرة الواحدة في مدة تتراوح بين ٣ - ٥ ساعات.

* لم يكن فتح الثغرة في الساتر الترابي هو نهاية المشكلة، بل كان من الضروري تهذيب أجناب القناة بالنسف والتسوية حتى يمكن تثبيت الكباري أو تجهيز هذه الثغرات لتشغيل المعديات وعبور المركبات البرمائية.

* وإذا جاز لنا أن نقدم كشف حساب عما قمنا به فإننا نقول إن المهندسين العسكريين قاموا بشق ٨٠ فتحة في الساتر الترابي وأقاموا عشرة كبارٍ وما يقرب من ٥٠ معدية عبر القناة، كل ذلك خلال فترة ما بين ٦ - ٩ ساعات. وقد تم التنفيذ طبقا لما كان مخططًا تمامًا، فيما عدا القطاع الجنوبي من القناة حيث كانت الأرض غير صالحة لعمليات التجريف؛ ونتج عن ذلك بعض التأخير في إقامة الكباري والمعديات عما كان مخططًا. وإن هذه الأعمال الهندسية الباهرة سوف تكون دائمًا مثار فخر للمهندسين المصريين في جميع أنحاء العالم.

كانت المشكلة الثالثة هي: كيف نستطيع أن نقوم بهذه الأعمال الهندسية الضخمة تحت نيران العدو المسيطرة في الضفة الشرقية؟

وكانت الإجابة هي: ضرورة دفع المشاة عبر القناة لتأمين المهندسين وهو ما يطلق عليه التعبير العسكري تأمين رءوس الكباري.

وكانت المشكلة الرابعة هي: كيف تستطيع المشاة أن تعبر القناة وتؤمن رءوس الكباري إلى أن تتدفق الدبابات والمدافع والأسلحة الثقيلة عبر المعديات والكباري التي أقامها المهندسون؟ وكيف يصمد المشاة أمام هجمات العدو المضادة بواسطة الدبابات لمدة تتراوح بين ١٢ - ٢٤ ساعة إلى أن يكتمل عبور الدبابات والأسلحة الثقيلة؟ وقامت القيادة العامة بحل هذه المشكلة على الأسس التالية:

١ -المشاة التي تُكَلَّفُ بالعبور تحمل معها أقل ما يمكن من التعيين والمياه وأكثر ما يمكن حمله من سلاح وذخيرة، وكان إجمالي ما يحمله كل جندي حوالي ٢٥ كيلو جرامًا وكان يصل أحيانًا مع بعض الجنود إلى حوالي ٣٥ كيلو جرامًا.

٢- ابتكار عربات جر صغيرة يضع فيها المشاة ما لا يستطيعون حمله ويجرونه بأيديهم عبر الساتر الترابي وعند تحركهم شرق القناة.

٣- تسليح المشاة بالأسلحة المضادة للدبابات ولاسيما الصواريخ الخفيفة التي يمكن حملها بواسطة الأفراد؛ وذلك لصد هجمات العدو المضادة بواسطة مدرعاته.

٤- تسليح المشاة بالأسلحة المضادة للطائرات وخاصة الصواريخ الخفيفة التي يمكن حملها بواسطة الأفراد؛ وذلك لصد هجمات العدو الجوية ضد قواتنا أثناء وبعد العبور.

٥-تجهيز المشاة بسلالم لمساعدتهم على تسلق الساتر الترابي وجر أسلحتهم وذخائرهم المحملة في عربات الجر.

٦- تنظيم عبور المشاة في قوارب تنظيمًا تفصيليًا بحيث يعلم كل جندي مكانه في القارب ومكان العبور ووقته وواجبه أثناء العبور.. إلخ.

٧-التسلل خلال خط بارليف وعدم مهاجمة النقط القوية لهذا الخط إلا بعد استكمال عملية العبور وإكمال حصارها.

وكانت المشكلة الخامسة هي: كيف يمكن للمشاة أن تعبر هذا المانع بنجاح ما لم نقم بتدمير وإسكات الرشاشات والمدافع التي تطل من فتحات خط بارليف وتغمر القناة بطولها - وقد قامت المدفعية بحل هذه المشكلة على أحسن وجه. وكان نتيجة لنيرانها المؤثرة، أن تمكنت مشاتنا من عبور القناة بخسائر طفيفة جدًا.

قلت (موسى صبري): سمعت أن غارات طيران العدو المكثفة، قد فشلت في إصابة الكباري..

ورد الفريق سعد الشاذلي: كنت أحب أن توجه هذا السؤال للسيد قائد الدفاع الجوي فهو أعلم مني بالإجابة عنه، ولكني أضيف فأقول: إن عملية العبور لم تكن تنجح لولا الدفاع الجوي والصواريخ التي كانت تغطي المنطقة.. إن مظلة الدفاع الجوي كانت هي الواقية لكل ما بذله المشاة والمدفعية، والمهندسون من جهد.. لقد كانت هجمات العدو الجوية شديدة متتابعة.. وذلك بالإضافة إلى ما قامت به القوات الجوية من ضرب تجمعات العدو التي في العمق والتي كانت خارج مدى الصواريخ المضادة للطائرات.

وعاد موسى صبري ليسأل الشاذلي هذا السؤال: صرح موشي ديان أن عملية عبور القوات المسلحة المصرية مقضي عليها في يوم واحد، وهو قد غامر في هذا التصريح بسمعته العسكرية فعلى أي أساس بنى هذا التصريح؟

وقال الفريق سعد الشاذلي: لقد أعلن موشي ديان ذلك على حساب، وقد كان هذا الحساب يعتمد فيما أعتقد على التقديرات الآتية:

١ - ضرورة فشل المصريين في العبور نتيجة النيران الكاسحة التي يمكن أن تطلق عليهم من حصون خط بارليف، وكذلك السوائل الملتهبة التي كان يأمل أن تغطي القناة. وبذلك فليس هناك أي أمل في وصولنا إلى الشاطئ الشرقي.

٢ - عدم قدرة المهندسين على إزالة الساتر الترابي وإنشاء الكباري والمعديات دون تأمين الجانب الشرقي، وأنه بفرض نجاح المصريين في اقتحام جزء من القناة فإننا سوف نحتاج إلى حوالي ٢٤ ساعة لإنشاء هذه الكباري؛ وبالتالي فإن الدبابات والأسلحة الثقيلة لن يتم عبورها قبل حوالي ٤٨ ساعة من بدء الهجوم. وكان هذا الوقت يكفي لجلب احتياطات مدرعة من العمق تقوم بتصفية القوات التي نجحت في إنشاء رءوس كبارٍ في الشرق.

وقد أخطأ ديان الحساب عند تقديره لإمكانيات قواتنا المسلحة في العبور خاصة في النقط الرئيسية التالية:

١ - قدرة المشاة المترجلة على صد الدبابات والطائرات المغيرة التي على ارتفاع منخفض، والتشبث بالأرض وحدها ودون أي أسلحة ثقيلة لمدة طويلة.

٢ - كفاءة سلاح المهندسين وقدرته على إقامة الكباري والمعديات على هذا المانع في مدة تتراوح بين ٦ - ٩ ساعات.

٣ - التنظيم الجيد للعبور والذي وصل إلى أن كل ضابط وجندي في القوات التي تقوم بالعبور أو تقوم بتقديم الدعم له كان يعلم جيدًا دوره بالتفصيل والوقت الذي ينفذ فيه هذا الدور بالدقيقة، إلى الحد الذي جعل عملية العبور تعتبر سيمفونية رائعة يشترك فيها عشرات الألوف من البشر في وقت واحد.

٤ - المفاجأة التي حققتها قواتنا والتي ظهرت نتائجها بوضوح في الأيام الأولى للمعركة؛ حيث كانت جميع تصرفات العدو تتسم بعدم التنسيق والارتجال لمدة يومين على الأقل.

٥ - العقيدة والإصرار اللذان يقاتل بهما جنودنا البواسل؛ فقد كان كل ضابط وجندي يعلم جيدًا أنه يدافع عن شرف مصر وشرف العروبة اللذيْن لطختهما أحداث ٥ يونيو ١٩٦٧ ظلما بالتراب. كان يحاول أن يسترد أرضه ويستعيد كرامته وعزته، بينما كان الجندي الإسرائيلي يقاتل دون هدف واضح مقنع. هل وضع ديان في حسابه الأثر المعنوي الذي يحدثه عشرات الألوف وهي تعبر القناة وتصيح في وقت واحد: الله أكبر الله أكبر؟ لا أعتقد أنه أدخل ذلك في حساباته[1].

---

(١) موسى صبري، وثائق حرب أكتوبر، دار المكتب المصري الحديث، القاهرة، ١٩٧٤، ص ص ٣٧٥ : ٣٨٣.

الفصل السابع

الدفع بـ«لطفي» خلف خطوط العدو

عند الساعة الرابعة من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣، أي بعد ساعتين من بدء الهجوم المصري على قوات الاحتلال الإسرائيلي في سيناء، وعبور قناة السويس واقتحام خط بارليف، تواترت الأنباء عن بدء الحرب ونجاح موجات العبور الأولى في احتلال مواقعها المستهدفة على الضفة الشرقية من قناة السويس، وأن قواتنا تتقدم بثبات بطول الجبهة الذي يزيد عن ١٦٠ كيلو مترًا من بورسعيد شمالا إلى السويس جنوبا. لا أستطيع أن أصور حجم الفرحة التي ملأت نفوسنا فور سماع هذه الأنباء، فرحة امتزج معها شوق عارم للاندفاع صوب الجبهة ومشاركة الرجال في تحرير أرضنا السليبة، في معركة نعرف مسبقًا أنها شرسة وتحتاج لتضحيات جسام ضد عدو غادر بطبعه.

لم تستمر حالة الشوق لدخول المعركة طويلًا، فقبل أذان المغرب بنحو ساعة، صدرت لي الأوامر بالتحرك ومعي العريف فتحي عبد الهادي، إلى مطار ألماظة. قبل أن نغادر الكتيبة أعد ميس الضباط لنا طعام الإفطار (دجاجًا، خضارًا، أرزًا، خبزًا، سلاطة، وفاكهة) في وعاء أسطواني من المعدن يطلق عليه اسم «عمود» كي نتناوله في المطار وقت الإفطار.

أثناء تحركنا من الكتيبة إلى المطار، وفي ميدان سفير في مصر الجديدة بالتحديد، كان مدفع الإفطار على وشك الإطلاق، فاشتريت عشرة أرغفة، وما إن وصلنا بوابة مطار ألماظة حتى أَذَّنَ المغرب؛ فتناولت رغيفا من العشرة. كان هذا هو كل إفطاري، فلم أتناول أي صنف مما تم إعداده في ميس الضباط؛ لأن تركيزي كله كان منصبًّا على المهمة التي سأبدأ في تنفيذها بعد ساعتين على الأكثر.

بمجرد دخولنا المطار بدأت أستشعر أجواء الحرب، فالإجراءات الأمنية على أشدها، وحالة الاستعداد داخل القاعدة الجوية في حدها الأقصى. وجدت في انتظارنا قائد الكتيبة العقيد محمود عبد الله، وضابطًا من الخدمة الخاصة بالمخابرات الحربية هو النقيب سامح سيف اليزل[1]، ورجلًا بدويًا، اسمه الشيخ حسب الله، ينتمي إلى قبيلة الإحيوات بوسط سيناء، علمت أنه سيكون الدليل والرفيق خلال تنفيذ المهمة.

---

(١) اللواء سامح سيف اليزل (١٩٤٦ - ٢٠١٦)؛ ضابط سابق بالقوات المسلحة، وعمل في آخر حياته خبيرًا أمنيًا، وكان رئيس مركز الجمهورية للدراسات والأبحاث السياسية والأمنية. توفي عن عمر ناهز السبعين عامًا.

وقف ثلاثتنا - العقيد محمود عبد الله، والنقيب سامح سيف اليزل، وأنا - للتحدث في المهمة التي أستعد للتحرك لتنفيذها. انضم إلينا الشيخ حسب الله، قدمه لي النقيب سامح سيف اليزل، بقوله: «إن الشيخ حسب الله لديه قوة تحمل كبيرة، ويتمتع بحس أمني عالٍ جدًا». صافحته وأنا مبتسم في محاولة لكسر الرهبة لديه؛ ولحثه على دخول المهمة بشيء من الارتياح، فجو الألفة مطلوب في مثل هذه المهام التي سنكون فيها دوما على حواف الجمر، وتحت الخطر في كل وقت و كل حين.

غادرنا النقيب سيف اليزل، وانضم إلينا العريف، فتحي عبد الهادي، فرد اللاسلكي. بعدها جلست مع قائد الكتيبة منفردين؛ لأنه أراد أن يراجع معي تفاصيل المهمة، والتأكد من فهمي الكامل لها. أعاد تذكيري بأهمية الطريق الأوسط في وسط سيناء، الذي يعد طريق الاقتراب الرئيسي للقوات الإسرائيلية المتوجهة إلى جبهة القتال على قناة السويس. مضيفا بأن قواتنا المسلحة عبرت القناة بنجاح منقطع النظير وبأقل خسائر ممكنة، ولدينا تشكيلات من خمس فرق مشاة تتواجد الآن على الضفة الشرقية للقناة، احتلت ٥ رءوس كبار، وتقاتل بشراسة ضد محاولات العدو المستميتة لاستعادة الأوضاع عبر دفع احتياطياته القريبة، فيما يسابق المهندسون العسكريون المصريون الزمن للانتهاء من تركيب الكباري العائمة وفتح الثغرات في خط بارليف؛ كي نتمكن من دفع قواتنا الرئيسية (المدرعة والميكانيكية) لسيناء، قبل أن يقوم العدو بهجومه المضاد الرئيسي؛ ولدعم القوات التي تتمسك بمواقعها شرق القناة.

أكد لي قائد الكتيبة، أن الوقت المتوقع لوصول قواتنا إلى خط المضايق الجبلية الإستراتيجية، واحتلال مداخلها الشرقية في عمق سيناء، حيث الموقع المنتظر أن أنفذ منه مهمتي سيستغرق من ٧ ـ ٩ أيام. ثم أكد معي إشارة التعارف بين المجموعة وقواتنا في حالة صدور أوامر بالانضمام إليها عند وصولها إلى هذه المنطقة. كما تم التأكيد على أسلوب التخاطب مع القيادة في حالة وقوع المجموعة في أيدي العدو - لا قدر الله - وكشف محاولاتهم لتضليل قواتنا من خلال إجبار المجموعة على إرسال معلومات مضللة وخاطئة. ثم أعطاني ٩٠ جنيهًا للصرف منها متى اقتضت الضرورة.

كانت الساعات الأخيرة قبل الإقلاع مهمة جدًا، سواء على صعيد رفع الروح المعنوية أو على صعيد التأكيد على فهم واستيعاب المهمة، وشرح أهميتها بالنسبة لنا بعد اندلاع القتال. ودعنا العقيد محمود عبد الله، داعيًا لنا بالتوفيق في أداء مهمتنا.

عند هذه اللحظة توليت قيادة المجموعة، وبدأ التحرك بالفعل في اتجاه تنفيذ المهمة، والصعود إلى الطائرة المروحية (مي - ٨)[١].

في هذه اللحظة بالذات جالت بخاطري في ثوانٍ معدودات عقبات الانتقال إلى كتيبة الاستطلاع بالقاهرة منذ صدور قرار النقل من كتيبة استطلاع الفرقة الرابعة المدرعة بالجيش الثالث، وتمسك قائد الفرقة العميد عبد العزيز قابيل بي، ثم محاولة إبقائي في إدارة المخابرات الحربية، إلى أن حضر رئيس العمليات، وقال لي: «أنت مقاتل، ومش من بتوع الجلوس في المكاتب، ننتظرك في الكتيبة».

في هذه اللحظة وأنا أصعد إلى المروحية قلت إن هذا السيناريو الذي قادني إلى هذه اللحظة التاريخية؛ حيث الاندفاع لتنفيذ مهمة في غاية الأهمية في هذه الحرب التي يتوقف عليها مصير مصر وكرامة كل مصري وعربي لهو تكريم من عند الله سبحانه وتعالى، الذي - بفضله - أتاح لي هذه الفرصة الجليلة، التي يعتقد الكثيرون أنها انتحارية، في حين أراها أنا أشرف وأقدس مهمة لاستعادة الكرامة.

صعد الطائرة فرد اللاسلكي، العريف فتحي عبد الهادي، ودليل المجموعة الشيخ حسب الله. وبعد أن تأكدت من أن كامل معداتنا قد وضعت على الطائرة جلست خلف قائدها، الذي لاحظت أنه لم يعطِ أوامره بإغلاق باب الطائرة.

نظر إليَّ قائلًا: أين بقية الفصيلة؟

قلت: ليس لنا بقية.

قال: نحن نقوم بإسقاط مجموعات كبيرة من رجالنا منذ بدء العمليات وقبلها.. هذه أول مرة أشاهد مجموعة من ثلاثة أفراد فقط!

ابتسمت وقلت له: إنها مهمة خاصة؛ وبالتالي تحتاج إلى مجموعة خاصة.

بدأت أراجع مع قائد المروحية خط السير من مطار ألماظة حتى منطقة إنزال المجموعة في وسط سيناء، والتأكيد على النقاط الإشارية والهيئات الإرشادية الشهيرة التي ستقابلنا في خط سيرنا بعد عبورنا قناة السويس، وصولًا إلى منطقة الإنزال.

هنا أحب أن أقول إنه من فضل الله وكرمه على أمثالنا نحن من يقومون بتنفيذ مثل هذه المهام الخطرة أنه مع بداية التنفيذ لا يفكر الواحد منا إلا في المهمة المكلف بها، وكيفية التنفيذ، ووسائل النجاح.

---

(١) تعد المروحية (مي - ٨) مروحية للنقل والقتال. كما أنها تستخدم للأغراض المدنية كمروحية لنقل الركاب والبضائع. تبلغ سرعتها ٢٥٠ كم في الساعة، أما مدى طيرانها فيصل إلى ٤٦٥ كم، ويتكون طاقمها من ٣ أفراد، وبمقدورها نقل ١١ - ١٢ طنًا أو ٢٨ راكبًا.

قال لي قائد المروحية بعد مراجعة خط السير: سنتوجه أولا إلى مطار «أبوصوير» لإعادة ملء خزانات الوقود؛ لأن المسافة طويلة من مطار ألماظة إلى منطقة الإنزال ثم العودة.

أقلعت الطائرة من ألماظة إلى «أبوصوير». من مقعدي خلف الطيار وبجوار الملاح، رحت أراقب الأنوار الخفيفة لمساكن مصر الجديدة، وبعض أنوار السيارات على الطرق. لم يفتني النظر إلى موقع كتيبة الاستطلاع التي أخدم فيها، الذي مررنا عليه. لم تكن نظرة وداع، لكنها نظرة تجديد عهد بلقاء أرضها مرة أخرى بعد تحقيق النصر.

كان خط السير إلى «أبوصوير» يمر في جزء منه مع طريق الإسماعيلية الصحراوي. ومنه تتجه إلى المطار المنشود. لم أتمكن خلال فترة خدمتي السابقة أن أتعرف على هذه المنطقة التي تقع في نطاق عمل الجيش الثاني الميداني؛ حيث كانت خدمتي في الجيش الثالث الميداني، ثم في نطاق المنطقة المركزية بالقاهرة، لكنني كنت أحفظ سيناء بجميع قطاعاتها (شمال، وسط، جنوب) عن ظهر قلب. كنا نستغرق أيامًا طويلة في دراسة طوبوغرافية شبه الجزيرة العزيز على قلوبنا مع جنودنا، من خلال «تختة رمل»[1] تمثل خريطة سيناء. لقد نظمت أثناء خدمتي في كتيبة استطلاع الفرقة الرابعة المدرعة مسابقات لأفراد سريتي موضوعها طبوغرافية سيناء.

---

(١) تعد تختة الرمل (طاولة الرمل) ذات أهمية كبرى من الناحيتين المدنية والعسكرية؛ إذ إنها تمثل سطح الأرض بدقة فيما يتعلق بالشكل والمساحة ومقياس الرسم والاتجاه. وعلى ذلك، يمكن تعريفها بأنها نموذج مجسم يمثل الشكل الصحيح والدقيق لشريحة من الأرض، جُعل حسب مقياس رسم محدد وحجم معين يمكن رؤيته والتعامل معه في آن واحد، وهي تعتمد في إنشائها بالدرجة الأولى على الخرائط الطبوغرافية التي توضح الشكل الطبيعي للتضاريس أو الطبوغرافي لسطح الأرض في منطقة ما بصورة مصغرة توضح الظواهر التضاريسية بأحد أساليب تطبيق البعد الثالث للارتفاع مثل: الكنتورات، الهواشير، التلوين، التظليل، ونقط المثلثات، ونقط الارتفاع. وطاولات الرمل هي عملية استرجاع للحقائق الطبيعية، بصورة مصغرة عن الواقع، ومكبرة عن الشريحة المطلوب دراستها أو تحليلها على الخريطة الطبوغرافية. ومن ثم فإن الخطوة الأولى لإنشاء تختة الرمل هي المعرفة الجيدة بأسلوب قراءة الخرائط، وخاصة الخرائط الطبوغرافية، وهذا يعني معرفة العلامات والرموز الاصطلاحية المختلفة، التي تستخدم في رسم الخرائط، والتي تمثل اختزالا للمعلومات والحقائق الجيولوجية والظواهر الطبيعية، وعدم الإلمام بها يحول دون إنشاء طاولات الرمل بالصورة التي تحقق الغرض منها.
فإذا كان الهدف مثلا هو إنشاء طاولة الرمل للأغراض العسكرية فلا بد من إبراز: طبيعة الأرض ومدى صلاحيتها لسير الحملات، والإخفاء، والانتشار، وإمكانية الاستطلاع، والتعاون بين القوات، ومدى صلاحية التربة لأعمال الحفر، ومعرفة مدى توافر الهيئات الحيوية والتكتيكية، وطرق الاقتراب منها، والهيئات الحاكمة على طرق الاقتراب، ومدى توافر الموارد المحلية التي يمكن الاستفادة منها. (للمزيد راجع: الخرائط والطاولات الرملية نشأتها وتاريخ تطورها، مجلة درع الوطن، إدارة التوجيه المعنوي في القيادة العامة للقوات المسلحة بدولة الإمارات العربية المتحدة، العدد الصادر في ١/ ٨/ ٢٠١٣م).

بعد تبادل إشارات التعارف بين قائد الطائرة وبرج مراقبة مطار «أبوصوير» هبطنا بسلامة الله. الأجواء أجواء حرب. درجة اليقظة والاستعداد بين العاملين في المطار عالية. عندما حطت الطائرة في المكان المحدد لها في أرض الهبوط، وجدنا مجموعة من جنود الحراسة يحيطون بها لتأمينها.

نزلت من مكاني في الطائرة، وقفت بجوارها ألاحظ وأراقب ما يحدث حولنا في القاعدة الجوية من طائرات تصعد وأخرى تهبط، والكل متحفز. فدخلت أكثر في أجواء الحرب. كنت أقول لنفسي: لقد جاءت اللحظة التي انتظرناها بفارغ الصبر.

أما الشيخ حسب الله والعريف فتحي عبد الهادي فظلا جالسين في مكانيْهما بالطائرة صامتين في انتظار لحظة الإقلاع مرة أخرى لاستكمال خط السير.

كان إجراءً مفيدًا أن أخذنا جزءًا من رحلة الطيران غرب القناة من القاهرة إلى «أبوصوير»؛ لأن الطيران في هذه المسافة ساهم بشكل كبير في التأهيل النفسي للمجموعة وللطيارين قبل الاندفاع إلى عبور قناة السويس والطيران فوق سيناء، وما يمثله ذلك من مخاطر على المجموعة والطائرة، خاصة وأن العمليات مستمرة، ودرجات استعداد القوات الإسرائيلية ودفاعها الجوي مرتفعة، وهو الأمر الذي وضعه قائد الطائرة المروحية في اعتباره وناقشناه سويًا عندما كنا نبحث خط سير الطائرة حتى منطقة الإنزال بوسط سيناء.

كنت أرى في نظرات طاقم المروحية (مي ـ ٨) كثيرًا من الإشفاق على المجموعة. لاحظت أنهم يكررون على مسامعي نفس السؤال: المجموعة مكونة منك والاثنين دول فقط.. لا أحد معكم؟

كانت إجاباتي مركزة: هذه طبيعة عملنا، وهذا ما قمنا بالتدريب عليه منذ سنوات. كنت أحاول بقدر الإمكان أن يكون الحديث بيني وبينهم فقط بعيدا عن فرد اللاسلكي حتى لا تتأثر معنوياته بهذا الكلام.

جاءت عربة الوقود وبدأت في إعادة ملء خزانات الطائرة. راجعت مرة أخرى مع الضابط الملاح وقائد المروحية خط السير من مطار «أبوصوير» إلى منطقة إنزال المجموعة في وسط سيناء، والتي هي منطقة الغرود الرملية غرب السلسلة الجبلية في سيناء في المنطقة الفاصلة بين المحور الشمالي والمحور الأوسط بسيناء. راجعنا معا أماكن تمركز قوات العدو الإسرائيلي، سواء كانت نقاطًا قوية على خط بارليف؛ حيث لم تكن قد سقطت في هذه الساعات الأولى للقتال، أو مناطق تمركز وحدات الاحتياطي الإسرائيلي القريب، وأماكن رادارات العدو، ومناطق تمركز قواته في عمق سيناء. كنت ملمًا بها جميعًا، ولا عجب في ذلك، فنحن ضباط الاستطلاع لا هَمّ

لنا سوى دراسة العدو (نواياه - أماكن تمركزه - أنشطته - أساليب خداعه - مواقعه اللاسلكية - راداراته...إلخ).

انتهى تزويد الطائرة بالوقود. أعطى قائدها أوامره بإغلاق الأبواب، وبعد الاتصال ببرج المراقبة صدرت له إشارة الإقلاع، وهو ما تم بالفعل والجميع في أعلى درجات التركيز في المهمة. أخذت الطائرة مسارها المتفق عليه من مطار «أبو صوير» في اتجاه الشرق؛ حيث جبهة قناة السويس التي تتم فيها أعمال قتال الجيش الثاني الميداني، الذي بات يحتل الضفة الشرقية للقناة، ويقاتل العدو بشراسة انتظارًا لنجاح قواتنا في فتح الثغرات في الساتر الترابي لاندفاع قواتنا المدرعة والميكانيكية لأخذ مواقعها شرق القناة ومواجهة احتياطيات العدو المدرعة المتقدمة، والتي تستهدف استعادة أوضاع قواتها لما كان عليه الأمر قبل عبور قواتنا.

السماء صافية والقمر أقرب ليكون بدرا «شبه كامل». الرؤية واضحة؛ حيث كانت الطائرة تحلق على ارتفاع منخفض كي لا تكشفنا عناصر الدفاع الجوي الإسرائيلي. عبرنا القناة، لكن هذه المرة ليس بواسطة قارب كما تعودت خلال خدمتي بالجيش الثالث الميداني والفرقة الرابعة المدرعة. العبور اليوم مختلف عن تلك المرات التي عبرت فيها خلال حرب الاستنزاف؛ ذلك أن الهدف منه ليس استطلاع نقطة قوية أو عمل كمين لدورية من دوريات العدو، بل إنه عبور لهزيمة يونيو ١٩٦٧، عبور لاستعادة كرامة المقاتل المصري التي سلبت منه دون أن تتاح له فرصة حقيقية للتعبير عن نفسه كمقاتل صعب المراس.

كانت المشاعر مختلطة من الفرحة والترقب والقلق والشوق للوصول لموقع تنفيذ المهمة ورصد تحركات العدو من وإلى الجبهة بطول قناة السويس. فهذه هي أرض سيناء الطاهرة. فرحتنا لا توصف عندما تمكنا من رؤية الأرض بوضوح على ضوء القمر، زادت الفرحة عندما تمكنا من التعرف على الهيئات والعلامات الإرشادية التي حددناها في خط سيرنا. كنا نراها وكأننا ننظر إليها على تختة رمل!

خلال الرحلة بدأ قائد الطائرة يسأل: اسمك إيه؟ فكل ما كان يعرفه أنني ضابط استطلاع مكلف بمهمة في وسط سيناء. لاحظت في تساؤلاته وحديثه مسحة من الإشفاق والإعجاب في نفس الوقت. الإشفاق على مجموعة لا تتعدى ثلاثة رجال سيتم إلقاؤهم في الصحراء وسط قوات العدو. والإعجاب بشجاعتنا وثباتنا ونحن في طريقنا إلى تنفيذ مهمة حتما ستكون بطولية.

قلت له: اسمي النقيب أسامة المندوه.

على الفور أخرج قلمًا وسجَّل الاسم على علبة كبريت كانت معه.

قال: أنا اسمي فلان.

لم أكتبه طبقًا لتعليمات الأمن، التي تشدد على حتمية ألا نحمل معنا أيَّ معلومات أو أسماء. قلت له: لنا لقاء إن شاء الله بعد النصر وتنفيذ المهمة.

اقتربت المروحية من موقع الإنزال. بدأ قائدها يدقق في الهيئات والعلامات الإرشادية. طلب مني اختيار المكان الذي سينزلنا فيه. اخترت منطقة في مدخل الوادي الرؤية فيها واضحة. بدأت عملية التحليق في الجو على ارتفاع يمكننا من القفز. أسقطت الشِّدَّة والتعيين وقفزت من الطائرة، بعدها ناولني العريف فتحي عبد الهادي جهاز اللاسلكي، وألقى شَدَّته ثم قفز على الأرض، ثم قفز بعده الشيخ حسب الله.

تأكدت من أن جميع الأسلحة والمعدات معنا، وأننا لم ننسَ شيئًا في الطائرة، بعدها أعطيت إشارة تمام الإنزال للطيار، الذي رد بإشارة الوداع، ورددت عليه بعلامة النصر، وانطلقت الطائرة في اتجاه الغرب عائدة إلى قاعدتها غرب قناة السويس.

قدرت في هذه اللحظات أنني لست بحاجة لتحقيق اتصال بالقيادة لإعطاء «تمام الإنزال». قلت إن الطيار عند عودته سيقوم بذلك. أول شيء قمت به مع بقية أفراد المجموعة هو مراجعة خط السير من موقع الإنزال في منطقة الغرود الرملية إلى أقرب منطقة جبلية يمكن التحصن فيها قبل انطلاقنا نحو الموقع المستهدف تمركزنا فيه لمتابعة نشاط العدو على المحور الأوسط بسيناء.

هذه المنطقة الجبلية التي سنتحرك إليها هي منطقة جبل حمير الواقعة إلى الشمال من الطريق الأوسط في وسط سيناء، وتستغرق المسافة إليها مسيرة بقية الليل؛ حيث تمنع القواعد تحركنا في النهار لزيادة احتمالات اصطدامنا بقوات العدو أو السكان المحليين.

لاحظنا أن الطائرة تركت آثارا على المنطقة الرملية التي حلقت فوقها تدل على أن طائرة هليكوبتر قد أنزلت أفرادا في هذا المكان؛ إذ ربطنا ذلك بآثار أقدامنا في المنطقة واتجاه السير بالوادي في اتجاه المنطقة الجبلية.

مكثنا بعض الوقت للتأكد من خلو المنطقة من أي تحركات إسرائيلية بالرغم من أننا عند اختيار خط سير الطائرة ومنطقة إنزال المجموعة قد راعينا أن تكون منطقة الإنزال بعيدة عن مناطق تمركز القوات الإسرائيلية، وعند التحليق فوق المنطقة قمنا باستطلاع سريع من الجو للتأكد من خلو المنطقة من أي تحركات للعدو قبل إتمام الإنزال، ولكن رغم كل هذا فإعادة التأكد من خلو المنطقة من أي تهديدات أو عدائيات هو إجراء حتمي من إجراءات تأمين المجموعة.

الفصل الثامن

«لطفي» تصل قلب العدو

بعد أن تأكدنا من خلو المنطقة من أي قوات أو تحركات للعدو بدأنا التحرك في الوادي شرقًا في اتجاه منطقة جبل حمير، التي يسهل الاختباء فيها من أعين العدو قبل الاندفاع في الوثبة الأخيرة التي سنصل في نهايتها إلى الموقع الإستراتيجي المنشود في وسط سيناء، والذي سننفذ منه مهام الاستطلاع ومراقبة تحركات العدو من وإلى قناة السويس.

بدأ تحركنا تحت ضوء القمر وكأنه تحرك نهاري، وليس في الليل. كنا نأخذ في تحركنا أشكالًا مختلفة لتشكيلات التحرك. وبشكل عام، إذا كان تشكيل التحرك في شكل خط مستقيم يكون الشيخ حسب الله في المقدمة باعتباره الدليل، ثم أنا، وأخيرًا العريف فتحي عبد الهادي، فرد اللاسلكي. يتغير الأمر عندما نتحرك في شكل مثلث. بشكل عام، كانت المجموعة تتحرك بحذر شديد، وفي صمت مطبق، في إطار الحرص على أهمية الوصول إلى موقع تنفيذ المهمة الموكلة إليها بأمان ودون اصطدام بالعدو.

أثناء التحرك، لم نشعر ـ أنا والعريف عبد الهادي ـ بالشِّدَّة التي يحملها كلانا على ظهره، والتي يصل وزنها إلى ٣٠ كيلوجرامًا (تضم: السلاح الشخصي، ذخيرة، مياهًا، تعيينًا جافًا «معلبات»)؛ ففي هذه اللحظات العصيبة لم يسيطر على تفكيرنا وجوارحنا سوى هدف واحد فقط، هو الوصول إلى هدفنا بسلام؛ كي نتمكن من خدمة الوطن من خلال تنفيذ مهمة المجموعة.

في إطار الحرص على استغلال فترة الليل في الابتعاد عن المنطقة المكشوفة والوصول إلى المنطقة الجبلية للتحصن فيها كنا من وقت لآخر نراجع خطر السير الذي سبق دراسته في مقر الكتيبة، وكذلك في مطار ألماظة عند وصول الدليل الشيخ حسب الله، وتأكيده مرة ثالثة عقب عملية الإنزال في منطقة الغرود أو الكثبان الرملية غرب السلسلة الجبلية التي نتحرك في اتجاهها في وسط سيناء.

من حسن حظنا ومن براعة المخطط في اختيار توقيت اندفاعنا لاحتلال نقطة المراقبة المنشودة في عمق سيناء والتي تقع في قلب عدد من الأهداف الحيوية للعدو، أن القوات الإسرائيلية كانت منشغلة تمامًا في المعارك الدائرة على خط المواجهة بطول قناة السويس. لم يكن لها أي نشاط يذكر في منطقة العمق التي تم إبرارنا فيها.

علمًا بأن هذا الوضع قد تغير بعد عدة أيام من القتال إذ زاد بشدة منسوب تركيزهم واهتمامهم بمناطق العمق؛ في محاولة لكشف أماكن تمركز مجموعات الاستطلاع المصرية التي تعمل في مؤخرة قواتهم.

قبل أن يلوح ضوء الفجر معلنا عن يوم جديد يترسخ فيه انتصار جيش مصر العظيم يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣ كنا قد وصلنا إلى منطقة جبل حمير. ساعدتنا طبيعة الأرض الجبلية على الاختفاء عن الأعين وعن أي تحركات محتملة سواء للقوات الإسرائيلية أو للبدو.

طلب الشيخ حسب الله الذهاب إلى المنطقة التي تتواجد فيها قبيلة الإحيوات التي ينتمي إليها في وسط سيناء لاستطلاع الأمور، وترتيب إجراءات إخفاء آثار تحرك المجموعة في منطقة الإنزال حتى دخولنا منطقة جبل حمير؛ لأنه كان يسهل على العدو اقتفاء أثرنا من وقع أقدامنا في هذه المنطقة، فضلًا عن الحفرة التي خلفها تحليق المروحية (مي – ٨) على ارتفاع منخفض جدًّا أثناء إنزالنا على الأرض.

كان الشيخ حسب الله رجلًا ذا مكانة في قبيلته، وبشكل عام كانت «الإحيوات» من قبائل سيناء التي لم يستطع العدو الإسرائيلي خلال فترة الاحتلال (١٩٦٧ – ١٩٧٣) تطويعها أو حتى استمالتها للتعاون معه مهما كانت إغراءاته أو ضغوطه، وهذه كانت الروح السائدة لدى قبائلنا في سيناء[١].

بعد أن غادر الشيخ حسب الله، واطمئناني إلى أننا نجلس في مكان مأمون من أعين العدو في المنطقة الجبلية، رحت أراجع خط السير بعمق شديد من المنطقة التي نتمركز فيها بجبل حمير إلى الطريق الأوسط، ومنه إلى موقع نقطة الملاحظة

---

(١) من المواقف التي تؤكد وطنية أهالينا في سيناء هذه الواقعة التي حدثت في ٣ نوفمبر ١٩٦٨ بعد نحو عام ونصف عام على احتلال إسرائيل لسيناء، ذلك أن مخابرات الاحتلال تحت إشراف وزير الدفاع آنذاك «موشي ديان» شرعت في دعوة سكان سيناء إلى إعلان انفصالهم وأن تبقى سيناء كيانًا مستقلًا على غرار إمارة موناكو والفاتيكان وغيرهما، مؤكدة أنهم سيحظون بمباركة دولية لهذه الخطوة التي تبدأ بعقد مؤتمر بدوي موسع في منطقة الحسنة التي تتوسط سيناء يعلن خلاله زعماء القبائل الانفصال.

الدعوة الإسرائيلية نقلها مشايخ القبائل إلى المخابرات المصرية على الفور، وبدأ التخطيط لإحباط المؤتمر، فأوهم مشايخ البدو قادة إسرائيل العسكريين لمنطقة سيناء بموافقتهم على الانفصال، فنظمت قوات الاحتلال مؤتمر الحسنة، وحشدت وسائل الإعلام العالمية، وجلبت كميات ضخمة من المساعدات الغذائية نقلتها طائرات عسكرية لتوزعها على البدو الذين كانوا يعانون من الحاجة إلى الطعام في تلك الفترة؛ تشجيعًا لهم على حضور المؤتمر. وما إن عقد المؤتمر ودعي مشايخ سيناء لإعلان بيانهم حتى تقدمهم الشيخ سالم الهرش وألقى بيانه المشهور، قائلا: «إن بدو سيناء مصريون، وسيناء مصرية، وستظل كذلك.. ورئيسنا هو جمال عبد الناصر... وباطن الأرض أولى لنا من ظاهرها إن فكرنا في غير ذلك». وقع البيان كالصاعقة على قادة إسرائيل العسكريين والسياسيين وأحرج دولة الاحتلال أمام العالم، وأعقبه حملة تنكيل واسعة من قبل المحتل نالت مشايخ القبائل المشاركين في المؤتمر بشكل خاص، وبدو سيناء عامة.

الذي انتخبته القيادة لنباشر منه مهام الاستطلاع، فوجدت أن تحركنا كله - من جبل حمير مروزًا بالطريق الأوسط، وصولًا إلى الموقع المنشود - سيكون من الشمال إلى الجنوب. كنت أضع كل الاحتمالات أمامي، وأجهز نفسي للتعامل معها جميعًا، ومنها عدم رجوع الشيخ حسب الله إلينا، لأي سبب كان سواء لسبب خاص به، أو اعتقاله من جانب العدو. لم تكن قد مرت على معرفتي بالرجل أكثر من ١٥ ساعة، وبالرغم من ذلك كانت ثقتي في الله ثم في القيادة التي وفرت الدليل الشيخ حسب الله بلا حدود، فضلًا عن ثقتي في قدراتي على استكمال مهمة المجموعة التي ستساهم في تحقيق النصر على العدو وتحرير أرضنا السليبة.

عاد الشيخ حسب الله، وزالت الشكوك، وانفرجت الأسارير. قبل مغادرة موقعنا في منطقة جبل حمير فوجئت بقطيع من الأغنام يتحرك في الوادي على خط سير المجموعة في اتجاه الغرب. تهللت أساريري؛ فذلك من شأنه إخفاء أثر تحرك المجموعة في الوادي.

قال لي الشيخ حسب الله: طلبت إلى أبناء قبيلتي تحريك عدد من الرعاة بقطيع من الأغنام على خط السير حتى يتم إخفاؤه تمامًا. ثم شرح لي طريقة عمل قصاص الجرة (الأثر) وقدراته الفائقة على كشف شخصية صاحب أثر القدم على الأرض. ذلك أن بإمكانه معرفة إذا ما كان الأثر لرجل عسكري أم لسيدة أم لسيدة حامل، أم لرجل عجوز أم لشاب. وأنهى بقوله: «هذا علم بحره واسع».

كان الشيخ حسب الله يتحسب من الزي العسكري الذي نرتديه أنا والعريف عبد الهادي. اقترح إحضار زي بدوي لنا (جلاليب) كجزء من إجراءات الإخفاء والتمويه، لكنني عارضت الفكرة رغم وجاهتها ومنطقيتها من الناحية العملية.

داعبت الشيخ حسب الله برد فكاهي أضحكنا جميعًا للمرة الأولى منذ أن التقينا. قلت له:

«عايز تلبسنا جلاليب علشان كلنا نبقى زي بعض. أبدًا. سأظل أنا النقيب أسامة، وهذا العريف هو الإشارجي (فرد الإشارة)، وأنت الشيخ حسب الله، دليل المجموعة».

كان تفكيري وقتها الذي جعلني أعارض فكرة ارتداء «الجلابية» هو حرصي على أن أبقى في زي المقاتلين، حتى إذا - لا قدر الله - وقعت المجموعة في الأسر، وهو احتمال وارد، أحفظ حقوقي في التعامل كأسير حرب وفق اتفاقية جنيف[1]، أما لو وجدنا الصليب الأحمر مرتدين ملابس مدنية، فلن يتحرك لإخضاعنا للتعامل

---

(١) اتفاقية جنيف هي عبارة عن أربع اتفاقيات دولية تمت صياغة الأولى منها في ١٨٦٤ وأخيرتها في ١٩٤٩ تتناول حماية حقوق الإنسان الأساسية في حالة الحرب، أي طريقة الاعتناء بالجرحى والمرضى وأسرى الحرب، وحماية المدنيين الموجودين في ساحة المعركة أو في منطقة محتلة إلى آخره.

بموجب هذه الاتفاقية التي تحفظ حقوق أسرى الحرب في معاملة لائقة، بالرغم من الاقتناع بأن إسرائيل لا تلتزم بمثل هذه الاتفاقيات الدولية.

تحركنا من جبل حمير جنوبا في اتجاه الطريق الأوسط. كلما اقتربنا من الهدف زاد حذرنا وحرصنا على عدم الاصطدام بقوات العدو أو حتى بالبدو، نظرا لأننا نرتدي الملابس العسكرية. وصلنا إلى شمال الطريق الأوسط، أخذنا موقعنا خلف تبة مشرفة على الطريق، ومنها تمكنا من مراقبته، واستطلاع طريق التحرك للوثبة الأخيرة حيث المكان المحدد لتواجد المجموعة من قبل القيادة عند تخصيص المهام في الكتيبة.

كانت تحركات القوات الإسرائيلية في الاتجاهين (من الشرق إلى قناة السويس في الغرب، ومن الغرب إلى الشرق) سريعة ومتلاحقة. كان واضحا أنهم في هذا المساء من اليوم الثاني للقتال (٧ أكتوبر) يقومون بحشد قواتهم في اتجاه الضفة الشرقية للقناة؛ استعدادًا لتنفيذ الهجوم المضاد الرئيسي ضد قواتنا ومحاولة استعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الساعة الثانية من ظهر يوم ٦ أكتوبر، وهو ما فشلوا فيه فشلًا ذريعًا بعد أن منيت قواتهم بخسائر فادحة.

عند أول هدوء للتحركات الإسرائيلية على الطريق الأوسط اندفعنا لعبوره صوب الجنوب، في اتجاه منطقة الوديان التي تسبق المنطقة الجبلية التي تشرف على مطار المليز، والطريق الأوسط، والطريق الذي يربط الطريق الأوسط بممر متلا، والمعروف باسم (وصلة جفجافة - بير تمادة).

كان تحركنا في هذه الوثبة الأخيرة على شكل وثبات قصيرة، نختبئ أنا والعريف عبد الهادي، ويتحرك الشيخ حسب الله لاستطلاع خط السير في إطار حرصه الزائد وحسه الأمني المرتفع، ونظرًا لأن منطقة الوديان التي تسبق المنطقة الجبلية التي نتحرك في اتجاهها عبارة عن أرض صعبة مفتوحة وصالحة لسير المركبات، ومن ثم كانت احتمالات اكتشافنا عالية؛ ومن هنا كان التحرك شديد الحذر.

بعد عدد من الوثبات وصلنا إلى المنطقة الجبلية التي لم أكن أعلم أنني سوف أمكث بها ٦ أشهر بالتمام والكمال. لم أصدق نفسي من إمكانيات هذا الموقع وكم هو مشرف على المنطقة كلها، والذي خططت القيادة كي نتواجد فيه لرصد تحركات العدو من وإلى قناة السويس. فرحة الوصول إليه بسلام لم أعرف مثلها في حياتي إلا لحظة وصولي لمواقع القوات المصرية بعد ٦ أشهر من هذه اللحظة في طريق عودتنا بعد انتهاء مهمة المجموعة.

هالني كضابط استطلاع محترف هذا الموقع الحاكم، الذي بمقدوري من خلاله رصد تحركات العدو على الطريق الأوسط الإستراتيجي، سواء من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق، وكذلك أي محاولات للمناورة بالقوات شرق السلسلة

الجبلية أو الحائط الغربي لسيناء، من خلال الدفع بقوات من الطريق الأوسط في اتجاه ممر متلا في الجنوب أو العكس، عبر وصلة (الجفجافة – بير تمادة). كل هذا فضلا عن إشرافه الكامل على مطار المليز، وهو المطار الرئيسي الذي يستخدمه العدو في وسط سيناء، والذي كان من أول الأهداف التي أغارت عليه قواتنا الجوية في طلعتها الأولى عند بدء القتال، والذي استشهد في الهجوم عليه، الشهيد طيار عاطف السادات[1]، شقيق الرئيس أنور السادات.

إشراف الموقع الذي وصلنا إليه – كما خططت القيادة – على مطار المليز، سيمكننا من ملاحظة واستطلاع جميع التحركات الجوية منه وإليه. وتزيد أهمية هذا الموقع الحاكم عندما تعرف أننا من خلاله يمكننا استطلاع مركز من أهم مراكز القيادة والسيطرة في وسط سيناء؛ ألا وهو مركز أم مرجم (أم رجام).

كانت فرحتنا عارمة وحماسنا كبيرًا لوصولنا لهذا الموقع الذي يقع في قلب كل هذه الأهداف الإسرائيلية الحيوية، والذي يجعلنا بحق نضع أيدينا على كنوز من المعلومات عن العدو وتحركاته ونواياه؛ وهو ما سيفيد القيادة في قراراتها خلال المعارك الشرسة الدائرة بطول جبهة قناة السويس.

---

(١) ولد عاطف السادات في ١٣ مارس عام ١٩٤٨م وتخرج في الكلية الجوية عام ١٩٦٦م، وقضى عامين في الاتحاد السوفيتي تطبيقا لبرنامج تدريبي على المقاتلات الجوية ثم القاذفات المقاتلة (السوخوي). في عامي ١٩٦٩م و١٩٧٠م شارك عاطف السادات في عمليات هجومية مصرية ضد طائرات إسرائيلية في اتجاه سيناء ويصفه زملاؤه بأن خبرته في حرب الاستنزاف جعلته معلمًا على الطائرات السوفيتية في تلك الفترة.
في يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣م طلب عاطف السادات من قائد تشكيله (الشهيد زكريا كمال) أن يشارك في الضربة الأولى بدلًا من الانتظار إلى ضربة ثانية كانت تجهز لها القوات الجوية، وأمام إلحاحه استجاب قائده لذلك واشتركا معًا في مهمة جسورة كللت باستشهادهما بعد أن قاما بعملية قصف قوات العدو في منطقة (أم مرجم) ثم قصف الطائرات الإسرائيلية الرابضة في مطار المليز بوسط سيناء.
انطلق النقيب طيار لأول مرة محلقًا بطائرته التي استقلها فوق سيناء المحتلة حيث أطلق صواريخ طائرته مفجرًا رادارًا ومركز قيادة صواريخ الهوك اليهودية للدفاع الجوي المحيطة بالمطار لحرمان العدو الإسرائيلي من استخدامها ضد قواتنا الجوية طيلة فترة الحرب. وقام باقي التشكيل بضرب وتدمير مطار المليز. وبعد ذلك قام النقيب طيار بعمل دورتين كاملتين للتأكد من تدمير الهدف المنوط به، وحتى لا يترك أي فرصة لاستخدام تلك البطاريات ضد الطائرات المصرية.
وفي الدورة الثالثة وفي نفس اللحظة التي انتهى فيها من التبليغ عبر أجهزة اللاسلكي عن تمام تنفيذ مهمته، أصيبت وتحطمت طائرة عاطف السادات بصاروخ دفاع جوي إسرائيلي؛ ليحظى بالشهادة فوق أرض البطولة بعد أن أسهم والعديد من رفاقه نسور الجو المصريين في فتح الطريق للقوات المسلحة المصرية لتبدأ هجومها الكاسح نحو استعادة سيناء ورفع العلم المصري فوق أرضها الغالية.

الفصل التاسع

سيل من المعلومات عن العدو

مع غروب شمس يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣م كنا قد وصلنا إلى موقع تنفيذ المهمة بالمنطقة الجبلية الواقعة جنوب الطريق الأوسط في عمق المحور الأوسط بسيناء عند وادي المليز وبير جفجافة، وما إن تم ذلك حتى بدأت في انتخاب (اختيار) نقطة الملاحظة التي سأقوم من خلالها بمهام الاستطلاع في هذا الموقع الحاكم. كان هدفي هو التحصن في أعلى نقطة بالمنطقة الجبلية؛ كي أستطيع منها مراقبة الأهداف الحيوية التي أتابع نشاط العدو فيها بدقة وأمان.

صعدنا - الدليل حسب الله، وفرد الإشارة العريف فتحي عبد الهادي، وأنا - إلى أعلى نقطة في امتدادات هذه المنطقة الجبلية، إلى أن وصلنا للنقطة التي رأيت أنها المناسبة لمهمتنا. كانت تتسع لثلاثة أفراد، وتجمع المزايا المطلوبة في نقطة الملاحظة المثالية، من حيث إشرافها الكبير على هذا الموقع الحاكم وما يحتويه من أهداف حيوية مثل: مطار المليز، الطريق الأوسط، الطريق العرضي المعروف بـ«وصلة الجفجافة- بير تمادة»، الواصلة بين الطريق الأوسط ثم ممر الجدي وصولًا إلى ممر متلا في الجنوب، والتي يستخدمها العدو في أعمال المناورة بالقوات. كانت عملية اختيار وتجهيز نقطة الملاحظة تتم تحت ضوء القمر الذي أوشك على أن يكون بدرًا في هذه الليلة.

الميزة الثانية في هذه النقطة أنها مأمونة إلى درجة كبيرة؛ لأنها محصنة ويصعب على العدو اكتشافنا فيها. وفي حال تم ذلك - لا قدر الله - فإن موقعها المشرف والحاكم سيمكننا من مشاهدة قوات العدو المتحركة في اتجاهنا بوقت يكفي لتحركنا والتعامل بحكمة طبقا للموقف. فلكي تصل القوات الإسرائيلية إلى هذه النقطة ستحتاج نحو ساعة ونصف الساعة - على الأقل - سيرًا على الأقدام، وصعودا لقمة الجبل.

بالرغم من كل هذه المزايا لهذه النقطة فإننا نفذنا جميع أعمال الإخفاء والتمويه المطلوبة، بحيث يصعب حتى على أي طائرة استطلاع للعدو اكتشافنا من السماء.

إجراءات الإخفاء تطلبت نقل بعض الحجارة في عدد من الاتجاهات، وكما هو معروف فإن الجزء الملتصق بالأرض من هذه الحجارة يكون لونه مختلفًا عن الوجه المواجه للسماء والذي يتعرض للمطر والأتربة وعوامل التعرية؛ لذلك حرصنا عند رص هذه الحجارة على عدم إظهار الجزء المختلف منها كي يتماثل اللون البارز منها مع اللون الطبيعي لبقية الحجارة الموجودة في الجبل، فلا يثير الانتباه.

بعد أن اخترنا نقطة الملاحظة، واختبار صلاحيتها للإرسال والاستقبال، وقيامنا بأعمال الإخفاء والتمويه، قلت للرجال: الآن.. والآن فقط أستطيع أن أعطي القيادة تمام وصول المجموعة واحتلالها نقطة الملاحظة المثالية كما تم التخطيط لها.

اعتبارات أمن المجموعة كانت تحول دون تحقيق اتصال مع القيادة قبل هذه اللحظة. لم أكن أستطيع القيام بذلك عند نقطة إبرارنا من الطائرة؛ لأنها منطقة مفتوحة، والاتصال يحتاج فردًا هوائيًا (يمين وشمال) على شكل حرف T باتجاه الاتصال، وهو ما يعرض المجموعة لخطر الاكتشاف في هذه الأرض المفتوحة، فهذا الاتصال يتم عبر نبضات، ولو اكتشف العدو الموقع الذي صدرت منه هذه النبضات فسيدفع بقوات للقبض علينا على الفور، وهو ما يجب على المجموعة تجنبه بكل السبل.

قدرت أن تحقيق اتصال وفرد هوائي وتضييع بعض الوقت في إجرائه داخل هذه المنطقة المفتوحة لهو عمل أقرب للمقامرة بمستقبل المجموعة والمهمة برمتها؛ ولذلك كان قراري بأن لا داعي لتحقيق اتصال في هذه المرحلة من خط السير، وأنه من الحتمي أن قائد المروحية (مي – ٨) قد أعطى تمام إنزال المجموعة وهذا يكفي جدًا. قررت أيضًا عدم المجازفة بالاتصال بالقيادة إلا بعد الوصول لموقع تنفيذ المهمة.

أصدرت أوامري لفرد الإشارة العريف فتحي عبد الهادي: استعد لتحقيق أول اتصال بالقيادة؛ لإعطاء تمام وصول المجموعة لموقع تنفيذ المهمة.

كنا نعتمد في الاتصال بالقيادة على «شفرة المورس» (Morse code)، التي تحدثنا عنها في فصل سابق، وهي عبارة عن نبضات، من مزاياها أنها تجنبنا التواصل مع القيادة بالحديث البشري المباشر. كان من دواعي اختياري العريف عبد الهادي للانضمام للمجموعة هو إتقانه الإرسال والاستقبال بهذه الشفرة، التي لم أكن أجيد التخاطب بها؛ لأنها تحتاج إلى الحصول على «دورة تعليمية» خاصة بها، وتحتاج تدريبًا خاصًا على مستوى عالٍ. لكنني كنت ملمًا بتكوين جهاز الإرسال والاستقبال، وطريقة تشغيله.

لا أستطيع أن أصف مشاعري، وكذلك الشيخ حسب الله والعريف عبد الهادي أثناء قيام الأخير بمحاولة تحقيق الاتصال الأول مع القيادة. قلوبنا تدق فرحًا، وإن بحذر مخافة حدوث أي عطل بالجهاز، الذي يتوقف على عمله نجاح المهمة

برمتها. تهللت أساريرنا بعد أن رأينا أمارات السعادة بادية على وجه عبد الهادي «تمام يا أفندم.. القيادة استقبلت إشارتي.. وجارِ الرد علينا».

كان بإمكاني تصور الفرحة العارمة التي تجتاح مركز القيادة الآن بعد تحقيق الاتصال الأول مع المجموعة «لطفي»، والذي أعطت فيه تمام وصولها لموقع تنفيذ المهمة في توقيت مثالي كما هو مخطط لها ودون أي عقبات صادفتها في خط سيرها. هذا يعني أن عينا واسعة لقواتنا سترصد بدقة تحركات العدو من هذا العمق البعيد في سيناء، معناه أيضًا أن القيادة ستستعد لتلقي كنوز من المعلومات التي يمكن من خلال تحليلها وربطها بمعلومات أخرى اكتشاف نوايا العدو وخطوط اقترابه.

على عكس هذه الفرحة يسود الوجوم عند انقطاع الاتصال بإحدى المجموعات التي تم دفعها لاستطلاع مؤخرة العدو وخطوطه الخلفية. يتم وضع علامة إكس (x) عليها، وإذا أعادت الاتصال بعد فترة تكون هناك شكوك في وقوعها تحت سيطرة العدو الذي يجبرها على إمداد القيادة بمعلومات مغلوطة لتضليلها عن نواياه وأعماله الحقيقية. ولذلك قبل دفع أي مجموعة يتم تدريبها على نظام للتخاطب تفهم منه القيادة أن المجموعة واقعة تحت سيطرة العدو عند حدوث ذلك؛ فمثلًا: الاسم الكودي لمجموعتنا هو «لطفي»، فلو كان نظام التخاطب الطبيعي يقول: لطفي لطفي لطفي.. أفد حول. فإنني إذا وقعت تحت سيطرة العدو فسأقول: لطفي لطفي أفد لطفي حول.

بعد أن حققنا أول اتصال بالقيادة، حلَّ الظلام على المنطقة. نزلنا لسفح الجبل لانتخاب مكان نلتقي فيه الشيخ حسب الله، عندما يأتينا عند الغروب من كل يوم. رأيت أن صعود ونزول الرجل الخمسيني إلينا يوميًا أمر شاق عليه رغم لياقته البدنية العالية. كان الدليل يختفي عنا طوال النهار، وينخرط في حياته العادية في مضارب قبيلته؛ كي لا يلفت غيابه الأنظار. فضلًا عن أن المنطقة التي نتمركز فيها لم تكن فيها مناطق تجمع لبدو؛ وبالتالي تحركه النهاري فيها سيلفت الأنظار إليه، ويعرضه لاستجواب القوات الإسرائيلية الغادية والرائحة.

جاء الدور على مناقشة مسألة تأمين الحدود الدنيا من المأكل والمشرب في هذه المنطقة الوعرة. لم يكن معنا إلا تعيين يكفي مدة ٩ أيام هي مهمة المجموعة حتى تتصل بنا قواتنا التي من المفترض أن تندفع شرقًا لاحتلال خط المضايق بعد ٩ أيام قتال كما أخبرني العقيد محمود عبد الله قائد الكتيبة عند تخصيص المهمة بالكتيبة، وكرره عند التلقين النهائي قبل تحرك المجموعة في مطار ألماظة.

قال الشيخ حسب الله: سنحتاج إلى تأمين المجموعة بما يكفيها من التعيين، فنحن في شهر رمضان ونحن لا نعرف الظروف التي سنواجهها في قابل الأيام. أعطيته مبلغًا من المال لتدبير بعض أصناف الطعام، فاشترى لنا – بعد يومين – جوال دقيق، وعلبًا

من الصلصة، وشايًا وسكرًا، وعددًا من علب السجائر لزميلي فرد اللاسلكي. اختار الشيخ حسب الله مكانًا آمنًا لتشوين هذه المؤن، بعيدًا عن مخرات السيول ومياه الأمطار. وكذلك تغطيتها من عبث الزواحف والحيوانات المفترسة التي تتواجد في مثل هذه المناطق الجبلية.

أول يوم عمل

بعد الانتهاء من كل هذه الأعمال التي تلت وصولنا للموقع الذي حدده المخطط لتمركز المجموعة خلدنا إلى نوم عميق، بعد رحلة شاقة من مطار ألماظة وصولًا إلى منطقة المليز، ونحن نتحسب للأخطار التي قد تواجهنا. هدأت الأعصاب، انصب تركيزنا كله على العمل الذي سنبدؤه اعتبارًا من صباح باكر (٨ أكتوبر).

لم ندرِ إلا وأشعة الشمس تنسدل على وجوهنا على استحياء في ساعة مبكرة من الصباح. استيقظنا على الفور. ما أعظمها من لحظة تلك التي أمسكت فيها الـ«نيكلز» (منظار مكبر)؛ لألقي نظرة على مطار المليز. تمكنت من نقطة الملاحظة العبقرية رصد – بل عد – الجنود وهم يركبون الطائرات المرابطة على الممر الرئيسي بالمطار. أيقنت أنه لا يمكن لطائرة إسرائيلية تهبط أو تقلع من هذه القاعدة الجوية دون رصدها ومعرفة نوع الحمولة بالنسبة لطائرات النقل.

ومنذ هذا اليوم بدأت المجموعة في تأكيد البيانات العسكرية المصرية بشأن إسقاط الطائرات الإسرائيلية التي تحاول الهجوم على قواتنا على خط المواجهة على قناة السويس. كنت أرصد تشكيلات الطائرات المقاتلة أو القاذفة الإسرائيلية عند إقلاعها من مطار المليز. أحصر عددها بدقة عند الإقلاع، وأعيد رصد الطائرات التي عادت منها للمطار خلال عملية الهبوط، فإذا أقلعت ٧ طائرات ولم تَعدْ إلا ٤ طائرات فقط، يصبح احتمال قيام قواتنا بإسقاط الطائرات الثلاثة الباقية كبيرًا جدًّا، وهو ما تحققه – أو تتحقق منه من خلالي – قواعدنا الجوية أو دفاعاتنا الأرضية التي اشتبكت مع الطائرات المغيرة. كنت أعرف بياناتنا العسكرية من خلال الاستماع لإذاعة «BBC».

وجهت نظري في اتجاه محطة إنذار أم مرجم (أم رجام). لاحظت في البداية أن الرادارات المعلقة على قمتها ثابتة لا تتحرك، وهذا يعني أنها قد تأثرت بالضربة الجوية المصرية التي انطلقت مع بداية العمليات. تأكد لي ذلك بمرور الوقت؛ حيث شهدت الأيام التالية عودة بعض هذه الرادارات للعمل، سواء عبر تحركها في استدارة كاملة، أو على شكل مروحي. عرفت في هذه اللحظة أهمية التدريب الذي تلقيته على

«تمييز رادارات العدو»، وهو أحد موضوعات التدريب على تمييز أسلحة العدو سواء كانت برية أو جوية أو دفاعًا جويًا ومنها الرادارات... إلخ.

كنت أنقل مشاهداتي التي أسجلها بدقة عن هذه المحطة إلى القيادة. رصدت الوقت الذي يتم فيه تشغيل كل الرادارات بهذه المحطة، والأوقات التي تعمل الرادارات بنصف قوتها، أو ربع قوتها، وعند حدوث تغيير في هذه التوقيتات كنت أبلغ بها القيادة أولًا بأول.

تذكرت في صباح اليوم الأول لتنفيذ المهمة ذلك القائد الكفء الذي خطط لتواجد مجموعة استطلاع مصرية في هذا الموقع، الذي لا يمكن أن تمر معدة أو مركبة من وإلى خط القناة عبر الطريق الأوسط دون أن ترصدها المجموعة. وكذلك التحركات على الطريق العرضي الواصل بين الطريق الأوسط وممر الجدي وصولًا إلى ممر متلا (وصلة جفجافة- بير تمادة).

رصدت منذ اليوم الأول لعمل المجموعة جميع التحركات في الاتجاهين (من الشرق إلى قناة السويس في الغرب حيث تدور المعارك، والعكس) سواء عسكرية (تلرات[1]، مدفعيات، دبابات، عربات نقل جنود، سيارات إسعاف، أقوال إدارية من تلك التي تحمل تعيينًا وذخيرة) أو مدنية (ملاكي)، كنت أحصي أنواعها، وأعدادها، وتوقيتات تحركها، أرصد إذا كانت محملة أو فارغة. كنت أرسل بيانًا بكل هذه المشاهدات إلى القيادة في نهاية اليوم.

قد يتساءل البعض عن جدوى رصد السيارات الملاكي، وهنا أقول: إن تحركات هذه السيارات لها دلالتها في تقييم محلل البيانات الذي تصل إليه المعلومات؛ فكثافة التحركات الملاكي تعطيك انطباعًا عن الحالة التي عليها القوات المعادية، فعندما يتم منع تحركات هذه السيارات نهائيًا فهذا معناه أن العدو يتخذ إجراءات طوارئ صارمة، قد تؤشر على اعتزامه التحرك في اتجاه ما. أما إذا زادت وتيرة تحركها في المناطق الوعرة مثل مسرح سيناء فهذا قد يؤشر على أن العدو في حالة استرخاء.

فشل الهجوم المضاد الإسرائيلي

في هذه الأثناء كانت قواتنا المسلحة تسطر ملحمة عسكرية على أي مقياس عسكري، فقد نجحت فرق المشاة الخمس (الفرقة ١٨، والفرقة ٢، والفرقة ١٦، في قطاع الجيش

(١) التلرات هي الجرارات الكبيرة التي تحمل الدبابات والمركبات إلى أقرب موقع للقتال؛ لأن سير الدبابات لمسافات طويلة سيرهق أطقمها ويؤثر على كفاءة جنزيرها، ناهيك عن استغراق وقت أطول في الوصول لخطوط المواجهة؛ ما يفقد القوات ميزة الدبابات التي تتمثل في خفة الحركة والقدرة العالية على المناورة.

الثاني، والفرقة ٧، والفرقة ١٩، في قطاع الجيش الثالث) من تحقيق مهمتها المباشرة بعبور قناة السويس، واقتحام خط بارليف، والسيطرة على حصونه، وإقامة رءوس كبارٍ لها على أرض سيناء، وتكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة في الأرواح والمعدات، للدرجة التي جعلت وزير الدفاع الإسرائيلي، موشي ديان[1] يقتنع بصعوبة إنقاذ رجاله المحاصرين في المواقع الأمامية لقناة السويس بطول خط بارليف؛ وهو ما دفعه لإصدار أوامره بعدم دفع أي وحدات لإنقاذهم نظرًا للخسائر الفادحة التي تكبدتها قواته في هذه المحاولات اليائسة، التي استمرت طيلة ليلة ٦/ ٧ أكتوبر، وطيلة يوم ٧ أكتوبر.

من المفارقات أنه بعد وصول المجموعة «الطفي» إلى موقع تنفيذ مهمتها قبل غروب شمس يوم ٧ أكتوبر في منطقة وادي المليز وبير جفجافة، وبالتحديد في الساعة الثامنة من مساء نفس اليوم، وصل الجنرال ديفيد بن أليعازر رئيس الأركان العامة إلى المركز الأمامي للقيادة الإسرائيلية الجنوبية في أم مرجم بطائرة هليكوبتر - أي إلى نفس المنطقة التي تتواجد فيها المجموعة - وبرفقته الجنرال إسحق رابين رئيس الأركان العامة في حرب يونيو ١٩٦٧م، والذي تولى فيما بعد منصب رئيس وزراء إسرائيل، وعلى أثر وصولهما عقد اجتماع بمقر مركز القيادة - الذي نرصد نشاطه من موقعنا الحاكم- حضره الجنرال جونين قائد القيادة الجنوبية وثلاثة من القادة، هم: الجنرال ألبرت ماندلر وإبراهام أدان (برن) وكلمان ماجن وتأخر الجنرال أرييل شارون عن الحضور لمدة ساعتين بسبب خلل أصاب الهليكوبتر التي أرسلت لإحضاره.

خلال الاجتماع وضع الجنرال أليعازر الخطوط الرئيسية لخطة الهجوم الإسرائيلي المضاد، الذي تقرر أن يبدأ صباح يوم الاثنين ٨ أكتوبر على منطقة رءوس الكباري المصرية شرق القناة. كانت الخطة تتلخص فيما يلي: تبدأ فرقة الجنرال إبراهام أدان المدرعة في القطاع الشمالي الهجوم على قطاع الجيش الثاني من القنطرة إلى الجنوب في اتجاه الدفرسوار والبحيرات المرة، وفي نفس الوقت ترابط فرقة الجنرال شارون في قطاعها (القطاع الأوسط) لصد الهجمات المصرية ووقف تقدمها شرقًا، ولتكون في نفس الوقت بمثابة احتياطي لفرقة أدان.

---

(١) موشي ديان: ولد في مستوطنة «ديجانيا» بفلسطين عام ١٩١٥م لأبوين يهوديين هاجرا من أوكرانيا واستقر بهما المقام في فلسطين. شارك في معظم الحروب العربية- الإسرائيلية، فبدأ حياته عضوًا في عصابات الهاجاناه الصهيونية التي قتلت وهجرت الفلسطينيين قبل إنشاء إسرائيل، ثم قائدًا للقوات التي احتلت اللد عام ١٩٤٨، وقاد الجيش الإسرائيلي عام ١٩٥٦ إبان العدوان الثلاثي على مصر، ثم ذاع صيته بعد هزيمة العرب في حرب ١٩٦٧ إذ كان وقتها وزيرًا للدفاع، واختتم حياته بعد أن شارك بفاعلية في مفاوضات السلام التي انتهت بالتوقيع على معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩، وتوفي سنة ١٩٨١م.

وإذا نجح هجوم أدان في الشمال تقوم فرقة شارون المدرعة بالهجوم على الجيش الثالث من الدفرسوار إلى الجنوب في اتجاه السويس والطرف الجنوبي للقناة، وفي حالة فشل هجوم أدان سيكون على فرقة شارون تعزيز الهجوم؛ ولذا أمر رئيس الأركان بعدم تحريك فرقة شارون من قطاعها إلا بتصديق منه.

جاءت نتائج الهجوم المضاد الإسرائيلي الذي جرى يوم ٨ أكتوبر مخيبة لآمال الإسرائيليين؛ ففي قطاع الجيش الثاني في الشمال تمكنت الفرقتان ١٨ مشاة في قطاع القنطرة، و١٦ مشاة في قطاع (الدفرسوار الإسماعيلية شرق) من صد الهجمات المضادة التي تعرضت لها وحداتهما منذ صباح ذلك اليوم، وأوقعت بالمهاجمين خسائر فادحة.

أما في قطاع الفردان فقد تمكنت الفرقة المصرية الثانية المشاة من سحق اللواء المدرع الذي كان يتولى قيادته العقيد نيتكا، ومن أسر قائد إحدى كتائبه وهو العقيد عساف ياجوري[1]، وألحقت خسائر فادحة باللواء المدرع الذي كان يقوده العقيد جابي، وإزاء الخسائر الجسيمة التي حاقت بالفرقة المدرعة الإسرائيلية في أثناء قيامها بالهجوم المضاد الرئيسي على فرق المشاة المصرية في قطاع الجيش الثاني اضطر الجنرال إبراهام أدان (برن) قائد الفرقة إلى إصدار أوامره إلى قادة ألويته المدرعة الثلاثة (العقيد نيتكا، جابي، وآريه) بالانسحاب شرقا صوب الطريق العرضي رقم ٣ (٣٠ كيلو شرق القناة)[2] واحتلال المواقع المجهزة في العمق.

---

(١) في يوم ٨ أكتوبر ١٩٧٣ قام العميد حسن أبو سعدة قائد الفرقة الثانية مشاة بالجيش الثاني الميداني بصد الهجوم المضاد الذي قام به لواء ١٩٠ مدرع الإسرائيلي (دبابات هذا اللواء كانت تتراوح ما بين ٧٥ حتى ١٠٠ دبابة) وتدمير كافة دباباته وأسر قائد إحدى كتائب اللواء وهو العقيد عساف ياجوري. يتحدث عن ذلك جمال حماد المؤرخ العسكري قائلا: كان قرار قائد الفرقة الثانية يعتبر أسلوبًا جديدًا لتدمير العدو وهو جذب قواته المدرعة إلى أرض قتل داخل رأس كوبري الفرقة والسماح لها باختراق الموقع الدفاعي الأمامي و التقدم حتى مسافة ٣ كيلومترات من القناة.. وكان قرار قائد الفرقة الثانية مشاة خطيرًا وعلى مسئوليته الشخصية ولكن المفاجأة فيه كانت مذهلة مما ساعد على النجاح.. و بمجرد دخول دبابات اللواء أرض القتل انطلقت عليهم النيران من كافة الأسلحة بأوامر من قائد الفرقة الثانية مشاة حسن أبو سعدة .. مما أحال أرض القتل إلى نوع من الجحيم.. و خلال دقائق تم تدمير معظم دبابات العدو وتم الاستيلاء على ٨ دبابات سليمة، كما تم أسر العقيد عساف ياجوري قائد كتيبة النسق الأول من لواء نيتكا ١٩٠ مدرع.

(٢) الطريق العرضي رقم (٣) يقع عند منطقة الطاسة (٣٦ كيلو شرق قناة السويس). هو واحد من ضمن ٣ طرق عرضية أنشأتها إسرائيل لتساعدها في أعمال المناورة بالقوات. الطريق العرضي رقم (١) الذي سمي لكسيكون Lexicon يقع على مسافة تقع بين ١٠٠٠ و١٥٠٠ متر شرق القناة؛ حيث صمم للربط بين النقط القوية لخط بارليف. وسمي الطريق العرضي رقم (٢) بطريق المدفعية، الذي كانت تتحرك عليه كتائب المدفعية أثناء الضرب على القوات المصرية المتقدمة في اتجاه الشرق.

وفي الوقت الذي لحق فيه الفشل بالخطط الإسرائيلية وتوالت فيه الضربات الموجعة على قواتها المدرعة في سيناء كان يوم الاثنين ٨ أكتوبر يوما ناجحا بالنسبة للقوات المصرية على جميع المستويات؛ فعلى أثر صد الهجمات الإسرائيلية المضادة على رءوس الكباري المصرية في القطاع الشمالي على الضفة الشرقية للقناة صدرت أوامر اللواء سعد مأمون[1] قائد الجيش الثاني إلى قادة الفرق ١٦ و٢ و١٨ مشاة بتطوير الهجوم شرقا وتوسيع رءوس كباري الفرق بالتنسيق والتعاون بعضها مع بعض للاستيلاء على الخط العام بعمق ٨ – ١٠ كم شرق القناة المحدد لها كمهمة تالية وفقا للخطة الموضوعة، وهو ما تم بنجاح ساحق.

وفي قطاع الجيش الثالث في الجنوب أصدر اللواء عبدالمنعم واصل قائد الجيش الثالث الميداني أوامره يوم ٨ أكتوبر إلى قائدي الفرقتين ١٩ و٧ مشاة بعد صد هجمات العدو التكتيكية على فرقتيهما بتطوير هجومهما شرقا للوصول إلى خط المهمة التالية، وهو ما تم بنجاح مماثل لما تم في قطاع الجيش الثاني[2].

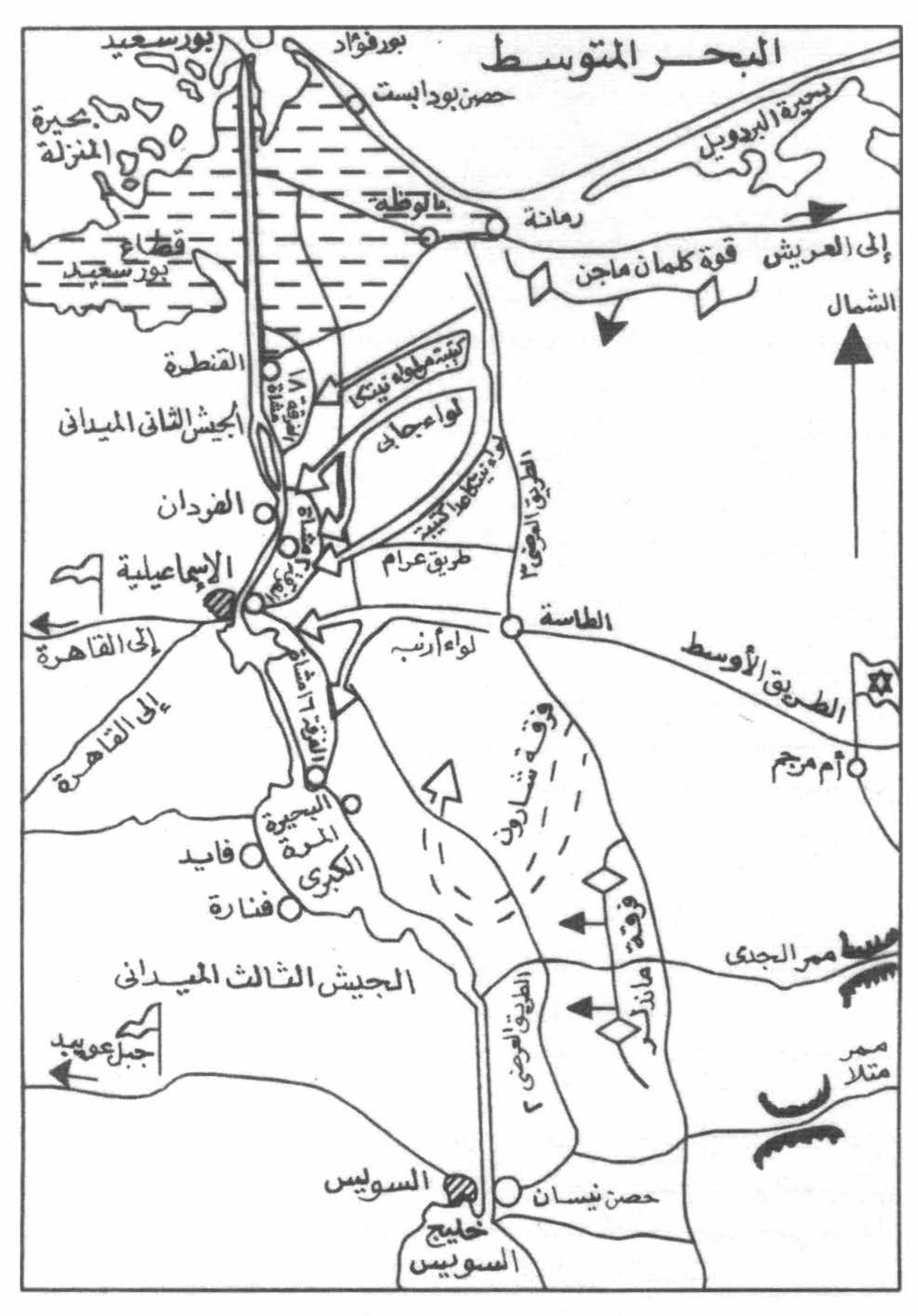
أصداء فشل الهجوم المضاد الإسرائيلي كانت ملحوظة بالنسبة للمجموعة، فقد لاحظنا حركة لا تنقطع لسيارات الإسعاف القادمة من الجبهة في اتجاه الشرق، رغم وجود مستشفيات ميدانية بالقرب من مركز القيادة المتقدم في منطقة الطاسة[3]، التي تقع في الغرب من موقعنا بنحو ٥٥ كيلومترا، وكذلك اندفاع أقوال التعزيزات الإدارية إلى مطار المليز، ومنه تتحرك سيارات إلى الجبهة عبر الطريق الأوسط، إلى حيث المعارك على أشدها بطول جبهة قناة السويس.

---

(١) اللواء محمد سعد مأمون (١٩٢٢ – ٢٠٠٠)؛ قائد عسكري مصري رفيع، وأحد ضباط المدرعات البارزين، كان قائدا للجيش الثاني الميداني حتى يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣، حيث أصيب بوعكة صحية، على أثرها حل محله اللواء عبد المنعم خليل في قيادة الجيش حتى نهاية الحرب. ومأمون هو واضع «الخطة شامل» مع المشير محمد عبد الغني الجمسي لتصفية ثغرة اختراق العدو في الدفرسوار، وهي الخطة التي لم تنفذ نظرا لتوقيع اتفاق فض الاشتباك الأول في يناير ١٩٧٤. عمل اللواء سعد مأمون محافظ لمطروح والمنوفية والقاهرة من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٨٣، وعين وزيرا للحكم المحلي في مارس ١٩٨٣، وتوفي في ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٠.

(٢) جمال حماد، المعارك الحربية على الجبهة المصرية، مرجع سبق ذكره، بتصرف، ص ص ١٦٥: ١٨٥.

(٣) الطاسة هي إحدى القرى التابعة لمركز الحسنة في شمال سيناء، تقع أقصى غرب مدينة الحسنة على الطريق الأوسط. تقع شرق قناة السويس في اتجاه الإسماعيلية بحوالي ٣٦ كم، وغرب الجفجافة بحوالي ٥٥ كم، وغرب الحسنة بنحو ١٤١ كم.



الهجوم المضاد الإسرائيلي يوم ٨ أكتوبر ١٩٧٣م

الفصل العاشر

أمريكا تدخل الحرب.. وإسرائيل تستعد للعبور المضاد

لم يصمد التعيين الجاف طويلًا. فور انتهائه اعتمدنا في تحضير الإفطار الرمضاني على جوال الدقيق وعلب الصلصة التي أحضرها لنا الشيخ حسب الله، الذي كان يغيب عنا طوال النهار ويعود إلينا قبيل المغرب لاعتبارات مرتبطة بحسه الأمني العالي. كنا نشاهده من نقطة الملاحظة المشرفة على كل طرق الاقتراب إلى «المجموعة لطفي» وهو يقترب من الوادي في اتجاه المكان، التي تم تشوين الدقيق والصلصة وكمية محدودة من المياه بها. بمجرد رؤيتنا له وهو يجمع الحطب نبادر بالهبوط إلى الوادي. كان ذلك هو الطابور اليومي لي والعريف فتحي عبد الهادي؛ للتدريب على السير والحفاظ على ما لدينا من لياقة بدنية.

يتجمع ثلاثتنا عند الموقع الذي خزنَّا فيه الدقيق، يلقانا الشيخ حسب الله مبتسما. يقول مداعبًا: «هو انتم لسه ما اتقبضش عليكم للحين؟»؛ فنضحك، ثم يشرع على الفور في إعداد وجبة الإفطار. يشعل النار في الحطب الناشف الذي جمعه من الوادي، وخلال إتمام عملية الإشعال يكون قد جهز عجينة الفطيرة (يسميها بدو سيناء «اللبة») التي سيتم تسويتها على النار.

بمجرد تحول الحطب المشتعل إلى جمر يزيحه جانبا؛ ليستخدم الأرض الملتهبة تحته كفرن لتسوية «اللبة». يبطط العجينة فوق هذا المكان المستعر، ثم يغطي العجين بجمرات النار التي أزاحها. بعد فترة من الوقت تستوي الفطيرة (اللبة)، وأمارات ذلك هو انتفاخها لأعلى. عندئذ يخرجها من النار، وينفض عنها التراب بطرف جلبابه، وأحيانًا بواسطة عصا صغيرة.

يستكمل الشيخ حسب الله إعداد الإفطار الرمضاني بوضع قليل من الماء على النار في إناء صغير، ويسقط فيه علبة صلصة صغيرة وبعض الملح. يقسم الفطيرة إلى ثلاثة أجزاء، ويسأل السؤال التقليدي: «نفت ولا نغمس؟» وهو يعلم إجابتي مسبقًا: نغمس طبعًا، بحيث يأكل كل منا دون أن تلمس يده شوربة الصلصة.

أثناء تناول الوجبة الوحيدة التي تدخل جوفنا خلال الـ٢٤ ساعة، تكون المياه التي وضعناها على النار لعمل الشاي قد أوشكت على الغليان. ينتهي الأمر بأن يشرب كل

منا كوبًا من الشاي بعد تناول نصيبه من «اللبة»، بعدها ينخرط العريف عبد الهادي في إشعال سيجارته الأولى بعد الإفطار، فيما أنغمس أنا في تبادل أطراف الحديث مع الشيخ حسب الله، الذي يعود إلينا محملًا ببعض الأخبار المهمة المتعلقة بتحركات القوات الإسرائيلية أو بعض إجراءاتها تجاه القبائل أو طلباتها منهم، إلى أن يلتحق عبد الهادي بحديثنا بعد لحظات الصمت المطبق التي كان يعيشها أثناء تدخين سيجارته الأولى!

الحقيقة أن هذا البرنامج الذي يبدأ بوصول الشيخ حسب الله، ثم تجهيز الوجبة، مرورا بشرب الشاي، وصولًا إلى تبادل الأحاديث، استمر كما هو بترتيبه طيلة الأشهر الستة التي قضيناها في تنفيذ مهمة «المجموعة لطفي» خلف خطوط العدو من هذا الموقع الحاكم، إلا باستثناءات قليلة سنتوقف عندها في حينها.

أوضاع قواتنا يوم ٩ أكتوبر

نجحت قواتنا المسلحة منذ اندلاع القتال بعد ظهر ٦ أكتوبر ١٩٧٣ في عبور قناة السويس بقوة ٥ فرق مشاة، وحققت هذه الفرق مهمتها المباشرة بعبور قناة السويس، واقتحام خط بارليف والاستيلاء على نقاطه الحصينة، وتكبيد العدو أكبر خسائر في الأرواح والمعدات، واحتلت رءوس جسور (كبارٍ) على الشاطئ الشرقي لقناة السويس.

ثم حققت مهمتها التالية بتوسيع رءوس الجسور إلى عمق وصل إلى نحو ١٥ كيلو في سيناء، ونجحت في دحر الهجمات المضادة للعدو بطول الجبهة، ودخلت اعتبارًا من يوم ٩ أكتوبر ١٩٧٣م حتى صباح يوم ١٤ أكتوبر، ما عرف باسم «الوقفة التعبوية»، التي يقصد بها في الأكاديميات العسكرية: «توقف مؤقت لأعمال القتال، في مسرح العمليات، بين جانبين متحاربين؛ نتيجة ظروف مختلفة ومتعددة؛ حيث يتخذ كل منهما موقف الدفاع، لفترة محدودة؛ مع احتمال تغيير شكل الصراع المسلح، وتحوله إلى القنوات السياسية، وصولًا إلى تحقيق الأهداف المحددة؛ مع توقع نشوب الصراع المسلح، مرة أخرى، في حالة عدم تحقيق الأهداف بالوسائل التفاوضية»[1].

ومن أهم أهداف الوقفات التعبوية «الاستفادة من خبرات القتال المكتسبة أثناء العملية الأولى، وتطبيقها أثناء العملية التالية، مع خلق توازن في مسرح العمليات، بين التشكيلات التعبوية في تحقيق المهام».

---

(١) للمزيد عن الوقفات التعبوية راجع: موسوعة مقاتل من الصحراء، النسخة الإلكترونية:
http://www.moqatel.com/openshare/behoth/askria6/wakfa/sec02.doc_cvt.htm

انتهت «الوقفة التعبوية» بإصدار القيادة السياسية المصرية أمر تطوير الهجوم نحو خط المضايق الإستراتيجية في عمق سيناء (نحو ٥٠ كيلومترًا شرق القناة)، يوم ١٢ أكتوبر لتخفيف الضغط على الجبهة السورية في الجولان - بحسب ما قال الرئيس السادات- وهو ما تم العمل على تحقيقه صباح يوم ١٤ أكتوبر، لكن قواتنا لم توفق فيه لاعتبارات عديدة منها تأخر توقيت هذا التطوير، ذلك أن الكثير من القادة والنقاد العسكريين يرون أن مصر فوتت فرصة ثمينة للوصول لخط المضايق يوم ٩ أكتوبر، وقت أن كانت القيادة والقوات الإسرائيلية تعاني من انهيار واضح بسبب مجرى الحوادث على جبهات القتال منذ اندلاع الحرب بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر.

تل أبيب في ١٠ أكتوبر

بدأت رئيسة وزراء إسرائيل جولدا مائير يوم ١٠ أكتوبر بتحرير رسالة مكتوبة إلى الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون تعزز رسالتها الشفهية بشكره على ما قدمه لها من أسلحة وعتاد. وجاء في الرسالة بالنص: «لقد أخطرت عند الفجر بقراركم بتأكيد إمداد إسرائيل فورًا بسيل من العتاد الأمريكي«immediate flow of U.S material». ولقد كنت أدرك أنني في لحظة الحاجة هذه أستطيع أن أتوجه إليكم بطلب المساعدة، وأستطيع أن أعتمد على فهمكم الدقيق لضرورات الموقف إلى جانب مشاعركم العميقة تجاه إسرائيل».

كانت رسالة جولدا مائير تعكس نوعًا من الاطمئنان، ولكن مجلس الوزراء الإسرائيلي بكامله كان لا يزال في حالة انهيار من تأثير تقرير وزير الدفاع موشي ديان، ذلك أن الجنرال ديان كان يبدو حسب تعبير الوزير يزرائيل جاليلي «أمامنا باستمرار نموذجًا حيًا لجندي إسرائيل المقاتل، لكنه في هذه اللحظة الحاسمة تهاوى كأنه تمثال مصنوع من التراب، وليس من الرخام».

وقد قرر المجلس وهو في حالة انعقاد دائم تفويض الجنرال «بارليف» باستعمال قوات الاحتياطي لمواجهة احتمالات تقدم الجيشين المصريين الثاني والثالث. وكان تقدير المجلس أنه وقد تأكد الآن تدفق سيل المساعدات الأمريكية فإن الاحتياطي الإسرائيلي يمكن دفعه إلى المعركة.

وقد وجه الجنرال بارليف دعوة إلى اجتماع للقيادة العامة لبحث ما يمكن عمله على الجبهة الجنوبية (وكان قد أصبح مسئولًا عنها بعد عزل قائدها الأصلي الجنرال جونين).

ودُعيَ إلى المشاركة فيه كل من الجنرال ديان، والجنرال آلون والجنرال يسرائيل تال، والجنرال زاييرا، والجنرال بيليد، وانضم إليهم وزير الدولة يزرائيل جاليلي.

وكان أهم ما تقرر في هذا الاجتماع:

١ـ وقف العمليات المحدودة التي تشتبك فيها قوات الاحتياطي الواصلة إلى الجبهة؛ لأن هذه السياسة أدت إلى بعثرة القوات وتكبيدها خسائر فادحة. ثم إنها جعلت الجبهة كلها في حالة اهتزاز.

٢ـ بما أن الجيش المصري لم يتقدم بعد مساء ٧ أكتوبر عندما فرغ من تعزيز مواقع الجيشين (الثاني والثالث) فإن هناك فرصة لالتقاط الأنفاس وحشد قوة كافية للقيام بهجوم كبير، والتفكير والتخطيط لوضع خطة تدفع هذا الهجوم الكبير إلى أي مواقع تتجاوز خطوط ١٩٦٧؛ وذلك لمحاولة العبور إلى الناحية الأخرى من القناة لاحتلال أرض يمكن المساومة عليها فيما بعد.

٣ـ ضرورة التحرك عسكريًا بسرعة؛ لأن الضغوط في نيويورك تتزايد من أجل اتخاذ قرار في مجلس الأمن يقضي بوقف إطلاق النار[1].

المليز من ١٠- ١٤ أكتوبر

كان للقرار المصري الخاص بـ«الوقفة التعبوية»، وقرارات مجلس الوزراء الإسرائيلي انعكاساتها الواضحة على طبيعة مشاهداتي للتحركات الإسرائيلية من الموقع الحاكم في عمق القطاع الأوسط بسيناء عند منطقة وادي المليز وبير جفجافة.

أولى هذه المشاهدات مرتبط بتدفقات الجسر الجوي الأمريكي بالعتاد والرجال لدعم إسرائيل، والذي ظهرت مفاعيله في صد قواتنا التي قامت بأعمال تطوير الهجوم نحو خط المضايق الجبلية الإستراتيجية في عمق سيناء صباح يوم ١٤ أكتوبر. فخلال الفترة التي أعقبت الوقفة التعبوية، وتحديدا مساء يوم ١٣ أكتوبر، وبينما أتبادل أطراف الحديث كالمعتاد مع الشيخ حسب الله بعد تناول الوجبة اليومية إذ به يحكي لي أمرًا قال إنه أثار استغراب الكثير من بدو سيناء.

قال الرجل: إن شكل الدبابات الإسرائيلية القادمة من العريش إلى الجبهة بالقرب من قناة السويس في اليومين الأخيرين (١١ و١٢ أكتوبر) غير معتاد؛ إذ إن شكلها

---

(١) محمد حسنين هيكل، أكتوبر ٧٣ السلاح والسياسة، ط٢، دار الشروق، القاهرة ٢٠١٠، ص ٥٨٥: ٥٨٧.

ليس الشكل المعروف للدبابات الإسرائيلية التي ألفنا رؤيتها في مناطق تمركزها المنتشرة في سيناء.

وأضاف دليل المجموعة بأن «الأمر لا يقتصر على الشكل الجديد للدبابات، بل يتعداه إلى شكل أطقمها من الضباط والجنود، فما لفت انتباه الكثير من البدو أن هؤلاء الضباط والجنود بمجرد رؤيتهم لبدوي يمر راكبا جمله إلا ويسرعون إليه طالبين التقاط الصور معه ومع الجمل أو قطيع الجمال الذي يسوقه أمامه».

مبعث استغراب البدو - بحسب الشيخ حسب الله - أن الجنود الإسرائيليين لا يعتبرون الجمال شيئًا جديدًا أو مثيرًا بالنسبة لهم، فبجانب وجودها في سيناء التي يحتلونها منذ ٦ سنوات، فإنها موجودة في صحراء النقب الفلسطينية التي تقع في حوزتهم؛ وتاليا فإن هؤلاء الضباط والجنود الذين يعتبرون منظر الجمل منظرًا فريدًا وغير مألوف هم جنود غير إسرائيليين.

لقد كانت هذه الملاحظات التي شدت انتباه بدو سيناء دليلًا قويًا على الذكاء الشديد الذي يتمتع به هؤلاء المواطنون المصريون، وكانت بحق جرس إنذار قويًا نبهنا لدخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب إسرائيل، وإن بشكل غير معلن.

المشير محمد عبد الغني الجمسي[1]، رئيس هيئة العمليات بالقوات المسلحة خلال حرب أكتوبر تحدث في مذكراته بالتفصيل عن الدعم العسكري الأمريكي لإسرائيل خلال الحرب، فقال:

«جاء في تقرير مراقب عام الدولة الأمريكي بخصوص الجسر الجوي لإسرائيل عام ١٩٧٣ أن أمريكا استخدمت ٢٢٨ طائرة نقل نفذت ٥٦٩ طلعة وصلت إلى إسرائيل تحمل ٥ ,٢٢ ألف طن من الاحتياجات بمعدل ٢٣ طائرة في اليوم الواحد كحد أقصى لاعتبارات سياسية قدرها وزير الدفاع الأمريكي. واستمر الجسر الجوي ٣٣ يوما من ١٣ أكتوبر إلى ١٤ نوفمبر ١٩٧٣ (وتم نقل حوالي ٤٠٪ من هذه المعدات في فترة الأيام العشرة التي حدثت فيها الثغرة بين يوم ١٣ إلى ٢٤ أكتوبر).

كما أنشأت أمريكا جسرًا بحريًا لنقل المعدات كبيرة الحجم، حيث وصلت أول سفينة إلى إسرائيل في يوم ٢ نوفمبر ١٩٧٣، بحمولة قدرها ٢١٠ ,٣٣ أطنان

---

(١) المشير محمد عبد الغني الجمسي (٩ سبتمبر ١٩٢١ - ٧ يونيو ٢٠٠٣)؛ قائد عسكري مصري، شغل منصب وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة، وشغل قبلها منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية، ومن قبلها منصب رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة. ورئيسًا للوفد المصري في مفاوضات الكيلو ١٠١ خلال حرب أكتوبر.

من الدبابات والمدافع والعربات -ولقد تكلفت عملية الجسر الجوي الأمريكي لإسرائيل ٨٨,٥ مليون دولار.

وكان أبرز أنواع الأسلحة والمعدات والذخائر التي شحنت لإسرائيل: محركات الطائرات الفانتوم وأجنحتها ومستودعات قنابل جو/ أرض، ومجموعة أجزاء طائرات سكاي هوك، ومعدات نظام دفاع جوي من أطرزة مختلفة، وصواريخ جو/ أرض، وعبوات إعاقة ومعدات فنية لصيانة محركات الطائرات.

هذا بخلاف الدبابات نفسها والمدفعية ومواسير المدافع وذخيرة الدبابات.. إلخ. ويقول السادات إنه «بعد استخدام الأمريكان لمطار العريش لاحظ أثناء متابعته الحرب في غرفة العمليات، أنه كلما أصيبت لإسرائيل ١٠ دبابات رأى المزيد من الدبابات بين صفوفهم برغم ما أفنيناه من الدبابات التي كان يقودها قائد الدبابات الإسرائيلي ماندلر[١]، الذي قتل بعد أن أرسل باستغاثته»[٢].

إسرائيل تدفع بمعدات العبور المضاد إلى الجبهة

خلال الفترة من ٨ إلي ١٤ أكتوبر، وعلى وجه الخصوص يوم ١٣ أكتوبر، شاهدت من نقطة الملاحظة التي تتمركز بها المجموعة «لطفي» القوات الإسرائيلية تدفع في اتجاه جبهة القتال على الضفة الشرقية لقناة السويس بأشياء بدت غريبة لي في هذا التوقيت، كأن ترى تلرات (لوريات) يحمل كل منها ٣ مواسير مجار طويلة وضخمة، وفي الفواصل بين هذه التلرات، كنت أشاهد تلرًا رابعًا يحمل حجرا ضخمًا. لم أكن أعرف على وجه اليقين في أي غرض سيتم استخدام تلك المواسير والحجارة. علمًا بأن بعض المصادر قد وصفت هذه المواسير الطويلة بأنها صواريخ ضخمة، وهنا طلبت القيادة تأكيد هذه المعلومة مني، وكان توصيفي دقيقًا جدًا؛ ذلك أنني ذكرت أنها ليست صواريخ بل مواسير، تحملها تلرات، ومعها حجارة ضخمة.

بالطبع كانت هذه هي المعدات اللازمة لإنشاء الكوبري الثابت على قناة السويس، الذي تستهدف القوات الإسرائيلية استخدامه في العبور المضاد إلى الضفة الغربية لقناة السويس، بعد اختراق خطوطنا وهو ما حدث بالفعل كما سنبين بعد قليل.

---

(١) ماجور جنرال/ إبراهام ماندلر، مجموعة العمليات المدرعة رقم ٢٥٢، قتل يوم ١٣ أكتوبر في قصف للمدفعية المصرية على مركز قيادته، وهو قائد عسكري إسرائيلي يتمتع بزعامة كاريزمية في أوساط الجنود الإسرائيليين، وكان مقتله عبارة عن عنوان بارز لحجم الخسائر التي تكبدتها القوات الإسرائيلية.

(٢) محمد عبد الغني الجمسي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٧.

من الأمور التي لفتت نظري فيما يخص هذه التلرات المندفعة إلى خط القناة محملة بالمواسير والحجارة أنها عند عودتها من الغرب إلى الشرق، كانت تعود فارغة أي لا تحمل شيئًا، ولكي يوفروا الوقود ويعطوا الفرصة لإراحة نصف السائقين، نظرًا للمشاكل الموجودة لديهم فيما يخص التعبئة وقلة عدد السكان كان كل تلر يعود محملًا بتلر آخر. الشخص غير المدرب إذا نظر إلى التلر الذي يحمل تلرا آخر من بعيد كان من الممكن أن يظن أننا بصدد معدة إسرائيلية جديدة قد دخلت المعركة، ويعطي معلومات خاطئة قد تؤدي إلى تقدير خاطئ أيضًا، لكني أحمد الله على أنني من موقعي كنت قادرًا وبسهولة ويسر على تمييز الأهداف المتحركة على الطرق الرئيسية، وخاصة الطريق الأوسط الرئيسي بكل يسر وأريحية.

خلال الفترة من ١٠- ١٣ أكتوبر رصدت من نقطة الملاحظة تمركزا لقوات مدرعة إسرائيلية في منطقة الغرود في وادي الجفجافة. أهم ما لفت انتباهي هو تنظيم كتيبة الدبابات الإسرائيلية التي شاهدتها. حيث لاحظت أنها اصطفت في شكل مربع ناقصٍ ضلعًا. كل ضلع به سرية دبابات ووسط المربع قيادة (رئاسة) الكتيبة، وبالقرب منها لاحظت وجود سرية مشاة ميكانيكي (١١ من ناقلات الجند المدرعة، أو مركبات قتال المشاة infantry fighting vehicles). أيقنت عند هذه اللحظة أن الإسرائيليين أجروا تعديلًا على تنظيم تشكيلاتهم المدرعة؛ ذلك أنني كنت أعرف أن كتيبة الدبابات الإسرائيلية تتكون من أربع سرايا، وتتكون كل سرية من ١١ دبابة، بالإضافة إلى رئاسة الكتيبة المؤلفة من ثلاث دبابات؛ وبالتالي يبلغ عدد دبابات الكتيبة ٣٦ دبابة وهذا ما كنا نعتقده قبل بدء العمليات، لكن هذه القوة النيرانية الهائلة لكتيبة الدبابات الإسرائيلية تم دعمها بسرية مشاة، ليصبح إجمالي الدبابات وناقلات الجند المدرعة أو مركبات قتال المشاة ٤٧ دبابة ومركبة.

جال بخاطري فور رؤيتي لهذه التغيرات في تشكيلات العدو المدرعة هذا التساؤل: هل هذا تعديل في صلب التنظيم، أم أن القوات الإسرائيلية أنشأت عناصر من الدبابات والمشاة لمهام خاصة؟ لم يكن موقعي أو المعلومات التي بحوزتي تتيح لي فرصة الإجابة عن هذا التساؤل؛ فمهمتي تقتصر على إرسال ما أشاهده إلى القيادة بكل دقة وأمانة دون تهوين أو تهويل، وهناك سيعكف المحللون على تفسير هذا التغير اعتمادًا على مشاهداتي ومشاهدات غيري في المواقع المختلفة. ولفت نظر القادة الميدانيين لحساب القوة الإضافية للتشكيلات المدرعة الإسرائيلية.

بصفتي في الأصل ضابط مدرعات لاحظت أن الموضوع التدريبي لهذه القوات هو «طابور السواقة» في مناطق غرود رملية، حيث تم تحديد خط سير التدريب بالبيارق، والجنود خارج الدبابات والسائقين يتحركون لتنفيذ التدريب بالدور. كان هذا الطابور مؤشرا على نية الإسرائيليين الاندفاع غربا من محاور غير تقليدية يصطدمون فيها بمناطق الغرود المنتشرة غرب الحائط الجبلي لسيناء، وتم ذلك بالفعل عندما قرروا العبور المضاد إلى غرب القناة ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر عند منطقة الدفرسوار في منطقة البحيرات المرة.

خلال هذه الفترة كان استخدام مطار المليز مكثفًا سواء في الصعود أو الهبوط. كنت أراقب صعود الطائرات، فإن صعدت ٥ طائرات مثلًا، كنت أقوم بعدها عند العودة، فإذا هبطت منها ثلاث فقط، فمعنى ذلك أن هناك طائرتين قد تمكنت قواتنا من إسقاطها. كنت أبلغ القيادة بذلك، التي لها بالضرورة وسائل مختلفة غيري في رصد خسائر العدو من الطائرات. لكنني كنت دائم الاستماع لهيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، التي كانت أكثر الإذاعات متابعة لمجرى الحوادث على جبهات القتال. وكم كنت أشعر بالفخر عندما تذيع بيانا للجيش المصري يؤكد فيه إسقاط عدد معين من الطائرات كما قمت بإبلاغها. كانت مثل تلك الأمور ترفع معنوياتنا بشدة، وتشعرنا بأهمية المهمة الجليلة التي نقوم بتنفيذها.

تطوير الهجوم المصري

يقول الفريق الشاذلي في مذكراته عن تطوير الهجوم: «بعد عودتي من الجبهة يوم الخميس ١١ من أكتوبر فاتحني الوزير (الفريق أول أحمد إسماعيل) في موضوع تطوير هجومنا نحو المضايق. ولكني عارضت الفكرة وقلت: ما زالت القوات الجوية الإسرائيلية قوية وتشكل تهديدًا خطيرًا لأي قوات برية تتحرك في العراء دون غطاء جوي، (...) وبدا لي وكأنه اقتنع بهذا وأغلق الموضوع، ولكنه عاد وفاتحني في الموضوع مرة أخرى في صباح اليوم التالي مدعيًا هذه المرة أن الهدف من هجومنا هو تخفيف الضغط على الجبهة السورية.

عارضت الفكرة مرة أخرى على أساس أن هجومنا لن ينجح ولن يخفف الضغط على الجبهة السورية، وأضفت قائلًا: إن لدى العدو ٨ ألوية مدرعة أمامنا، ولن يحتاج إلى سحب قوات إضافية من الجبهة السورية حيث إن هذه القوات قادرة على صد أي هجوم نقوم به. ليس لدينا دفاع جوي متحرك إلا أعداد قليلة جدًا من

(سام ٦) لا تكفي لحماية قواتنا. وقواتنا الجوية ضعيفة ولا تستطيع تحدي القوات الجوية الإسرائيلية في معارك جوية، وبالتالي فإن قواتنا البرية ستقع فريسة للقوات الجوية الإسرائيلية بمجرد خروجها من تحت مظلة الدفاع الجوي، أي بعد حوالي ١٥ كيلومترا شرق القناة.

إذا نحن قمنا بهذه العملية فإننا سوف ندمر قواتنا دون أن نقدم أي مساعدة لتخفيف الضغط على الجبهة السورية». وحوالي الظهر تطرق الوزير لهذا الموضوع للمرة الثالثة خلال ٢٤ ساعة. وقال هذه المرة: «القرار السياسي يحتم علينا ضرورة تطوير الهجوم نحو المضايق، ويجب أن يبدأ ذلك صباح غد ١٣ من أكتوبر!!». وحوالي الساعة ١٣٣٠ كانت التعليمات الخاصة بتطوير الهجوم قد تم إعدادها وتحرك اللواء محمد غنيم نائب رئيس هيئة العمليات إلى الجيش الثاني، واللواء طه المجدوب إلى الجيش الثالث حاملين معهم تلك الأوامر إلى قائدي الجيشين.

وحوالي الساعة ١٥٣٠ كان اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني يطلبني على الهاتف وقد قال: «أنا لا أستطيع أن أقوم بتنفيذ التعليمات التي أرسلتموها مع اللواء غنيم»، ولم تمضِ بضع دقائق حتى كان اللواء عبد المنعم واصل هو الآخر على الخط الهاتفي وأبدى معارضة شديدة لتلك التعليمات التي وصلته مع اللواء طه المجدوب.

فاتحت الوزير مرة أخرى في الموضوع وتقرر استدعاء سعد مأمون وعبد المنعم واصل لحضور مؤتمر بالقيادة في الساعة ١٨٠٠ (٦ مساء) من اليوم نفسه، وفي خلال هذا المؤتمر الذي امتد حتى الساعة ٢٣٠٠ كرر كل منا وجهة نظره مرارًا وتكرارًا، ولكن كان هناك إصرار من الوزير على أن القرار سياسي ويجب أن نلتزم به، وكل ما أمكن عمله هو تأجيل الهجوم إلى فجر يوم ١٤ بدلًا من فجر يوم ١٣ كما كان محددًا.

لقد كان هذا القرار هو أول غلطة كبيرة ترتكبها القيادة المصرية خلال الحرب، وقد جرتنا هذه الغلطة إلى سلسلة أخرى من الأخطاء التي كان لها أثر كبير على سير الحرب ونتائجها، ولكي نطور هجومنا للشرق مع المحافظة على رءوس الكباري قوية ومؤمنة كان لابد لنا من أن ندفع الأنساق الثانية إلى المعركة[1].

«كانت خطتنا في الهجوم تشمل، استخدام ٤ ألوية مدرعة، ولواءي مشاة ميكانيكي، في أربعة اتجاهات مختلفة طبقًا لما يلي:

لواء مدرع في اتجاه ممر متلا (القطاع الجنوبي).

لواء مشاة ميكانيكي في اتجاه ممر الجدي (القطاع الجنوبي).

---

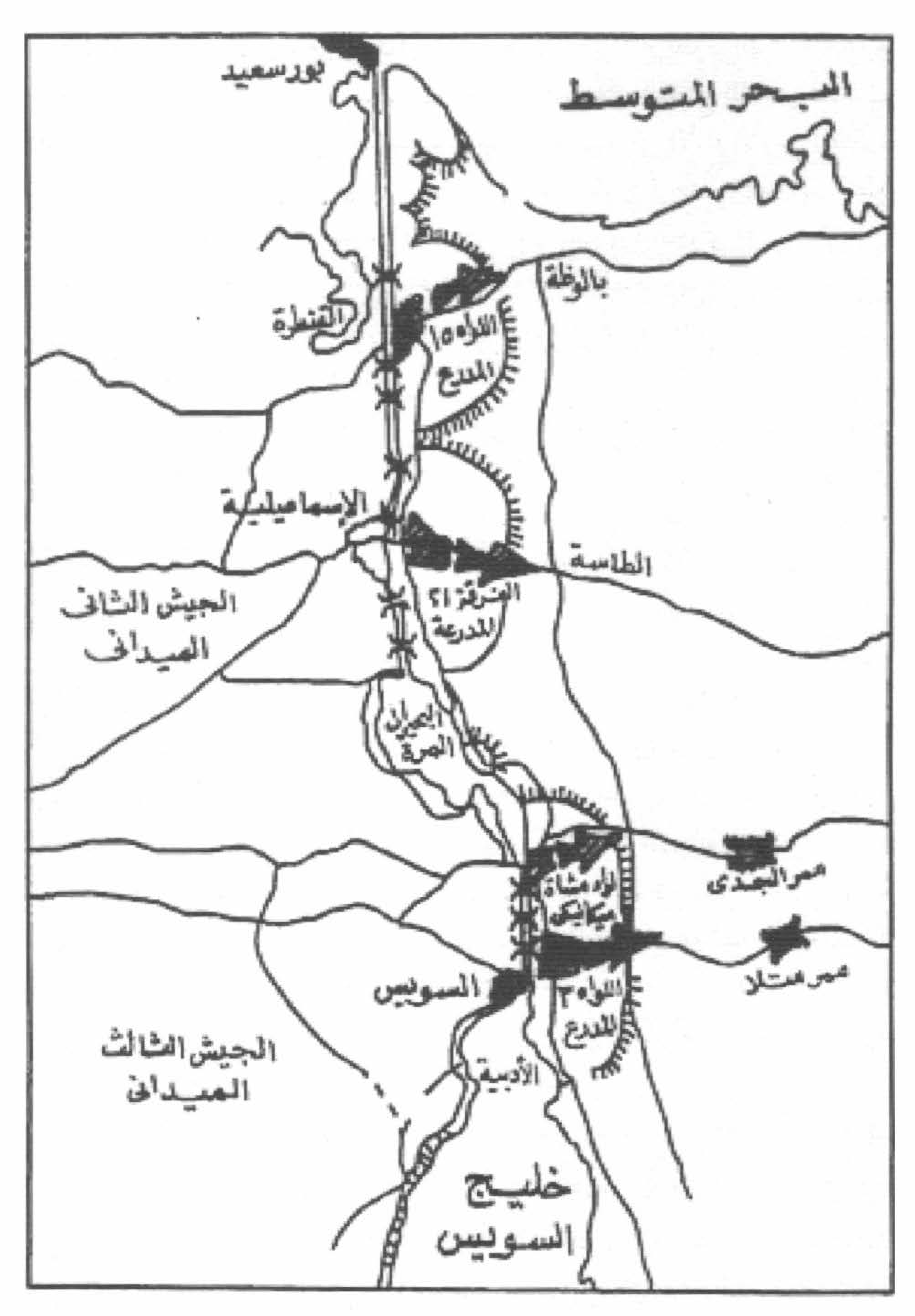
(١) سعد الشاذلي، مذكرات حرب أكتوبر، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٦٠ : ٢٦٣ (بتصرف يسير جدًا).

فرقة مدرعة في اتجاه الطاسة (القطاع الأوسط).
لواء مدرع في اتجاه بالوظة (القطاع الشمالي).
تحليل عملية تطوير الهجوم

الفريق أول كمال حسن علي، هو واحد من أهم ضباط المدرعات في تاريخ المدرعات المصرية؛ حيث كان قائدًا لسلاح المدرعات خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ برتبة لواء، ووجدنا أنه من الأهمية بمكان عرض شهادته بشأن تطوير الهجوم نحو المضايق، لعدة اعتبارات أهمها أن القوات التي قامت بأعمال التطوير في صباح ١٤ أكتوبر كانت في معظمها قوات مدرعة، وبالتالي يستطيع تقييم قرار التطوير من زوايا ربما أكثر تفصيلًا من غيره لجهة آلية عمل سلاح المدرعات. فضلا عن أنه يوضح التأثير الحاسم للأسلحة الأمريكية الجديدة التي تم تزويد إسرائيل بها وخاصة صاروخ «TOW» المضاد للدروع.. فماذا قال هذا القائد الكبير حول تطوير الهجوم؟ هذا ما سنعرفه خلال السطور التالية:

«لقد كانت الخطة الإسرائيلية في ذلك الوقت (يوم ١٢ أكتوبر) ترمي إلى محاولة اختراق رءوس الكباري والعبور إلى الضفة الغربية بهدف الوصول إلى مؤخرة الجيشين (الثاني والثالث) لزعزعة استقرارها، واستعادة المبادأة التي فقدتها إسرائيل منذ السادس من أكتوبر، لقد أصبح من الواضح أن إسرائيل قد أرجأت القيام بتنفيذ هذه الخطة حتى تنتهي من الموقف على الجبهة السورية، وحتى تعوض كل ما فقدته من الطائرات والمدرعات التي منيت بخسائر شديدة فيها في محاولات الهجوم السابقة، وكذلك حتى تنتهي من صد الهجمات المدرعة المتوقعة وتمنعها من الوصول شرقًا إلى المضايق.

وكانت إسرائيل تدرك أن أي عمليات سوف تقوم بها غرب القناة سوف تصطدم بالقوات المصرية المدرعة الموجودة غرب القناة، والتي قدروها في ذلك الوقت بأكثر من ٨٠٠ دبابة، ولذلك كان من الضروري أن تتربص القوات الإسرائيلية بقواتنا حتى تعبر الوحدات المدرعة من غرب إلى شرق القناة لتنفيذ قرار تطوير الهجوم شرقًا. وبالفعل أفادت تقارير استطلاعهم يوم ١٢ أكتوبر عن بدء عبور المدرعات المصرية من الفرقة ٢١ المدرعة في قطاع الجيش الثاني، والفرقة الرابعة المدرعة في قطاع الجيش الثالث إلى شرق القناة؛ مما أكد لهم أن قرار التطوير قد اتخذ.



خريطة توضح محاور تطوير الهجوم المصري

لا أريد أن أدخل في زحام الجدل الذي دار حول تأخير قرار تطوير الهجوم، وعدم جدوى الوقفة التعبوية، التي لا شك أنها أضاعت استغلال النجاح الفوري للتغلب على القوات الإسرائيلية، التي أصيبت بالارتباك والانهيار في الأيام الأولى للقتال، فمما لا شك فيه أن القرار (تطوير الهجوم يوم ١٤ أكتوبر) جاء من وجهة النظر التكتيكية متأخرا للغاية، ولم يستغل فرصة انشغال المجهود الجوي الإسرائيلي في العمل على جبهة الجولان، وهكذا ضاعت فرصة تطوير الهجوم يوم ٩ أكتوبر، وحتى عندما تقرر الهجوم يوم ١٢ أكتوبر ظهرت عدة عوامل أبرزها قائدا الجيشين الثاني والثالث، فجعلت الهجوم يتأجل ليوم ١٤ أكتوبر.

في رأيي أن القرار جانبه التوفيق ليس في التوقيت فحسب وإنما في استخدام الاحتياطيات المدرعة في القيام بهذا الهجوم الجديد (وهو ما يطلق عليه تطوير الهجوم شرقًا). فالمعروف من المبادئ الأولية لاستخدام المدرعات أن الدبابات ليست أنسب الأسلحة لمهاجمة النقط المحصنة إذ إنها بهذه الطريقة سوف تفقد أهم خاصية في استخدام المدرعات، وأقصد بها استغلال خفة حركتها وقدرتها على الاندفاع والاختراق للوصول إلى عمق دفاعات العدو لإرباكه بعمليات التطويق والالتفاف حول مؤخرة خطوطه الدفاعية؛ ولذلك يجب دفع الدبابات لمهاجمة المناطق الضعيفة وليست المناطق المحصنة حتى لا تتعرض لنيران كثيفة تكبدها خسائر فادحة.

وبالمصادفة كان قائدا الجيشين الثاني والثالث من ضباط المدرعات ففطنا إلى هذه النقطة، ونبها قيادتهما إليها، ولكن كان من الواضح أن قرار الهجوم قد تقرر سياسيًّا للتخفيف عن الجبهة السورية، وبدلًا من أن يتم تطوير الهجوم بكل وحدات فرق المشاة الرئيسية كالخطة الأصلية، اكتُفِيَ بدفع الاحتياطات المدرعة (من غرب القناة) نحو الشرق؛ الأمر الذي يؤدي إلى كشف المنطقة خلف الجيوش الميدانية في غرب القناة، مما يعرض هذه الجيوش لاختراق المدرعات الإسرائيلية للغرب وتهديد مؤخرة هذه الجيوش، وهذا ما حدث بالفعل بعد تطوير الهجوم شرقا في ١٤ أكتوبر وتوقفه.

ولما كان الهجوم المصري يعتمد أساسًا على القوات المدرعة فكان المتوقع أن يشهد هذا الهجوم أكبر معركة دبابات في التاريخ، قد تفوق حجمها كل معارك الحرب العالمية الثانية. ولكن الذي حدث أن المعركة بدلا من أن تدور بين الدبابة والدبابة فإنها دارت بين الدبابة والصاروخ، فلقد سبق تجهيز المواقع الإسرائيلية بدفاع قوي مضاد للدبابات لا يحتوي على صواريخ (أس أس ١٠) و(أس أس ١١) فحسب بل

احتوى أيضًا على الصاروخ (تاو) TOW الأمريكي الجديد، الذي تزودت به الفرق في اليوم السابق فقط للمعركة.

ولقد كان تطوير الهجوم محكوما عليه بالفشل منذ البداية نتيجة لأكثر من اعتبار كان أولها تجاهل القاعدة الرئيسية في استخدام المدرعات، والتي تقضي بتركيز الدبابات في اتجاه المناطق الضعيفة من دفاعات العدو. أما الاعتبار الثاني فهو دفع بعض اللواءات المدرعة دون اصطحابها لوحدات الدعم الخاصة بها، نظرًا لضيق الوقت وعدم وصول هذه الوحدات في الوقت المناسب لإجراء التنسيق وتنظيم التعاون للمعركة نظرًا لأنها كانت موزعة على فرق المشاة الخمس في رءوس الكباري لدعمها، بالإضافة إلى حرمان اللواءات والكتائب من توافر الزمن اللازم لإجراء استطلاع للعدو أمامهم.

والحقيقة أن أوضاع العدو المتغيرة منذ بداية القتال في يوم ٦ أكتوبر كانت غير واضحة حتى على مستوى المخابرات الحربية والاستطلاع، وبذلك تحرك قادة الكتائب لمهاجمة عدو لا يعرفون شيئًا عن أوضاعه أو مواقعه، علاوة على أن بعض هذه اللواءات كانت ملحقة لدعم رءوس الكباري، وبذلك أجبرت على التخلي عن مهمتها للانتقال إلى مهمة جديدة في اتجاه جديد دون أي تحضير. أما البعض الآخر فقد عبر القناة على عجل من الغرب إلى الشرق ليدفع إلى خطوط لم يتم استطلاعها من قبل، وكان على القادة أن يبحثوا عن وحدات الدعم التي كانت قد انتزعت منهم لتقوم بمهام أخرى في رءوس الكباري، ولذا اضطروا لدفع لواءاتهم دون إجراء أي تنسيق معها.

هذا مع ملاحظة أن المعابر لم تكن تتسع لعبور القوات المتحركة من الغرب إلى الشرق؛ مما أخلَّ بتوقيتات وصولها إلى خطوط الاستعداد للدفع بها للاشتباك، أما عن المدفعيات (سواء مدفعيات الفرق أو الجيوش) التي قامت بالمعاونة فكانت تفتقر إلى المعلومات الدقيقة عن الأغراض المراد قصفها، ولذا اعتمدت على الضرب الحسابي، وهذا النوع من الضرب إذا استخدم ضد المواقع المجهزة يعتبر ضربًا عشوائيًا لا يأتي بتأثيراته المطلوبة في معاونة القوات المتقدمة، خاصة ضد مواقع الصواريخ المضادة للدبابات الموجودة في خنادق مجهزة، وفي غيبة من وحدات المشاة تعمل مع المدرعات المهاجمة، الأمر الذي يجعل الاشتباك مع مواقع هذه الصواريخ غير مؤثر بالمرة.

وفوق ذلك كله كاد دعم الطيران أن يكون مفقودًا تمامًا، وهكذا كان قرار التطوير قرارًا ارتجاليًّا؛ وبالتالي كان كل ما ترتب عليه عشوائيًّا يفتقر إلى كل سبب للنجاح. ويمكننا أن نتخيل نفسية القائد الذي كان يدفع للاشتباك بدون أي تحضير أو استطلاع مما يجعله يفقد الثقة في النجاح. ولقد بلغت خسائر الدبابات في ذلك اليوم أكثر من ٢٥٠ دبابة، واضطرت القوات المهاجمة إلى التقهقر دون أن تتمكن حتى من إخلاء قتلاها وجرحاها، أو إخلاء أي شيء يذكر من المعدات المعطوبة أو المصابة من المدرعات»[1].

ثغرة الدفرسوار

ترتب على تطوير الهجوم - الذي لم يكلل بالنجاح - أن أصبح لدينا غرب القناة لواء مدرع واحد، بعد دفع فرقة مدرعة في قطاع الجيش الثاني، وفرقة مدرعة أخرى (عدا لواء مدرع) في قطاع الجيش الثالث، للقيام بالتطوير، وهنا اختلت الموازين وأصبح الموقف مثاليًّا لكي يقوم العدو بلعبة الاختراق والتطويق، وهي لعبة مدرعاته المفضلة، وهو ما نجح العدو فيه بالفعل في ليلة ١٥-١٦ أكتوبر، فيما عرف بثغرة الدفرسوار، التي لم تحقق الهدف الإستراتيجي الإسرائيلي منها وهو إجبار قواتنا شرق القناة على التخلي عن مواقعها.

وهنا نستطيع القول بأن هناك اتفاقًا بين القادة والخبراء العسكريين المصريين على أن إسرائيل حصلت على الكنز، أو المفصل بين الجيشين الثاني والثالث المصريين من خلال طلعتين جويتين لطائرة استطلاع أمريكية من طراز (س-٧١) للجبهة المصرية، وكانت الطلعة الأولى في حوالي الساعة الواحدة والنصف يوم ١٣ من أكتوبر؛ حيث ظهرت هذه الطائرة فوق منطقة القتال ولم تكتفِ بتغطية الجبهة بالكامل بل طارت فوق الدلتا قبل أن تخرج نهائيًّا من مجالنا الجوي دون أن تصاب بأذى؛ لأنها تطير على ارتفاع ٣٠ كيلومترًا، وبسرعة (٣ ماخ)[2] أي خارج مدى صواريخنا.

---

(١) كمال حسن علي، مشاوير العمر.. أسرار وخفايا ٧٠ عامًا من عمر مصر (الحرب والمخابرات والسياسة)، دار الشروق، ط٢ - القاهرة ١٩٩٤، ص ص ٣٢٤ : ٣٢٧.

(٢) الماخ هي وحدة قياس سرعة الطائرات، حيث إن ١ ماخ يساوي ١,٢٢٥ كم/س عند مستوى سطح البحر، وتحسب السرعة بالماخ بمعادلة تقوم على قسمة سرعة الطائرة على سرعة الصوت عند مستوى ارتفاع الطائرة.

وخلال هذه الطلعة اكتشفت هذه الطائرة من خلال الصور التي التقطتها للجبهة المصرية، عبور الفرقتين المدرعتين المصريتين، اللتين كانتا تعبران لتنفيذ تطوير الهجوم نحو المضايق؛ وهو ما ساعد العدو الإسرائيلي على الاستعداد بقوة لصد القوات المهاجمة في التطوير.

وخلال يوم ١٥ أكتوبر، أي بعد يوم واحد من فشل التطوير قامت نفس الطائرة (س - ٧١) برحلة استطلاعية أخرى فوق الجبهة والمنطقة الخلفية، وبذلك تحقق للعدو خلو المنطقة غرب القناة من الدبابات تقريبًا. كان من الممكن أن تكون هذه الطلعة الاستطلاعية إنذارا للقيادة المصرية بأن العدو يمكنه أن يقوم باختراق الجبهة وهو مطمئن تماما[1]، ومن خلال الطلعتين أمكن للعدو من العثور على الكنز، أو المفصل بين الجيشين الثاني والثالث، وحدده عند منطقة الدفرسوار بالقرب من منطقة البحيرات المرة، ومساء نفس يوم الطلعة الاستطلاعية الثانية (ليلة ١٥-١٦) أكتوبر، بدأ العدو يطلق مدرعاته للقيام بلعبة الاختراق والتطويق، التي لم تحقق الهدف الإستراتيجي منها في النهاية.

وبخصوص ما رصدته «المجموعة لطفي» من موقعها في عمق القطاع الأوسط بسيناء عند منطقة وادي المليز وبير جفجافة من دفع إسرائيل لمعدات الكباري التي تريد إنشاءها على قناة السويس للعبور في اتجاه الغرب، بعد اختراق خطوطنا عند منطقة الدفرسوار، أود أن أشير إلى أنهم استخدموا هذه المعدات في إقامة ثلاثة جسور خلال هذه العملية، بيانها كالتالي:

- نجح المهندسون الإسرائيليون في إنشاء «جسر المعديات» ليلة ١٧/١٨ أكتوبر ١٩٧٣.

- أصدر الجنرال شارون أوامره في الصباح الباكر يوم ١٨ أكتوبر ١٩٧٣، إلى نائبه «العميد يعقوب إيفن» بسرعة إنشاء الجسر «سابق التجهيز» إلى جوار الجسر الأول، عند منتصف الليل. انتهى المهندسون العسكريون من إقامته على القناة، على بعد حوالي ٢٠٠ من شمال الجسر الأول.

- في يوم ١٩ أكتوبر ١٩٧٣، تمت إقامة جسر ثالث من المعديات «البونتون» شمال الجسر الثاني.

وكانت الجسور الثلاثة مقامة في ساحة عبور واحدة على مواجهة حوالي ٥٠٠م، خصصت لها جميع وسائل التأمين الأرضي، وضد الطائرات، علاوة على وجود احتياطيات من «البراطيم» ومعدات هندسية، وتتمركز حولها كتائب المهندسين

---

(١) سعد الشاذلي. مذكرات حرب أكتوبر، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٦

المختصة بتشغيل تلك المعابر، علاوة على وحدات طبية وإدارية لخدمة القوات واستقبال المصابين من الضفة الغربية للقناة. وتولى قيادة ساحة العبور يعقوب إيفن نائب قائد المجموعة ١٤٣ المدرعة.

البرنامج اليومي للمجموعة

عودة إلى مهام «المجموعة لطفي» خلف خطوط العدو، فقد كان العمل اليومي يسير بعد انتهاء شهر رمضان على النحو التالي: الاستيقاظ مع أول ضوء للنهار واستطلاع المكان بالنظر للتأكد من عدم وجود أي متغيرات. التوضؤ بأقل قدر من المياه للصلاة. تناول الإفطار وهو عبارة عن كسرة من الخبز الذي تم إعداده بالأمس مع شرب القليل من المياه. نقوم بكل هذه الإجراءات وعين المجموعة لا تغيب عن ملاحظة تحركات العدو.

نتفرغ بعد ذلك لمراقبة تحركات العدو على الطرق وكل نشاط تقوم به أنشطة القوات الإسرائيلية في المنطقة مع تسجيل ما يتم مشاهدته بالكود الخاص بالمجموعة في نموذج يدوي مقترح أيضًا، يتضمن خانة لكل نوع من المعدات والأسلحة والمركبات الإسرائيلية التي تتحرك على الطرق واتجاهاتها وتوقيتات تحركها، ويتم ذلك بالتناوب بيني وزميلي فرد اللاسلكي، ونتناوب أيضًا على تشغيل المولد اليدوي الخاص بشحن بطارية الجهاز اللاسلكي وتعويض الفاقد الذي تم استخدامه في الاتصال بالقاعدة.

فى نهاية اليوم يتم إعداد برقية مجمعة بكل الأنشطة التي تم رصدها على مدار اليوم مع التركيز على الموضوعات غير العادية مثل: تحرك عدد كبير من الدبابات سواء في اتجاه جبهة القتال غربًا أو في اتجاه الشرق. عند الغروب يتم تحقيق الاتصال اللاسلكي مع القاعدة وإرسال البرقية واستقبال أي تعليمات جديدة أو احتياجات بعينها تطلب القاعدة منا توفيرها أو التحقق منها.

عند الغروب نتحرك في اتجاه الوادي في الوقت الذي نشاهد فيه القدوم الحذر من الشيخ حسب الله إلى مكان التلاقي. ثم تتم عملية إعداد الوجبة الرئيسية كالمعتاد وبعدها الشاي، ولكسر الجمود وإنعاش وبث الروح في المجموعة كنت أختار موضوعات بعيدة عن العمل للحديث فيها مع الشيخ حسب الله. أتذكر أنني تحدثت عن حادثة رياضية مشهورة كانت في مباراة كرة القدم بين الأهلي والزمالك وهي

حادثة إلقاء طوبة على حارس مرمى الأهلي مروان كنفاني[1]، وأذكر أن مروان هذا فلسطيني الجنسية ويلعب في النادي الأهلي.

وأحيانًا أخرى نتحدث عن العادات البدوية ومنها طريقة الجلوس، وهي التي يجلس بمقتضاها الشخص متكئا على جانبه. كان الشيخ حسب الله - رغم صلابته وحذره الشديد وطبيعة الحياة التي كان يعيشها خلال سنوات الاحتلال الإسرائيلي لسيناء - رجلًا بشوشًا وصاحب نكتة، وأذكر عندما تحدثت عن طريقة جلوس البدو كان يعلق بقوله: «نحن البدو اشترينا هذه بقاعود، أي بجمل صغير».

ومرة أخرى من المرات النادرة التي كان يجلس الشيخ حسب الله معنا خلال النهار وتصادف مرور قول كبير من الدبابات الإسرائيلية، قمت بإحصائه وعده بدقة شديدة - كما تقتضي طبيعة عملنا - ورصد اتجاه تحركه، فوجدته يقول مازحًا: «هو أنت هتحسدهم يا رجل!».

---

(١) في مباراة القمة بين الأهلي والزمالك في الدوري العام لكرة القدم موسم ١٩٧٢، احتسب محمد دياب العطار حكم اللقاء الشهير بـ«الديبة»، ضربة جزاء على حارس مرمى الأهلي الفلسطيني مروان كنفاني؛ مما أدى إلى اعتراض اللاعب، وسجل من هذه الضربة لاعب الزمالك فاروق جعفر؛ فاقتحم جمهور الأهلي الملعب وألغيت المسابقة هذا الموسم.

الفصل الحادي عشر

المجموعة تفقد الاتصال بالقيادة

تمضي الأيام وقواتنا تقاتل بجسارة في مواقعها شرق القناة وغربها بعد اختراق العدو لخطوطنا عند منطقة الدفرسوار، اعتبارًا من ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر، وخلال القتال الضاري وثبات قواتنا في مواقعها وتكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة في الأرواح والمعدات أصدر مجلس الأمن في ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ قراره رقم ٣٣٨، الذي يدعو إلى وقف إطلاق النار على كافة جبهات القتال، وتنفيذ القرار ٢٤٢ بجميع أجزائه، ونص قرار ٣٣٨ على أن مجلس الأمن:

١ - يدعو جميع الأطراف المشتركة في القتال الدائر حاليًا إلى وقف إطلاق النار بصورة كاملة وإنهاء جميع الأعمال العسكرية فورًا، في مدة لا تتجاوز ١٢ ساعة من لحظة اتخاذ هذا القرار وفي المواقع التي تحتلها الآن.

٢ - يدعو جميع الأطراف المعنية إلى البدء فورًا بعد وقف إطلاق النار بتنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢ (١٩٦٧) بجميع أجزائه.

٣- يقرر أن تبدأ فور وقف إطلاق النار وخلاله مفاوضات بين الأطراف المعنية تحت الإشراف الملائم بهدف إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط.

تبنى المجلس هذا القرار في جلسته رقم ١٧٤٧ بـ ١٤ صوتًا مقابل لا شيء وامتناع الصين عن التصويت[١].

يقول المشير محمد عبد الغني الجمسي، رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة خلال حرب أكتوبر بشأن هذا القرار: «عندما صدر قرار مجلس الأمن ٣٣٨ بإيقاف القتال اعتبارًا من غروب شمس يوم ٢٢ أكتوبر، كانت إسرائيل - برغم موافقتها على تنفيذه - تضمر نواياها بعدم احترامه.

لقد كانت إسرائيل تعلم أن موقف قواتها في غرب القناة - في منطقة الدفرسوار - يضعها في موقف عسكري ضعيف إذا استؤنف القتال مرة أخرى. فضلًا عن ذلك

---

(١) مع القرار: أستراليا، النمسا، فرنسا، غينيا، الهند، إندونيسيا، كينيا، بنما، بيرو، السودان، الاتحاد السوفيتي، المملكة المتحدة، الولايات المتحدة الأمريكية، يوغسلافيا.

فإنها لم تحقق هدفًا عسكريًا إستراتيجيًا، لفشلها في إرغامنا على سحب قواتنا في شرق القناة إلى غربها. كما انها لم تتمكن من تهديد أو قطع خطوط مواصلات الجيشين (الثاني والثالث أو أحدهما) مع قواعد إمدادها. وفي نفس الوقت فشلت في محاولتها الوصول إلى مدينة الإسماعيلية.

لذلك قررت إسرائيل أن تبذل جهدا كبيرا لتحقيق قدر من المكاسب السياسية أو العسكرية قبل أن تلتزم بوقف إطلاق النار. وفي سبيل ذلك، دفعت بقوات جديدة إلى غرب القناة ليلة ٢٢/ ٢٣ وليلة ٢٣/ ٢٤ أكتوبر لتعزيز قواتها في منطقة الدفرسوار. ثم استمرت في القتال وتقدمت قواتها جنوبا للوصول إلى مؤخرة الجيش الثالث لقطع طريق مصر السويس الصحراوي والاستيلاء على مدينة السويس»[١].

وفي يوم ٢٣ أكتوبر أصدر مجلس الأمن القرار رقم ٣٣٩ تعزيزًا للقرار السابق، ووافقت كل من مصر وإسرائيل على وقف إطلاق النار صباح يوم ٢٤ أكتوبر. ولكن إسرائيل تعاملت معه كما تعاملت مع القرار السابق عليه، وفي هذا يقول المشير الجمسي: «وبرغم التزام إسرائيل بالقرار ٣٣٩ رسميًا، إلا أنها تركت لجيشها حرية العمل العسكرى على أمل احتلال مدينة السويس فتكون بذلك فد حققت هدفًا سياسيًا له تأثيره السياسي والعسكري والإعلامي الكبير.

حاول لواءان من فرقة أدان[٢] المدرعة اقتحام المدينة من الشمال والغرب بعد قصف بالمدفعية والطيران مدة طويلة لتحطيم الروح المعنوية للمقاتلين داخل المدينة. ودارت معركة السويس اعتبارا من يوم ٢٤ أكتوبر بمقاومة شعبية من أبناء السويس مع قوة عسكرية من الفرقة ١٩ مشاة داخل المدينة. ويصعب على المرء أن يصف القتال الذي دار بين الدبابات والعربات الإسرائيلية من جهة وشعب السويس من جهة أخرى، وهو القتال الذي دار في بعض الشوارع وداخل المباني.

وبجهود رجال السويس ورجال الشرطة والسلطة المدنية مع القوة العسكرية، أمكن هزيمة قوات العدو التي تمكنت من دخول المدينة، وكبدتها الكثير من الخسائر

(١) محمد عبد الغني الجمسي، مرجع سبق ذكره، ص ص ٤٢٦: ٤٢٧

(٢) إبراهام أدان أو أفراهام أدان (أكتوبر ١٩٢٦ - ٢٨ سبتمبر ٢٠١٢)؛ هو جنرال إسرائيلي سابق خدم ما بين ١٩٤٧ و١٩٧٣. شارك في حرب فلسطين ١٩٤٨ و حرب ١٩٦٧ و حرب أكتوبر ١٩٧٣. كان يدافع عن الجزء الشمالي من الدفاع الإسرائيلي على طول قناة السويس عندما اندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣. كما كان قائدا للفرقة ١٦٢ الإسرائيلية التي عانت خسائر فادحة خلال الفترة من ٦ إلى ٨ أكتوبر في تكرار محاولات وقف الهجوم المصري ودفعها إلى الخلف عبر قناة السويس.

بين قتلى وجرحى. وظلت الدبابات الإسرائيلية المدمرة في الطريق الرئيسي المؤدي إلى داخل المدينة شاهدًا على فشل القوات الإسرائيلية في اقتحام المدينة والاستيلاء عليها. واضطرت القوات الإسرائيلية إلى الانسحاب من المدينة وتمركزت خارجها.

لم تكن معركة السويس هي معركة شعب المدينة، بل كانت معركة الشعب المصري بأجمعه. ومن ثم أصبح يوم ٢٤ أكتوبر عيدًا وطنيًا تحتفل به مدينة السويس والدولة كل عام، ورمزا لبطولة أبناء السويس، ومثلا يحتذى لقدرة الإنسان المصري على البذل والتضحية.

واستمرت إسرائيل في عدم احترام قرار مجلس الأمن ٣٣٩، بأن تقدمت قواتها جنوبا إلى ميناء الأدبية جنوب السويس واستولت عليه.

وأصدر مجلس الأمن قراره رقم ٣٤٠ مساء يوم ٢٥ أكتوبر على أساس مشروع تقدمت به الدول غير المنحازة، والذي قضى بإنشاء قوات طوارئ دولية لمراقبة تنفيذ إيقاف القتال، وتأكيد قراره بعودة القوات إلى خطوط وقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر.

وكانت إسرائيل قد تمكنت من قطع طريق مصر- السويس الصحراوي، الذي أصبح الورقة التي تستغلها أمريكا سياسيًا عندما ظهر الدكتور هنري كيسنجر[١] على المسرح السياسي في المنطقة بعد الحرب مباشرة.

---

(١) ولد كيسنجر عام ١٩٢٣ في ألمانيا لأسرة يهودية هاجرت في عام ١٩٣٨ إلى الولايات المتحدة. حيث خدم كيسنجر خلال فترة الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) في الجيش الأمريكي، ونال عام ١٩٤٣ الجنسية الأمريكية. حصل هنري كيسنجر على منحة دراسية في جامعة هارفرد عام ١٩٤٦، ودرس العلاقات الدولية، وحصل على الدكتوراه في العلوم السياسية.

شغل كيسنجر منصب مستشار الرئيس لشئون الأمن القومي في الفترة من ١٩٦٩ إلى ١٩٧٣، وخلا لذلك أجرى مفاوضات مع الدبلوماسيين الفيتناميين الشماليين أفضت إلى التوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار بين الجانبين؛ الأمر الذي تم بناء عليه منح كيسنجر ولي دك ثو -المفاوض الرئيسي عن الجانب الفيتنامي الشمالي- جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٧٣. وفي الفترة من ١٩٧٣إلى ١٩٧٧ شغل كيسنجر منصب وزير الخارجية لدى كل من نيكسون وفورد، ثم عينه الرئيس رونالد ريجان في عام ١٩٨٣ رئيسا للهيئة الفيدرالية التي تم تشكيلها لتطوير السياسة الأميركية تجاه أميركا الوسطى. وأخيرًا قام الرئيس جورج بوش (الابن) بتعيينه رئيسا للجنة المسئولة عن التحقيق في أسباب هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

أما على صعيد الشرق الأوسط والعلاقات العربية الأمريكية، فقد عرف كيسنجر بدوره المؤثر على صعيد الصراع العربي الإسرائيلي، من خلال جولاته المكوكية في المنطقة في أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣، في إطار سياسته المعروفة بسياسة الخطوة خطوة. وأفضت هذه الجولات، والدور المحوري الذي قام به كيسنجر، إلى التوصل إلى اتفاقيات الفصل بين القوات الإسرائيلية من جهة والسورية والمصرية من جهة أخرى.

وبجهود سياسية من أمريكا؛ وافقت مصر وإسرائيل على إجراء مباحثات لتثبيت وقف إطلاق النار وإجراء الإمداد لقوات الجيش الثالث[1].

وتقرر تعيين اللواء محمد عبد الغني الجمسي ممثلًا لمصر في مباحثات عسكرية تتم عند الكيلو ١٠١ على طريق مصر - السويس تحت إشراف الأمم المتحدة لمناقشة الاعتبارات العسكرية لتطبيق قراري مجلس الأمن ٣٣٨، ٣٣٩ وأن يسمح بمرور قول عربات يحمل إمدادات غير عسكرية إلى الجيش الثالث. واجتمع الوفدان المصري والإسرائيلي في الساعة الواحدة والنصف من صباح يوم ٢٨ أكتوبر لبدء المباحثات.

انقطاع الاتصال مع القاعدة

تمر الأيام وينتهي رمضان ويدخل العيد الصغير وأنا أتابع الموقف على جبهة القتال من خلال «الراديو الترانزستور» الذي اشتريته من العتبة. ويتم الاتفاق على وقت إطلاق النار على جبهة القتال، ولكن لم يكن ذلك يعني أبدا أن تتوقف «المجموعة لطفي» عن جمع المعلومات عن العدو وقواته ونشاطه وتحركاته للوصول إلى نواياه الحقيقية، فهذه هي مهمتنا نحن رجال الاستطلاع، المهمة المقدسة التي عاهدنا الله والوطن على تنفيذها في أي وقت وتحت مختلف الظروف السياسية - والظروف المناخية البيئية الحياتية.

لم تكن تكنولوجيا الاتصال متطورة كما الحال هذه الأيام. ولذلك لا أستطيع أن أصف حجم المعاناة والجهد اللذين كنا نتكبدهما لأجل إرسال برقية تتكون من سطرين يقول منطوقهما: «شوهد يوم ١١ أكتوبر عدد ٥٠ دبابة محملة على تلرات تتحرك في اتجاه الغرب على الطريق الأوسط عند علامة الكيلو رقم كذا».

هذه البرقية كانت تحتاج بعض الوقت لتشفيرها؛ لأننا نقوم بعملية التشفير بواسطة شفرة يدوية عشوائية، ثم بعد ذلك نقوم بشحن البطارية لفترة لا تقل عن ساعتين لتعويض الفاقد من الشحن أثناء الاتصال السابق، ثم نقوم بإعداد الجهاز وضبط الترددات وإعداد الهوائي واختيار المكان المناسب لإجراء الاتصال وكذا الوقت المناسب الذي يساعد على إخفاء المجموعة، ثم إرسال البرقية بواسطة «لغة المورس»، التي سبق وتحدثنا عنها في فصل سابق.

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٣٠.

ورغم ذلك كان العدو ينجح في تحديد مكان الاتصال بواسطة أجهزة المراقبة وتحديد الاتجاه التابع للقوات الإسرائيلية. كانت أجهزة الاتصال اللاسلكي التي كنا نستخدمها تعتمد في الإرسال على إرسال «الموجات السماوية»؛ حيث تنعكس هذه الموجات عند اصطدامها بطبقات الجو العليا إلى مكان أجهزة الاستقبال، فإذا تغير مكان الطبقة السماوية ارتفاعًا أو هبوطًا تسقط الموجات في مكان بعيد عن أجهزة الاستقبال في القاعدة؛ ولذلك هناك ترددات مناسبة لكل توقيت نهارًا أو ليلًا، وهناك ترددات تصلح للاتصال نهارا وأخرى للاتصالات الليلية.

لا جدال في أن الاتصال مع القاعدة هو شريان الحياة للمجموعة، وعندما ينقطع ذلك الاتصال معها يعني ذلك لديها أن المجموعة تم قتل أفرادها أو وقعوا في أيدي العدو.

أذكر في هذا السياق أنه في يوم من الأيام الأخيرة من شهر رمضان المبارك لم ننجح في تحقيق الاتصال بالقاعدة في الموعد المعتاد لذلك، ثم حاولنا عدة مرات خلال الليل ولم ننجح. حاولنا الاتصال في الليلة التالية ولم ننجح أيضًا.

في هذه الليلة لم يكن لديَّ ملجأ إلا الله؛ فقمت خلال الليل بقراءة سورة الإخلاص «قل هو الله أحد» لا أعلم عدد المرات الذي قرأت فيها هذه السورة، ولكن الذي أتذكره أنني قرأتها عدة ساعات خلال الليل. قرأتها تقربا إلى الله سبحانه وتعالى، وطلبت منه – جلَّ وعلا – أمنية أعرف أنها صعبة المنال وهي أن يأتي نهار اليوم التالي برياح وعواصف ترابية حتى أتمكن من استخدام الجهاز اللاسلكي وإجراء الاتصال خلال فترة النهار، على أمل أن يكون التردد مناسبًا لإجراء الاتصال نهارًا.

استمررت في القراءة والتمتمة إلى أن غفوت نائمًا، وخلال الغفوة رأيت في المنام أن الجو انقلب لعواصف ترابية، وأن الرؤية أصبحت منعدمة. عند ذلك استيقظت لأشاهد الجو صحوا والشمس في كامل سطوعها والرؤية واضحة شفافة، ففقدت الأمل في إمكانية تحقيق اتصال بالقاعدة. لكن الله سبحانه وتعالى كان يحيطنا بعنايته ورعايته؛ فلم تمر ساعة حتى انقلب الجو لعواصف ترابية واختفت الشمس وانعدمت الرؤية. وهذا هو حال الطقس في هذه المنطقة من سيناء الوسطى. بإمكانك أن ترى فصول السنة الأربعة في نهار واحد، كما يقال تندرا على تقلب الأحوال الجوية فيها.

عندما تحول الجو إلى عواصف وأتربة رددت: الله أكبر.. الل ٢أكبر. وقمت أنا والعريف فتحي عبد الهادي بفرد الهوائي وإعداد الجهاز للاتصال، وعند أول نداء جاءت الإشارة من القاعدة أنهم سمعونا وبدأنا عملية الاتصال، وإذا بقائد الكتيبة على الطرف الثاني، وعندئذ تكلمنا ليس بالكود ولا بالمورس، ولكن كلامًا مفتوحًا..

فقائد الكتيبة يريد التأكد من أنني لا أقوم بالاتصال والمجموعة واقعة تحت سيطرة العدو. كان همي الوحيد الحصول على ترددات تصلح للاتصال نهارًا وليلا، وخاصة أثناء الليل وإبلاغ المعلومات التي رصدناها. جاء شك قيادة الكتيبة في أنني أتصل تحت ضغط العدو نظرا لأنني أتصل نهارًا، وهذا على غير العادة.

رددت على القيادة بحدة، وأوضحت أن موقف «لطفي» سليم. وكان لي ما أردت.. فقد أعطتني القيادة عددا من الترددات تصلح للاستخدام على مدار الـ ٢٤ ساعة. هنا وهنا فقط عادت الحياة إلى المجموعة، وتعمق يقيني بأن الله لن يخذلنا طالما أن مهمتنا في سبيل الله والوطن. تأكدت من أن الله معنا حتى النصر وحتى استعادة الكرامة المصرية كاملة. وبفضل الله عادت المجموعة للاتصال اليومي، وإبلاغ ما يتم الحصول عليه من معلومات يوميًا إلى القاعدة.

كان ما يلفت نظري خلال مخالطتي لبدو سيناء خلال تنفيذ مهمة المجموعة في منطقة وادي المليز وبير جفجافة أنه بالرغم من عدم وجود وسائل اتصال أو تلفونات وخلافه، فإن الأخبار تتناقل فيما بينهم بسرعة البرق؛ ذلك أنهم يأخذون أقساطا من الراحة أثناء سيرهم على ظهور جمالهم، ويلتقون بعضهم بعضًا ويجلسون للتسامر، وخلال مقابلاتهم يتناقلون الأخبار التي تقع في منطقة كل منهم. فيقولون: إنت عارف إن اليهود قبضوا على مجموعة استطلاع مصرية في المكان الفلاني، أو أنهم يشكون في وجود مقاتلين مصريين في النقطة الفلانية..إلخ.

ذات يوم بعد وقف إطلاق النار جاءني الشيخ حسب الله، ووجدته يقول لي: «إن ضابط مخابرات المنطقة الشرقية في إسرائيل، المسئول عن تشغيل القبائل، قال لمن يعملون معه: «تعالوا ساعدوني في البحث عن جثة الشهيد طيار عاطف السادات، شقيق الرئيس أنور السادات، الذي استشهد أثناء إغارته على مطار المليز».

قال لي حسب الله: هل أشترك في هذه المهمة؟

على الفور قلت له: لا.. اجعل من يساعدهم من أبناء القبيلة أشخاصًا لم تلتقِ بهم في الفترة القريبة الماضية، وليسوا من المقربين منك أو يعرفون سرك.

فوافق الرجل من دون تردد.

ولعل السؤال يطرح نفسه هنا: لماذا رفضت اشتراك الشيخ حسب الله في هذه المهمة؟

أجيب بأن اعتبارات أمن المجموعة تحتم عليَّ عدم ترك دليل المجموعة يقترب من الإسرائيليين، أو يلفت نظرهم إليه بحال من الأحوال. كان تقديري أنه أثناء عملية البحث حتمًا سيدور كلام بينه وبين ضابط المخابرات الإسرائيلي مسئول تشغيل القبائل، بجانب أن قصاصي الأثر الإسرائيليين يتحدثون العربية، فمعظمهم دروز أو بدو؛ وتاليًا سيصبح من الممكن تجنيده أو الشك فيه واستجوابه، وعندها تتعرض المجموعة للوقوع في الأسر.. هذا كان تقديري للموقف وقتها. وأراه بعد مضي كل هذه السنوات تقديرًا صائبًا، رغم ثقتي الكبيرة بالشيخ حسب الله.

الفصل الثاني عشر

إسرائيل تبحث عن المجموعة

ذات ليلة حضر إلينا ليلًا - ونحن في فترة إعداد الوجبة الرئيسية - أحد أقارب الشيخ حسب الله ومعه عدد من جراكن المياه وبعض السكر والشاي. كنت قد أعطيت الشيخ حسب الله جزءًا من المبلغ الذي لديَّ (٩٠ جنيهًا) ليقوم بإعطائه إلى قريبه الذي يشتري لنا الشاي والسكر لشراء السلع البسيطة التي نستخدمها في معاشنا. وعندما طالت فترة المأمورية والسجائر مرتفعة الثمن، والمبلغ الذي لدينا محدود ويتناقص يومًا بعد آخر قلت لقريب الشيخ حسب الله - كان اسمه الشيخ عبد الكريم، على ما أذكر - هاتِ لنا كيس دخان ودفاتر من ورق البفرة (أوتومان) حتى يتم إشغال العريف فتحي عبد الهادي في لف السيجارة، بدلًا من حرقها مرة واحدة.

فكرة شراء كيس التبغ وورق البفرة لم يكن الهدف من ورائها فقط توفير النفقات لما هو أهم (الطعام والشراب)، ولكنني قصدت منها عدم إثارة البدوي الذي يقوم ببيع السجائر لمندوب الشيخ حسب الله في حالة شرائه سجائر إسرائيلية جاهزة اللف ذات الثمن المرتفع؛ وهو ما قد يؤدي إلى شكه في تواجد غرباء في المنطقة (فالشك جزء من طبيعة البدوي بصفة عامة)، خاصة إذا علمنا أن الأغلبية العظمى من المدخنين البدو يستخدمون أكياس التبغ وورق البفرة.

كما أردت من خلال ذلك أيضًا أن أشغل تفكير زميلي فرد الإشارة في «لف السجائر»؛ لأنه مع طول الفترة التي قضيناها في هذا الموقع بدأ القلق والملل يتسربان إليه، خاصة أنه كان قد قرأ الفاتحة على إحدى قريباته قبل أن يتم استدعاؤه قبيل الحرب مباشرة. وبعد اندلاع القتال جاء معي لتنفيذ هذه المهمة. كنت ألاحظ معاناته، ولكنني كنت أمارس مهامي في التخفيف عنه وطمأنته ورفع معنوياته، بأن أؤكد له أن الأيام ستمر، وسيأتي النصر الكامل لمصر ونعود بعدها إلى القاعدة في زهو، وبعدها سيعود إلى قريته بطلًا بإذن الله.

أعود إلى الشيخ عبد الكريم، الذي قال لنا في تلك الليلة: إن ضابط المخابرات الإسرائيلي المسئول عن شئون القبائل جمعهم، وقال لهم إن هناك عددًا من المجموعات المصرية تعمل في هذه المناطق من سيناء، وإنهم من خلال الرصد اللاسلكي متأكدين من ذلك، وطلب منهم التعاون في الإبلاغ عن هذه المجموعات، مع تقديم وعود مغرية منها منح كل فرد يبلغ عن مجموعة سيارة مرسيدس.

وقال عبد الكريم مداعبا الشيخ حسب الله: اعمل الشاي مظبوط لحسن آخذ فيك مرسيدس. وذلك على غرار ما تشاهده في الأفلام الأبيض والأسود عندما يهدد أحد الأشخاص شخصًا آخر بأن يقول له: آخذ فيك تأبيدة!

رغم أن الكلام كان بين الجد والهزل، فإنني أيقنت أن هناك شكوكًا كثيرة لدى قوات العدو بشأن تواجد المجموعة في هذه المنطقة، وذلك من خلال رصد الاتصالات اللاسلكية التي نجريها يوميًا مع القاعدة من مكان واحد طيلة نحو شهر ونصف الشهر. كانت القواعد الخاصة بالاتصالات تقضي بأن يتم الاتصال بعيدًا عن مكان تمركز المجموعة بمسافة لا تقل عن ١٥ كم، وهو الأمر الذي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن أقوم بتنفيذه نظرا لطبيعة الأرض، وحالة الإنهاك التي كانت عليها المجموعة ولاحتمالات اكتشافها خلال تحركها اليومي لمسافة ١٥كم ذهابًا وعودة.

مع مرور الأيام كنا نزيد من إجراءات أمن المجموعة، ذلك أن العدو بعد وقف إطلاق النار، وتوقف القتال على جبهات القتال تفرغ للبحث عن المجموعات المصرية التي تعمل في مؤخرته.

خلال أحد الأيام الهادئة على الجبهة في الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر ١٩٧٣، وبينما نقوم بمتابعة التحركات على الطرق شاهدت مجموعة من العربات الإسرائيلية ماركة «جيب حربي»، تتحرك في المنطقة المكشوفة في الوادي وكل عربة فيها طاقم مكون من خمسة أفراد. قلت: لعلها مقدمة لقوة ستقوم بالتدريب كالعادة. مضيت في الملاحظة، وإذا بها تتحرك بين مجموعة من الهيئات الطوبوغرافية (تباب، تلال، جبال) الأقل ارتفاعًا من الهيئة التي تتمركز في أعلاها المجموعة.

كانت كل مركبة تتحرك في أحد مخرات - أو مجاري - السيول. كان تشكيل تحركها أقرب إلى طريقة المروحة؛ حيث تدخل كل منها إلى مجرى سيل، على أن تتجمع في أعلى نقطة من الهيئة التي تتحرك فيها. استغرقت هذه العملية - التي من الواضح أنها تفتيش وتمشيط - فترة ليست قصيرة نظرًا لوعورة الأرض.

هم يقتربون وأنا والعريف فتحي عبد الهادي نراقبهم. كنت على يقين بأنهم لن يقتربوا إلى المدى الذي يمكّنهم من اكتشافنا، ورغم ذلك قمنا بتجهيز أسلحتنا مع تأخير عملية الاستخدام إلى مرحلة الخطر؛ نظرًا لأن مقارنة القوات ليست في صالح المجموعة، لا من حيث العدد - فهم كثر - ولا من حيث الأسلحة المتوفرة؛ فنحن لدينا بندقية آلية وقنبلة يدوية وهم لديهم من الأسلحة والمعدات والإمكانيات الكثير، وخطوط إمدادهم قريبة بطبيعة الحال.

اقتربوا على مسافة قريبة لم تمكنهم من اكتشاف المكان الذي نخزن فيه الدقيق ومواد الإعاشة. سمعنا صوت قائدهم يأمرهم بالعودة. كنت على يقين من أنهم لن يجرءوا على النزول من المركبات، فلكي يكتشفوا مكان التخزين سيحتاج الأمر إلى نزولهم من المركبات والتحرك سيرًا على الأقدام، وهذا لا يتسق مع طبيعة الجندي الإسرائيلي، الذي لا يقامر بحياته في ضوء تقديره لإمكانية التعرض لإطلاق النار من المجموعة الموجودة في هذه المنطقة، والتي يبحثون عنها.

أخذت المركبات في العودة إلى حيث بدأت التفتيش، وتجمعت بعد ذلك في المنطقة المكشوفة في الوادي، ومنها إلى الطريق الأوسط إلى أن اختفت عن الأعين.

غادرت مجموعة البحث الإسرائيلية وأخذت معها توتر قرابة ثلاث ساعات، ولكنها تركت لدينا مزيدًا من الحذر. وأكدت ما يردده البدو، وهو ما سمعناه على لسان الشيخ عبد الكريم، من جدية القوات الإسرائيلية في البحث عن المجموعات المصرية التي يتأكدون من وجودها في هذه المنطقة الإستراتيجية، وأثبتت بما لا يدع مجالًا لشك أن كلام الرجل ليس ببعيد عن الحقيقة، بل هو الحقيقة بعينها. المهم بدأت في التفكير في كيفية التصرف مع مثل هذا الموقف، لو حدث وتكرر بذات الأسلوب أو بأسلوب آخر.

كان ذلك اليوم الذي بدأت فيه القوات الإسرائيلية في البحث عنا يومًا هادئًا من حيث التحركات على الطرق أو ممارسة الأنشطة الجوية، فلم تكن هناك أي أنشطة تدريبية لقوات العدو. أرجعت ذلك إلى أننا في الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر، حيث تم تثبيت وقف إطلاق النار بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية، وتمسك الطرفين بالاتفاق والعودة إلى مائدة المفاوضات.

هنا أيقنت أن قيادتنا السياسية قد نجحت في تحقيق هدفها من الحرب، ألا وهو كسر شوكة وعنجهية الجيش الإسرائيلي الذي يروج عن نفسه مقولة: «إنه لا يقهر».

بالرغم من تمثيلية عبوره للضفة الغربية للقناة، التي سنبين أنها لم تحقق أهدافها الإستراتيجية، في نهاية المطاف، وأن مواقع قوات العدو غرب القناة كانت مكشوفة، وفي المرمى المؤثر لسلاحنا. لكن الأمريكان أوحوا لهم بذلك العبور حتى يسهلوا عليهم أداء مهمة «الوسيط» غير النزيه بطبيعة الحال.

استعاد الجيش المصري كرامته وهو الآن في انتظار استكمال مهمته المقدسة، وهي استعادة سيناء كاملة، سواء عن طريق تنفيذ إسرائيل قرارات الأمم المتحدة والعودة إلى خطوط ما قبل ٤ يونيو ١٩٦٧، أو عن طريق مواصلة القتال. لقد أعادت القيادة السياسية المصرية الحياة لقضية أرضنا المحتلة بعد الجمود الذي أصابها، بعد أن تم وضعها في خانة «اللاسلم واللاحرب»، بتواطؤ معلوم من الدول الغربية ذات التأثير والداعمة لإسرائيل، خاصة الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا.

تمر الأيام على المجموعة وأصبحت لدينا قناعة بأننا ماكثون في هذا المكان إلى أن يتم جلاء الاحتلال الإسرائيلي عن تراب سيناء الغالي. وفى ذات صباح مشرق ونحن نمارس أعمال الاستطلاع اليومية وإعداد البرقيات لإرسالها للقاعدة، رصدنا مركبة جيب واحدة من ذات طراز تلك المركبات التي قامت بالبحث عنا خلال الأسبوع الماضي. انتظرت لكي أرى بقية مركبات المجموعة، لكنني تأكدت بعد مراقبة دقيقة أنها مركبة واحدة فقط.

باستخدام نظارة الميدان شاهدت نزول فرد واحد من هذه المركبة، كان أسود اللون، وهنا تذكرت ما قاله لي الشيخ حسب الله في مرة من المرات بأن القوات الإسرائيلية تستعين بـ«عبد أسود» في أعمال اقتفاء الأثر للوصول إلى المجموعة.

بعد فترة من السكون بدأ هذا «الرجل الأسود» في استكشاف الهيئات الجبلية المحيطة بالنظر. الطريق من الوادي إلى داخل المنطقة الجبلية التي تتمركز فيها المجموعة أصبح له طريق واحد نظرا لكثرة التردد علينا من أقارب الشيخ حسب الله، سواء لنقل الأخبار أو لإحضار المياه ومواد الإعاشة..إلخ؛ فآثار أقدامهم أصبحت دليلًا يقود إلى مكان المجموعة، وذلك في ذاته يعتبر قرينة مادية على وجودنا، بجانب أن عمليات رصد الاتصالات اللاسلكية تعتبر قرينة فنية على وجود المجموعة في هذه المنطقة.

بدأ الرجل قصاص الأثر تحركه في الصباح الباكر حتى تكون آثار الأقدام أكثر وضوحًا. ولنا أن نعرف أن علم قصاص الأثر علم واسع، يمكِّن ذلك الرجل المدرب

من أن يعرف ويميز آثار الأقدام إذا كانت لرجل عسكري أو لبدوي أو لامرأة حامل أو لشابة لم تتزوج، أو لرجل كهل أو لشاب. هذا العلم له أسراره ورجاله المدربون الذين يستعين بهم الجيش الإسرائيلي، ومعظمهم من بدو صحراء النقب الفلسطينية المحتلة.

تتبعت هذا الرجل منذ نزوله من المركبة الجيب وتحركه بالمنطقة المفتوحة في الوادي متجها إلى المنطقة الجبلية، مركزا على فحص مخرات السيول التي من المحتمل لديه أن تستخدمها أي مجموعة في هذه المنطقة في الصعود والهبوط. يظهر فترة ويختفي أخرى. كان يأخذ قسطًا من الراحة يراجع فيه الآثار على الأرض ويحدد الاتجاه الأكثر احتمالًا للتحرك.

مع كل خطوة يقترب بها هذا الرجل منا تزداد سرعة ضربات القلب. لم يكن خيار استخدام السلاح الآلي هو الأنسب، ولكن السونكي هو الوسيلة الأفضل. حيث إن المعلومات التي توفرت لدينا عن قصاصي الأثر أنهم أشخاص أذكياء ومسلحون بسلاح شخصي خفيف، قد يكون «طبنجة» ووسيلة اتصال بالطائرات، حيث يقوم بوضع جهاز الاتصال وتوجيه الطائرات (بيكون)[1] عندما يكتشف المكان الذي تتواجد فيه المجموعة ويغادر، وبعد المغادرة بوقت قليل تأتي الطائرة الهيلكوبتر لاستكمال الاستطلاع والقبض على المجموعة أو ضربها من الجو إن أمكن.

يتحرك قصاص الأثر في اتجاهنا. يقترب أكثر فأكثر، يتوجه نحو نقطة تخزين مواد الإعاشة الخاص بالمجموعة. حبسنا أنفاسنا في نقطة الملاحظة، لم يعد أمامه سوى أمتار معدودة للوصول إلى النقطة واكتشاف الدقيق والصلصة والمياه والشاي والسكر؛ وتاليا سيتيقن من وجود مجموعة في هذه المنطقة. كان قراري أنه لو تحرك أكثر في اتجاهنا فلن أتردد في قتله بالسنكي؛ لأن استخدام السلاح الآلي سيحدث صوتا قد يلفت الأنظار إلينا، ثم أستولي على جهاز التوجيه «البيكون» وأضعه في منطقة بعيدة عن النقطة التي تتمركز فيها المجموعة أو أقوم بتعطيله.

توقف الرجل عن السير بلا سبب واضح لديَّ. شاهدته من موقعي المشرف وهو يقف في حيرة ويلتفت يمينًا ويسارًا ولا أعرف سبب ذلك. جلس فترة من الوقت يترقب، وفجأة وجدناه يعود من حيث أتى.

---

(١) «البيكون» عبارة عن جهاز لاسلكي يرشد الطيارة على الموقع المراد تدميره فتقوم بقصفه.

استغرقت هذه العملية وقتًا طويلًا. كان تركيزي عليه شديدًا عندما جلس بالقرب من المكان الذي نجلس فيه كل ليلة نخبز ونشرب الشاي. زاد استغرابي أنه لم يترك أي أجهزة (بيكون) أو غيرها.

بعد التأكد من مغادرة الرجل وركوبه المركبة التي جاء بها إلى الوادي قررت - ولأول مرة - أن أنزل من نقطة الملاحظة إلى مكان التشوين قبل غروب الشمس حتى أعرف السبب الحقيقي لعدم استكماله السير، الذي لو أكمله لبضعة أمتار لانكشفت المجموعة وانتهت حياته على أيدينا.

هبطت من أعلى إلى مكان التشوين لأعرف السبب.

كانت المفاجأة الربانية أن آثار الأقدام قد انتهت عند النقطة التي توقف عندها، فلا وجود لأي آثار لنا بعدها، وكل من ينظر إلى الطريق المؤدي إلى نقطة تخزين المؤن ومواد الإعاشة سيتأكد من أنه لم تطأ قدم بشر هذه المنطقة من قبل!

جميع الآثار اختفت بفعل فاعل!

المفاجأة الأكثر إبهارًا وإعجازًا أن الفاعل هذه المرة هو مجموعة من العصافير والطيور الصغيرة أرسلها الله سبحانه وتعالى لكي تأكل الدقيق الذي يقع من الشيخ حسب الله عند قيامه بعجن وخبز الفطيرة (اللبة) كل مساء؛ ذلك أنها تأتي كل صباح لتأكل ما تبقى من الدقيق، وهي في الحقيقة تزيل آثار أقدامنا وكل ما يدل علينا! إنها إرادة الله العلي القدير.

في هذه اللحظة أيقنت أنني لن أموت في هذه المنطقة، ولن يتمكن العدو من القبض على المجموعة؛ لأننا نحظى برعاية وعناية المولى سبحانه وتعالى، نحن جنود مصر الأوفياء الذين عاهدوه وعاهدوا الوطن على تنفيذ أي مهمة في أي وقت وتحت مختلف الظروف.

شكرًا لله، لقد سخر لنا مجموعة البدو أقارب الشيخ حسب الله لإزالة آثار أقدام المجموعة وآثار هبوط الطائرة في أول يوم عمل للمجموعة في سيناء، وسخر لنا الرياح مرة أخرى لكي نتمكن من تحقيق الاتصال بالقاعدة عندما انقطع الاتصال، وهذه المرة سخر لنا الطيور لإزالة آثار أقدامنا.

بعد هذه الواقعة كنت كل ليلة أقول للشيخ حسب الله: لا تنسَ نصيب العصافير من الدقيق!

من المفارقات أنه بعد مضي نحو ١٥ عاما على هذا اليوم العصيب الذي كنا نترقب فيه قصاص الأثر الإسرائيلي، وبالتحديد في سنة ١٩٨٩ بعد أن تركت الخدمة في القوات المسلحة والتحقت للعمل بوزارة الخارجية وجاء تعييني قنصلًا عامًا لمصر في إسرائيل تلقيت أنا والسيد السفير محمد بسيوني، دعوة على الغداء في إحدى قرى جبل الكرمل المشرف على شاطئ وميناء حيفا، عند أحد أقارب ديفيد ليفي الذي كان وزير خارجية إسرائيل في ذلك الوقت وكان حاضرًا معنا في هذا الغداء، وإذا بالمضيف يقدم لنا أحد المدعوين ويقول: الرائد فلان الذي كان يعمل بالجيش الإسرائيلي خلال حرب أكتوبر، وكان مسئولًا عن وحدة قصاصي الأثر في وسط سيناء خلال هذه الحرب.

هنا نظر إليَّ السفير بسيوني وابتسم؛ لأن ذلك الرجل كانت مهمته التي خصص لها العديد من قصاصي الأثر ومنهم ذلك «العبد الأسود» - كما كان يسميه الشيخ حسب الله - هي القبض عليَّ أنا وعلى «المجموعة لطفي». لكننا لم نتحدث - السفير بسيوني وأنا - في شيء حتى لا نلفت نظر الإسرائيليين إلينا، ولكن الابتسامات المتبادلة كانت أكثر تعبيرًا عن أطول الأحاديث.

ونحن في طريق العودة إلى تل أبيب قال لي السفير بسيوني بحماس شديد: أنا على أتم استعداد لإنتاج فيلم يحكي بطولتك في حرب أكتوبر ١٩٧٣ يبدأ من هذا المشهد، مشهد لقائك بالضابط الإسرائيلي الذي كان يبحث عن مجموعتك في الحرب، ونعود بطريقة «الفلاش باك» لنحكي قصتك خلف خطوط العدو التي استمرت لنحو ٦ أشهر. السفير بسيوني كان ضابطًا بالمخابرات الحربية قبل التحاقه بوزارة الخارجية، وكان يعلم تفاصيل قصتي خلف خطوط العدو من أولها لآخرها.

إنها المفارقات.. إنها الصدف.. فهذا الضابط الدرزي كان يعمل قائدًا لوحدة قصاصي الأثر في منطقة وسط سيناء، وأنا كنت أعمل قائد مجموعة تعمل ضد العدو الإسرائيلي في ذات المنطقة. كان يبحث عني وأنا أتجنبه، إلى أن التقينا في حفل غداء بعد تحقيق السلام وانسحاب إسرائيل من كامل الأراضي المصرية المحتلة.

الفصل الثالث عشر

الخطة المصرية لتدمير الثغرة

لم يكن ليصح أن نتعرض في هذا الكتاب لثغرة اختراق العدو لخطوطنا عند موقع «الدفرسوار» من دون التعرض لما آلت إليه هذه العملية المعروفة إسرائيليًا باسم «القلب الشجاع» أو «الغزالة»؛ كي يتضح للقارئ الكريم أن هذه العملية برغم ما تكبدناه خلالها من خسائر، فإنها - في نهاية المطاف - لم تحقق الهدف الإستراتيجي منها للإسرائيليين، والمتمثل في تطويق الجيشين الثاني والثالث، وإجبار القوات المصرية على الانسحاب إلى غرب القناة، بل إن قواتنا المسلحة قد نجحت خلال التصدي لها وحصارها في تكبيد الإسرائيليين خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، وهو ما يجعلنا نفخر بما حققته قواتنا في أكتوبر ١٩٧٣ ونحن مطمئنون ومتأكدون من أن انتصارنا على العدو الإسرائيلي في هذه الحرب المجيدة حقيقة واضحة وضوح الشمس التي لا تقبل ذرة من شك، عكس محاولات بعض ذوي النوايا الخبيثة التقليل من حجم الانتصار المصري على الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، فيتم التشويش على أفكار بعض الشباب الذي لم تصله حقائق ما جرى في حرب أكتوبر من المصادر المعتبرة والموثوقة، فيقع فريسة لما يروجه أعداء الوطن.

يمكننا القول في مقدمة هذا الفصل[1] إن القوات الإسرائيلية أصبحت في مصيدة حقيقية غرب القناة بعد أن نجحت قواتنا المسلحة في استعواض خسائرها من الدبابات والرجال، وبعد أن أعادت التوازن في أوضاع القوات بين الشرق والغرب. للدرجة التي جعلت الرئيس السادات يقول في مذكراته:

«في ديسمبر سنة ١٩٧٣ كنت مستعدًا لتصفية جيب الثغرة، فقد بدأت قواتنا حرب الاستنزاف ولم يتوقف ضغطها على الثغرة لحظة واحدة مما جعلنا نكسب أرضا جديدة كل يوم تارة بالأمتار وتارة بالكيلومترات.. ولكننا كنا نكسب دائمًا.. أنا

---

(١) خالد أبو بكر، الجنرال الثائر.. سعد الشاذلي، مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ٢٠١٢، ص ص ٢٧٩: ٢٩٢.

فعلًا كنت على أتم الاستعداد لتصفية الثغرة، وخاصة أنه ليست أمامي قناة لعبورها ولا خط بارليف للقتال معي، ولكن الخطر الذي كان أمامي كان تدخل أمريكا.. ففي ١١ ديسمبر جاء كيسنجر[١] وقلت له: «أنا مش مستعد أقبل الأسلوب اللي هم ماشيين به.. وأنا حاصفي الثغرة». قال لي: «أنا قبل أن أحضر إليك عارف إنك جاهز.. أنا طلبت صورة الموقف من البنتاجون فأعطوني تقريرًا كاملًا.. حائط صواريخك يتكون من كذا بطارية.. دباباتك حول الثغرة ٨٠٠ دبابة.. مدافعك عددها كذا وتستطيع فعلًا أن تصفي الثغرة، ولكن اعلم أنك إذا فعلت هذا فسيضربك البنتاجون»[٢].

إن مصر فعلًا كان لديها القدرة على تصفية ثغرة الدفرسوار، وأعدت خطة لإبادتها، ولكن قبل أن نعرض لهذه الخطة سوف نعرض للكيفية التي استعادت بها قواتنا كفاءاتها القتالية، من خلال شهادة الفريق كمال حسن علي، قائد سلاح المدرعات في حرب أكتوبر، الذي وقع عليه العبء الأكبر في إعادة تسليح وتدريب سلاح المدرعات، للدرجة التي جعلت موشي ديان وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك يعتقد أن مصر أعدت جيشا سماه «الجيش الرابع» للهجوم على الثغرة، وكان ذلك في ٧ نوفمبر ١٩٧٣.

شهادة كمال حسن علي

يقول الفريق كمال حسن علي في شأن تجهيز القوات المسلحة لتصفية الثغرة ورأيه فيما آلت إليه في مذكراته على النحو التالي: «على المستوى الدولي كانت حدة الخلاف بين السوفييت والأمريكيين قد تصاعدت قبل الاتفاق على وقف إطلاق النار؛ مما أدى إلى رفع الولايات المتحدة لدرجة التأهب بين قواتها، وكذلك فعلت القوات السوفيتية المتمركزة في أوروبا الشرقية، ونشطت تحركات الأسطول السوفيتي في البحر الأبيض. وأصبح الموقف في بعض الأوقات على شفا الانهيار عندما ثبت أن ٧ فرق سوفيتية محمولة جوًا وقوامها ٤٢ ألف جندي قد وضعت في حالة تأهب، كما أشيع في هذه الفترة أن المخابرات الأمريكية قدمت تقارير تفيد بأن الاتحاد السوفيتي قد نقل رءوسًا نووية إلى مصر عن طريق بورسعيد يوم ٢٥ أكتوبر.

---

(١) يقصد هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأمريكية إبان حرب أكتوبر، ولعب دورًا بارزًا في معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل في كامب ديفيد عام ١٩٧٨.

(٢) أنور السادات، البحث عن الذات.. قصة حياتي، دار المكتب المصري الحديث، القاهرة. بدون تاريخ، ص ص ٣٥٥ : ٣٥٦.

ولم يكف الإسرائيليون رغم وقف إطلاق النار عن محاولات السيطرة على بعض الجيوب المصرية في المناطق التي تحتلها على الضفة الغربية خلال أيام ٢٥ ، ٢٦ أكتوبر وقامت القوات الإسرائيلية ابتداء من يوم ٢٧ أكتوبر ببناء جسر حجري عبر القناة على مسافة ٢٧ كيلومترًا جنوب الإسماعيلية، هدمته فيما بعد القوات المصرية وأقامت نصبًا تذكاريًا من الكتلة الحجرية في موقع الجسر على شكل هرم. وتمت محادثات الكيلو ١٠١ التي انتهت باتفاق مبدئي يوم ١١ نوفمبر، سمحت بعده إسرائيل بوصول الإمدادات إلى الجيش الثالث، وإلى مدينة السويس تحت إشراف الأمم المتحدة، وتم بعد ذلك توقيع اتفاق فك الاشتباك بين القوات المصرية/ الإسرائيلية يوم ٢٨ يناير عام ١٩٧٤، وفتح الطريق إلى السويس في نفس اليوم.

محاصرة الثغرة

يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ قمت بزيارة الوحدات التي كانت تحاصر القوات الإسرائيلية في منطقة الثغرة، وعلى رأسها الفرقة المدرعة (التي تعمل غرب القناة)، التي تم إمدادها بعدد كبير من الدبابات بعد إصلاحها، كما قمت بزيارة اللواء المدرع الجزائري الذي بعثت به الجزائر دعما للجبهة المصرية، وقد تمركز فوق جبل غرة جنوب الثغرة، وكان المنظر من هذا الموقع لأرض المعركة يؤكد إمكانية تدمير القوات الإسرائيلية في الثغرة بسهولة؛ حيث كان طول المنطقة التي عبرت من خلالها القوات الإسرائيلية عبر قناة السويس لا تتجاوز ٧ كيلومترات فقط، وقد قامت لجنة من الكونجرس الأمريكي بزيارة الموقع يوم ٧ نوفمبر بصحبة اللواء سعد مأمون وخرجت بانطباع يؤكد ضرورة تسوية سلمية لهذا الموقف؛ لأن القوات الإسرائيلية الموجودة داخل الثغرة أصبحت هي نفسها في حصار أوشك أن يكتمل.

وفي ٧ نوفمبر كنت في زيارة أخرى للوحدات شرق القناة، وفي طريقي للجبهة سمعت في إذاعة إسرائيل تصريحًا لموشي ديان وزير الدفاع الإسرائيلي يقول فيه إن مصر أكملت دفع الجيش الرابع الميداني حول الثغرة، ولقد سعدت بهذا القول لأنه في واقع الأمر لم يكن الجيش الرابع سوى الإمداد المستمر بالدبابات للوحدات الأمامية تعويضًا لخسائرها طوال أيام القتال وما بعدها، وكانت إدارة المدرعات قد استقبلت من يوغسلافيا دبابات لواء مدرع (٩٤ دبابة) جاهزة لركوب أطقمها، كما استقبلت دبابات لواء مدرع من ليبيا بدون أطقمه، تم تجهيزه بالأفراد ضباطٍ وجنودٍ من الاحتياطيات المدربة المشكلة لهذا الغرض، علاوة على وصول مدافع اقتحام

مدرعة من الجزائر، وبعد زيارة هواري بومدين (الرئيس الجزائري) لموسكو تم إمدادنا بنحو ٢٠٠ دبابة (ت ٦٢) خصصت لتعويض دبابات الفرقة المدرعة التي كانت تعمل في الجيش الثاني شرق القناة ودباباتها تدعم رءوس الكباري. وقد تركت هذه الفرقة ما يكفي من دباباتها من طراز (ت ٥٥) لاستكمال دبابات الفرق المشاة تعويضًا لخسائرها، وكذلك تم سحب أفراد هذه الفرقة ليلًا إلى القاهرة، وأعيد تدريبهم على الدبابات الجديدة من طراز (ت ٦٢) في أسبوع واحد، ثم دفعت هذه الدبابات بأطقمها بعد تجهيزها للقتال، سائرة على جنازيرها عند محور طريق الإسماعيلية فأثارت غبارًا يزيد طوله على ٣٠ كيلومترًا، على مدى ثلاثة أيام كاملة، وكان آخرها يوم ٧ نوفمبر؛ الأمر الذي جعل موشي ديان يعلن عن إتمام حشد الجيش الرابع حول الثغرة في ذلك اليوم.

وكان نائب رئيس الجمهورية السيد حسين الشافعي يتصل بي يوميًّا للسؤال عن أعداد الدبابات التي تدفع كل يوم إلى ميدان القتال، وذكر أنه عقَّبَ على السرعة والدقة اللتيْن كانت تتم بهما عمليات الإمداد قائمة: «إن مثل هذا العمل لا يمكن أن ينسى يوما لسلاح المدرعات».

وفي كلمة أخيرة عن الثغرة أود أن أقول إن الموقف الإسرائيلي غرب القناة أثناء محادثات الكيلو ١٠١ كان موقفًا هشًّا وقلقًا لأي قيادة قد تفكر في استمراره، فعلاوة على المنفذ الضيق الذي عبرت منه هذه القوات (٧ كيلو مترات) من الشرق للغرب، كانت أوضاع هذه القوات وخطوطها الإدارية غاية في الحرج، خاصة بعد أن أتمت القوات المصرية تعويض خسائرها، وأحاطت بهذا الجيب الإسرائيلي بشكل تهديدي لا يمكن إنقاذه. لقد أصبحت القوات المصرية من حوله لا تسمح للقوات الإسرائيلية بالتحرك أو الانتشار لتحسين أوضاعها، بل لا تسمح لها حتى بالانسحاب من مواقعها دون خسائر كبيرة.

أما الانسحاب الذي كان السادات يطالب به هذه القوات للعودة إلى موقع يوم ٢٢ أكتوبر، أي يوم صدور قرار وقف إطلاق النار، فقد أصبح حلًّا مستحيلًا بالنسبة لإسرائيل لأنه يجعلها تفقد كل المميزات التي اكتسبتها بانتهاك هذا القرار. فإذا أضفنا إلى ذلك أن أوضاع هذه القوات قد أصبحت معلومة بالتفصيل للقوات المصرية، بعد أن ظلت لفترة طويلة غير واضحة المعالم، فإن مجرد تثبيتها في أماكنها كان يكلف إسرائيل ما هو فوق طاقتها لإمداد هذه القوات والإبقاء عليها بحجمها الهائل الذي

جمعته من مختلف المهن وطلبة المدارس الذين كانت امتحاناتهم على الأبواب، وكان بعضهم يطالب الجنود المصريين على مدى السمع: (سيبونا نذاكر!!).

ولا يمكن لأحد أن يدعي أن إسرائيل عندما قبلت وقف إطلاق النار الثاني يوم ٢٥ أكتوبر، ثم الانسحاب إلى شرق الممرات كانت جانحة إلى السلم أو راغبة فيه، فالحقيقة أن إسرائيل لم تقدم على ذلك إلا تحت شبح التهديد داخل مصيدة الثغرة.

والحقيقة أن الثغرة والجيب الإسرائيلي غرب القناة لم يحققا أمل القادة الإسرائيليين في قلب نتيجة الحرب لأسباب عديدة، منها أن الخسائر الإسرائيلية المعلنة وصلت إلى ٤٠٠ قتيل و ١٢٠٠ جريح، وإن كانت حقيقة الأمر أكبر من ذلك بكثير، ومثل هذا التدمير في القوى البشرية يكون له مغزى خاص عندما يتعلق الأمر بإسرائيل التي يشكل لها هذا النزيف البشري تهديدًا خطيرًا في ظروف تعدادها القليل.

ومن هذه الأسباب أيضًا الفرصة التي أتيحت للقوات المصرية خلال فترة توقف إطلاق النار لإعادة تنظيمها وإمدادها، بحيث أصبحت تشكل حصارًا كاملًا لقوات الجيب الإسرائيلي يمنعها من الانتشار كما يمنعها أيضًا من الانسحاب أو الهجوم، خاصة بعد أن دعمت مصر دفاعها الجوي حول الثغرة، وبلغ حجم القوات المصرية لتدمير العدو في الجيب خمس فرق منها، فرقتان مدرعتان، و٣ فرق ميكانيكية، بالإضافة إلى فرقة أخرى ميكانيكية من احتياطي القيادة العامة، وبذلك أصبحت مقارنة قوات المشاة لصالحنا بنسبة ٣ إلى ١، و ٦ إلى ١ في المدفعية، وفي الدبابات كانت ٢,٥ إلى ١. ولم يكن العدو قادرًا على اتخاذ قرار منفرد بانسحاب يعرض قواته لخطر تدميرها بقواتنا أثناء إجرائها عملية الانسحاب لظروفها الصعبة والمعروفة، وعلى ذلك لم يكن أمام إسرائيل إلا أن توافق على قرار الانسحاب من المأزق، فقبلت إسرائيل بنفس أكثر من راضية الانسحاب من الثغرة، وكان ذلك إيذانا بانسحابها من أرض سيناء كلها فيما بعد[١].

خطة تدمير الثغرة

الحديث عن الخطة التي أعدتها القوات المسلحة لتصفية قوات العدو الموجودة في ثغرة الاختراق غرب قناة السويس، يبدو مقتضبا في معظم المراجع العسكرية التي تناولت حرب أكتوبر، وفي هذا الكتاب فضلنا عرض ما قاله المشير محمد عبد الغني

---

(١) كمال حسن علي، مشاوير العمر.. أسرار وخفايا ٧٠ عاما من عمر مصر، مرجع سبق ذكره، ص ص ٣٥٣: ٣٥٦.

الجمسي، الذي تولى رئاسة الأركان خلفا للفريق سعد الشاذلي اعتبارا من يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧٣، ومن خلال ما قاله الفريق سعد مأمون، الذي تولى قيادة القوات المكلفة بتصفية القوات الإسرائيلية غرب القناة، بعد أن شُفِيَ من الوعكة الصحية التي ألمت به، وترك على أثرها قيادة الجيش الثاني الميداني اعتبارًا من يوم ١٤ أكتوبر.

الكاتب الصحفي موسى صبري أورد في كتابه «وثائق حرب أكتوبر» حوارين مع المشير محمد عبد الغني الجمسي، والفريق سعد مأمون، حول خطة تصفية الثغرة ننقل نصهما في السطور التالية، فوجهة نظر الأول تعبر عن رؤية القيادة العامة لتصفية الثغرة، ووجهة نظر الثاني تعبر عن رؤية القائد الميداني المكلف بتنفيذ الخطة.

رواية المشير الجمسي حول خطة تصفية الثغرة

يقول موسى صبري في حواره: «قال لي الفريق محمد عبد الغني الجمسي (كان ما يزال برتبة فريق وقت نشر الكتاب عام ١٩٧٤) رئيس أركان حرب القوات المسلحة:

- اتخذ القائد الأعلى قرار مقاومة الثغرة الإسرائيلية عسكريًا في ١٩ أكتوبر ١٩٧٣. قلت: وأعلم أنك عينت في هذا اليوم رئيسًا للأركان[1].

قال: القرار أعلن بعد ذلك.. لقد ظل القرار سرًا حتى يوم ١٢ ديسمبر (يوم إقالة الفريق الشاذلي). قلت: ماذا كانت خطة مقاومة الثغرة؟ قال: لقد تم إيقاف النار الفعلي ظهر يوم ٢٨ أكتوبر، بعد وصول قوات الأمم المتحدة، واعتبارًا من يوم ٣١ أكتوبر بدأنا تنفيذ حرب استنزاف مخططة ضد العدو غرب وشرق القناة.

كانت أمامنا مهمة رئيسية وهي ألا نسمح للعدو أن يتمركز أو يتخندق ويثبت أقدامه في الغرب. كان هذا عملًا يوميًا للقوات المسلحة، إلى أن يبدأ الهجوم لتصفية هذا الجيب بعملية شاملة.

وقد وضعت خطة الهجوم الشامل.. نوقشت.. صدَّق عليها القائد العام.. وتقرر أن يعين لقواتنا في الغرب قيادة منفصلة تقود جميع أنواع القوات لتصفية الجيب، ونترك قواتنا في الشرق تقاتل معركتها. وقوات الجيش الثاني تقاتل معركتها.

وقد سلمت الخطة الهجومية لجميع قيادات القوات المسلحة.. الطيران والدفاع الجوي والبحرية، واختير اللواء سعد مأمون لقيادة قوات الهجوم وتنفيذ الخطة.

---

(١) الفريق الشاذلي أكد في مذكراته أنه ظل يمارس عمله كرئيس أركان حرب القوات المسلحة إلى يوم ١٢ ديسمبر ١٩٧٣، وهو اليوم الذي أخطر فيه بالإقالة.

وعرضت على السيد الرئيس القائد الأعلى أنور السادات في ٢٤ ديسمبر وصدَّق عليها.. ولم يتبقَّ إلا تحديد الموعد بقرار من سيادته.

وكانت حرب الاستنزاف مستمرة.. طبقا للتخطيط الموضوع لها، وهو ضرب قوات العدو شرق وغرب القناة، وعلى طول المواجهة بهدف إيقاع أكبر خسائر في أرواحه ومعداته، ومنعه من تحسين مواقعه.

وطبقا لبيانات الأمم المتحدة قامت قواتنا بـ ٤٣٩ عملية ضد العدو.. ٣٩ عملية في نوفمبر و٢١٣ في ديسمبر، ومن أول يناير إلى ١٧ يناير ١٣٣ عملية. وهذه هي الخسائر التي أعلنها العدو: ١١ طائرة، ٤١ دبابة ومدرعة، ١٠ رشاشات ثقيلة، ٣٦ معدة هندسية، ١٨٧ قتيلا. لم يحدث إذن أي توقف في عملياتنا.. حتى تم اتفاق فك الارتباط.. استمرت حرب استنزاف لم تترك للعدو هدوءا ليلا ونهارا.

أعود إلى خطة تصفية الثغرة.. التي صدَّق عليها الرئيس في ٢٤ ديسمبر، وهنا يذيع الفريق الجمسي هذه الأسرار:

- لقد سلمت الخطة إلى جميع قيادات القوات المسلحة في ٧ ديسمبر ١٩٧٣.
- صدرت التعليمات لكل القوات للاستعداد لتنفيذها (تخطيط، إعداد، تدريب، استكمال).
- كانت ساعة الصفر المقررة أول ضوء يوم ١٨ ديسمبر.
- ولكن ترك تحديد ساعة الصفر للقائد الأعلى لاختيار الوقت المناسب سياسيًا، وتم هذا في اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة القائد الأعلى السيد الرئيس. في ٢٤ ديسمبر أقر الرئيس الخطة، وكان أمره: «كونوا جاهزين في أي لحظة».

رواية الفريق سعد مأمون حول نفس الخطة

ويواصل موسى صبري حديثه حول خطة تصفية الثغرة بقوله: «والتقيت بعد ذلك باللواء سعد مأمون (كان برتبة اللواء وقت إجراء الحوار) الذي اختير لقيادة الهجوم.. وكشف لي بعض أسرار الخطة بإذن خاص.

لقد بدا تكليف اللواء سعد مأمون من المشير أحمد إسماعيل بقيادة الهجوم على الثغرة في الساعة الثالثة من مساء ١٢ ديسمبر.. استدعاه القائد العام وقال له: يبدو يا سعد أنك ستغادرنا إلى الميدان من جديد، كمندوب للقائد العام لقيادة القوات الرئيسية غرب القناة لتصفية الثغرة. أنت من الآن مسئول أمام وزير الحربية والقائد العام عن تدمير الجيش الإسرائيلي.. وثقتي فيك لا حدود لها.. متى يمكن أن تسافر؟

سعد مأمون: لن أنسى ما حييت هذه الثقة.. وسأحقق المهمة بإذن الله.

وسافر إلى الجبهة على الفور، وقام بجولة على الحدود الأمامية للقوات من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. وقام بتعديل الخطة على الطبيعة وفق ما رأى. صدَّق وزير الحربية على التعديل الأخير. ناقش الرئيس في ٢٤ ديسمبر كما ذكرنا. ركز الرئيس في توجيهاته على أمرين:

- أهمية التعاون المشترك للقوات البرية مع القوات الجوية والبحرية والدفاع الجوي.
- أهمية العمل السريع الحاسم للمدرعات.

ثم يستطرد اللواء سعد مأمون: كانت الخطة تعتمد على:

١ - تقدير سليم لموقف العدو.

٢- تحديد واضح لنقاط ضعفه.

٣- تحديد سليم لنقاط قوته.

إن العدو في مصيدة، وكان يجب أن أزيده إحساسًا بأنه في مصيدة، كان العدو متخذا أوضاعا دفاعية لا هجومية. كان يدافع في حالة نفسية سيئة. ويبدو قلقه في جميع تصرفاته، كما أن أوضاعه الدفاعية تدل على فزعه.. مثلا رص العدو أمامه حوالي ٧٠٠ ألف لغم. حفر خنادق مضادة للدبابات على معظم المواجهة (عرض من ٦ إلى ٧ أمتار، وعمق ٥ أمتار). كان لديه من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ دبابة. وكان شعاري أن نلقن العدو درسًا أقسى من دروس العبور وتحطيم حصون بارليف. وواقع الحال أن الجيب الإسرائيلي في الغرب كان هشًّا.. كل دبابة للعدو في الغرب كان يقابلها حوالي دبابتيْن في قواتنا، وقطعتين مضادتين للدبابات.. علاوة على نيران المدفعية والطيران، علاوة على احتياطي القيادة العامة للقوات المسلحة الموضوع تحت سيطرة المشير.

وقد قدرت الخطة الموضوعة لتصفيته كافة الاحتمالات، بطريقة لعلها أحسن من تحضيرات ٦ أكتوبر، وكان تفكيري أن النصر في هذه العملية لا يحتمل الجدل ولا التجربة، وقمنا بمشروعات حقيقية على أرض مشابهة.

وكان التقدير: بالنسبة للوضع العسكري العام تم احتواء العدو تمامًا في الغرب.. لقد حاصرنا العدو من كل جانب، وله منفذ واحد في الدفرسوار لا يزيد عرضه على ٦ كيلومترات، وكان مقررا إغلاق هذا المنفذ بالقوات في ساعات قليلة.. وهذه الشريحة كان مخصصا لها أعداد هائلة من القوات.

وسألت اللواء سعد مأمون: أرجو أن تصرح أكثر ببعض أسرار خطة الهجوم. قال: دون أن أدخل بك في نواحٍ عسكرية جافة، أو أفشي خطة سرية.. كان المقرر أن

نصفي الجيب الإسرائيلي على محاور بالتعاون مع كافة أفرع القوات المسلحة، أي أننا كنا سنهاجم من ٤ اتجاهات.. وكانوا حقًا في مأزق.

قلت: لماذا في مأزق وقد تمكنوا من توسيع رقعتهم؟

قال: هذا هو المأزق. إن قوات العدو في ٢٢ أكتوبر تمكنت من عمل رأس شاطئ (كوبري) واحد غرب الدفرسوار بمساحة ٧٠ كيلومترًا مربعًا (٧ في ١٠).. قواتنا في الشرق كانت قد عملت رءوس شواطئ في الجيوش مساحتها ٧ آلاف كيلومتر مربع، أي مائة ضعف، كان موقف العدو العسكري حرجًا للغاية. لذلك حاول أن يعوض هذا الوضع الحرج (صغر حجم رأس جسره في الغرب) إلى وضع محتمل بأن ينتشر جنوبا. ثم طور فكرته لأنه أحس أن هذا الانتشار فيه نوع من إضعاف قواته في الكثافة أمام القوات المصرية.. حاول دخول السويس. قطع خطوط المواصلات لعزل جزء من الجيش الثالث في الشرق. والهدف هو أن يساوم بهذا الوضع الجديد على موقفه الحرج في الغرب، ولكن وضعه عسكريًا هشٌ.

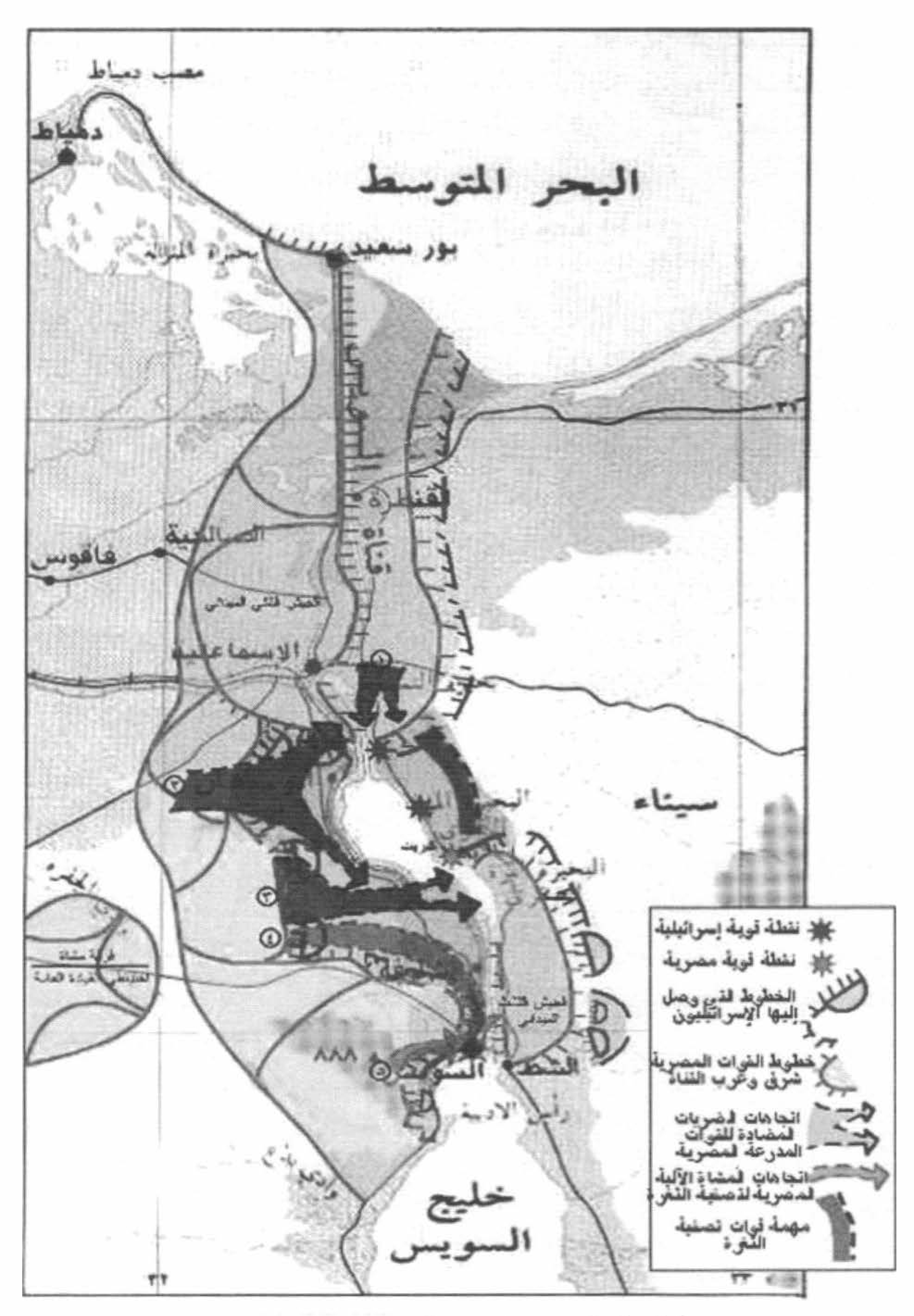
قلت: لماذا؟ قال: لا يوجد لدى العدو ما نعبر عنه بالاتزان الإستراتيجي .. قوات شبه محصورة في الغرب. عجز عن زحزحة قواتنا في الشرق بوصة واحدة على طول المواجهة من عيون موسى جنوبا إلى بور فؤاد شمالًا. وخلال حرب الاستنزاف اعتبارًا من نوفمبر ١٩٧٣ اكتسبنا نحن أرضًا جديدة غربا وشرقا. ثم إنه مجبر على التعبئة الكاملة في إسرائيل. كل لقمة.. كل جرعة ماء.. كل دانة مدفعية.. كل نقطة بنزين يجب أن تصل إليه من بعد ٣٠٠ كيلومتر في الخلف.. من مختنق عرضه ٦ كيلومترات.

كان التخطيط أن نقفل هذا الممر، ونشعله نارًا. في نفس الوقت الذي ندمر فيه قواته في الغرب، وأستطيع أن أقول إن هذا كان سيتم في (لاوقت) أي وقت قليل جدًا!

قلت: ولماذا لا وقت؟ قال اللواء سعد مأمون: نعلم من خط بارليف أن الدفاع مهما كان حصينًا، يمكن اختراقه. فما بالك بهذا الجيب؟ قواعد طيراننا قريبة جدًا.. الدفاع الجوي استطاع أن ينشئ حائطًا ثانيا للصواريخ أقوى مما كان.. العدو ثقته في نفسه وقيادته اهتزت، ولا شك أن العدو بتصويره الجوي لقواتنا في الغرب أدرك ما يمكن أن يحدث له؛ ولذلك فضَّل الانسحاب في سلام. وكان من المستحيل أن تنسحب إسرائيل لو كان لديها مجرد أمل في إمكانية البقاء[1]»

---

(١) موسى صبري، وثائق حرب أكتوبر، مرجع سبق ذكره، ص ص ٦١٣ : ٦١٨.



الخطة المصرية لتصفية الثغرة في غرب القناة

الفصل الرابع عشر

حكاية الديك المجنون!

تمر الأيام ويأتي عيد الأضحى (٣ يناير ١٩٧٤م- ١٠ من ذي الحجة ١٣٩٣هـ) وفي ليلة العيد وعند غروب الشمس ونحن جلوس لإعداد وجبة العشاء اليومية إذا بشخص غريب يقترب من المكان ويتبادل النداءات مع الشيخ حسب الله، الذي أخبرنا أن المنادي أحد أقربائه القلائل الذين يعلمون مكانه وقصة تعاونه معنا.

بعد التعارف والسلامات أخرج هذا الرجل من خرجه إناءً كبيرًا ووضعه على النار، وبعد طول انتظار تصاعدت رائحة ذكية كنا تقريبًا قد نسيناها لغيابها عن أنوفنا قرابة الأشهر الثلاثة الماضية. أخرج قريب الشيخ حسب الله من الإناء «ديكًا مطبوخًا»، وقسمه علينا نحن الأربعة. جاء ذلك دعما للوجبة التقليدية «اللبة» ومياه الصلصة، وهنا فتحت الحديث مداعبًا: يا رجل مش كنت تخلي (تترك) هذا الديك لتأكله أنت وأولادك غدًا في صبيحة يوم العيد؟

جاء رد الشيخ البدوي خليطًا من المزاح والحكمة حيث قال: هذا الديك يسبب لنا مشكلة؛ فأحيانًا يصيح في منتصف الليل فنقول عليه: «مزعج ومجنون»، وأحيانًا أخرى يصيح بعد شروق الشمس فنقول عليه: «مريض»؛ ولذلك أخذت قرارًا بذبحه والتخلص منه، وقمنا بطهيه وها هو الآن أمامنا مقسم إلى أربعة أجزاء.. بالهنا والشفا.

تمر الأيام وأترك الخدمة بالقوات المسلحة، وألتحق بالعمل الدبلوماسي بوزارة الخارجية، ويعاد أمامي سرد نفس قصة الديك الذي يصيح في غير موعده، فيقال عنه: إما مجنون وإما مريض، وفي كلتا الحالتين يذبح.

تعود هذه القصة إلى عام ١٩٨٩ حيث كنت أعمل قنصلًا عامًّا لمصر في إسرائيل. كان الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات (أبو عمار)[1] بصدد عقد «المجلس

---

(١) ياسر عرفات (٢٤ أغسطس ١٩٢٩ القاهرة - ١١ نوفمبر ٢٠٠٤ باريس)؛ سياسي فلسطيني وأحد رموز حركة النضال الفلسطيني من أجل الاستقلال. وهو رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية المنتخب في عام ١٩٩٦. وقد ترأس منظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٦٩ كثالث شخص يتقلد هذا المنصب منذ تأسيسها على يد أحمد الشقيري ويحيى حمودة عام ١٩٦٤، وهو القائد العام لحركة فتح أكبر الحركات داخل المنظمة التي أسسها مع رفاقه في عام ١٩٥٩. كرس معظم حياته لقيادة النضال الوطني الفلسطيني مطالبًا بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.

الوطني الفلسطيني»[1] لإعلان الموافقة على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ [2]وإعلان وثيقة الاستقلال الوطني. كان أبو عمار حريصًا على إطلاع زعماء الدول التي تساند القضية الفلسطينية بقوة على نواياه وقراراته المستقبلية. وفي هذا الشأن أرسل محمود عباس (أبومازن)[3]، الرئيس الفلسطيني الحالي إلى رئيس يوغسلافيا سلوبودان ميلوسوفيتش.

بدأ أبو مازن الحديث بقوله: نحن بصدد عقد المجلس الوطني الفلسطيني لكي نوافق على قرار مجلس الأمن ٢٤٢ المتعلق بالنزاع العربي الإسرائيلي، وسنعلن وثيقة الاستقلال الوطني.

أجاب الرئيس اليوغسلافي: سأقول لكم شيئًا وأرجو أن تضعوه في آذانكم، وتقيموا حساباتكم على أساسه: «إن العالم معوم وسيستمر تعويمه حتى عام ١٩٩٥.. جبال ستظهر ووديان ستغور وتغيرات جيوبولوتيكية ستعم العالم. وستبدأ بدول الكتلة الاشتراكية، أما هذه البلاد (يقصد يوغسلافيا) فستشهد دمًا ومجازر لم يشهدها أحد. يا أحبائي في الشرق الأوسط.. أنتم ومنطقتكم لستم بعيدين عن هذه المتغيرات. كل ما أرجوه منكم وأتمناه عليكم ألا يكون مثلكم كمثل الديك الذي يصيح في غير موعده؛ فإن جاء متقدمًا قالوا: مزعجًا.. وإذا جاء متأخرا قالوا: مريضًا. وفي كلتا الحالتين يذبح.. حافظوا على قضيتكم وخذوا القرار السليم».

---

(١) «المجلس الوطني الفلسطيني» هو الهيئة التمثيلية التشريعية العليا للشعب الفلسطيني بأسره داخل فلسطين وخارجها، وهو الذي يضع سياسة المنظمة ومخططاتها.

(٢) قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، كان نموذجًا «عبقريًّا» من نماذج الصياغات الدبلوماسية التي تعطي لكل طرف من الأطراف ما يمكن أن يستند إليه في طلب الشيء، ثم تعطي لكل طرف من الأطراف ما يمكن أن يتمسك به في طلب نقيض هذا الشيء! بتعبير الأستاذ محمد حسنين هيكل. الذي يقول في كتابه «أكتوبر ٧٣ السلاح والسياسة» لقد «قبل عبد الناصر قرار ٢٤٢ لأنه نصَّ على عدم جواز احتلال الأراضي العربية بالقوة؛ ولأنه طالب بالانسحاب من «أراضٍ محتلة سنة ١٩٦٧م»، وفي نفس الوقت فإن ليفي أشكول رئيس وزراء إسرائيل قبل بنفس القرار لأنه كان يربط ذلك بمفاوضات تأخذ الانسحاب إلى «حدود آمنة ومعترف بها»، وهكذا كان نصف القرار يبدو متعارضًا مع نصفه الآخر. وكانت هناك معضلة في التوفيق بين النصفين. أيهما يمثل نقطة البداية؟ وفي حين أن الطرف العربي أعطى الأولوية للانسحاب تأسيسًا على مبدأ عدم جواز احتلال الأراضي بالقوة، فإن إسرائيل أعطت الأولوية للسلام داخل حدود آمنة ومعترف بها؛ تأسيسًا على أن التفاوض بقصد التوصل إلى حالة سلام هو المقدمة التي لابد منها.

(٣) محمود عباس (أبو مازن) (٢٦ مارس ١٩٣٥ –)؛ الرئيس الرابع لمنظمة التحرير الفلسطينية منذ ١٥ يناير ٢٠٠٥، ويشغل منصب رئيس اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية منذ ١١ نوفمبر ٢٠٠٤ بعد وفاة زعيمها ياسر عرفات.

بمناسبة «العيد الكبير» أتذكر أنني خلال فترة تواجدي في وسط سيناء لتنفيذ مهمة الاستطلاع خلف خطوط كنت أتذكر إحياء ليالي رمضان في صالون منزلنا، وأتخيل شكل الجلوس والحاضرين ونوعية الحديث، الذي تصورته في هذه الفترة مزيجًا من الفخر والاعتزاز بمشاركة اثنين من الأسرة في ملحمة العبور.. مزيجًا من الفخر والاعتزاز والأمل والرجاء. أمل باستكمال النصر والرجاء من الله بعودة الأبناء من الحرب سالمين غانمين، وهذه الدعوة كانت دائمًا والدتي العزيزة - رحمها الله - تدعوها لي كل إجازة ميدانية طوال السنوات الأخيرة: «ربنا يرجعك لنا سالمًا غانمًا».

تمر الأيام وينتهي شهر رمضان وشوال وذي القعدة إلى أن نصل إلى عيد الأضحى المبارك، وتتحرك مأمورية من كتيبة الاستطلاع التي أخدم فيها بتكليف من قائدها العقيد محمود عبد الله إلى منزلنا بقيادة الملازم أول طارق رجب، ومعها تسجيل صوتي، هو الذي سبق إعداده قبل تحركي لتنفيذ المهمة في الخامس من أكتوبر ١٩٧٣، والذي يتضمن ما يطمئن الأسرة على شخصي ويزيل القلق الذي قد يساورهم بشأن مصيري لما طال أمد غيابي دون اتصال.

وصل زميلي إلى منزلنا والتقى والدي العمدة، وأسمعه وبقية أفراد الأسرة التسجيل المذكور. قال لهم: إن أسامة في مهمة وسيعود منها بطلًا.

اطمأن الأهل. وكانت هذه لفتة كريمة من قيادة الكتيبة في إطار أداء الواجب، وحكى لي زميلي عن حفاوة الاستقبال التي قوبل بها من أسرتي عند وصوله إلى القرية وإلى منزلنا.

في نفس الفترة كان شقيقي الرائد عبد الرءوف دائم المرور على قريتنا بطبيعة عمله كقائد سرية شرطة الدفاع الجوي المسئول عن تحريك عناصر الدفاع الجوي إلى الجبهة في منطقة الدلتا، وبحكم عمله هذا كان دائم التحرك على المحاور المختلفة التي تربط قواعد الصواريخ المنتشرة في منطقة الإسماعيلية ومنطقة الشرقية والدقهلية. وفي أثناء الحركة كان يستغل ذلك في المرور على منزلنا لتناول «أكلة حلوة» ويطمئن الأسرة؛ حيث لم يكن التلفون متوفرًا بكثرة في هذه الفترة.

كان الوالد دائم السؤال عني. وكانت إجابات شقيقي تتأرجح ما بين «أسامة في مهمة خاصة»، أو «أنني ضمن القوات الموجودة بثغرة الدفرسوار، وأنني لن أستطيع الاتصال حتى أول نزول إجازة». إلى أن انتهت الثغرة وبدأ الجنود ينزلون في إجازات قصيرة إلى قراهم وذويهم.

وفى إحدى المناسبات التي تواجد فيها شقيقي بالبلد سأله والدي العمدة: الثغرة انتهت، وأنت قلت إنه تم إرسال أسامة إلى القوات الموجودة فيها. والضباط والجنود من كل الأسلحة نراهم في إجازات.. لماذا لم ينزل أسامة في إجازة مثلهم؟

لم يستطعْ شقيقي الرائد عبد الرءوف الرد بإجابة شافية أو مقنعة. الأمر الذي تسبب في انزعاج الوالد وزيادة قلقه. وجه عدة أسئلة إلى شقيقي: هل استشهد؟ هل مازال تحت الحصار رغم أن الثغرة انتهت.. كل الجنود إما عادوا وإما أجروا اتصالات مع ذويهم.. فين أخوك؟ لا تعُدْ إليَّ مرة أخرى إلا ومعك أخوك أو أخبار مؤكده عن مصيره.

عاد شقيقي إلى القاهرة ومنها إلى مقر كتيبة الاستطلاع التي أخدم فيها. قابل قائد الكتيبة العقيد محمود عبد الله، الذي طمأنه عليَّ، وزيادة في الطمأنينة طلب منه الحضور في الساعة السادسة مساء لإجراء اتصال بي؛ حيث إن الاتصال طبقًا للتعليمات يتم في الليل فقط، ولا يتم في غير هذا الموعد إلا عند الطوارئ القصوى. عاد شقيقي في الموعد المتفق عليه، وعند فتح الاتصال سمعت صوت العقيد محمود يقول لي: يا أسامة اتكلم مفتوح.. أخوك عبد الرءوف هيكلمك وبدأنا الحديث.

أود قبل الدخول في تفاصيل ما دار بيني وبين شقيقي من حوار أن أشير إلى أن الأصوات في اللاسلكي تكون مختلفة عنها في الحديث التلفوني العادي. بدأنا الحديث - عبد الرءوف وأنا - بالسلامات والتحيات، وقام شقيقي في إطار الحرص على التأكد من أنني بالفعل أخوه أسامة الذي يتحدث إليه على الناحية الأخرى بتوجيه سؤال إليَّ: تقدر تقول لي كم جنيهًا أخذتهم مني قبل سفرك؟

كانت إجابتي التلقائية: ٩٠ جنيهًا (المبلغ الذي تسلمته للصرف منه على المأمورية).

هنا وجه لي سؤالًا ثانيًا: كان بشيك، ولّا كاش؟

قلت: طبعًا كاش.

هنا صرخ شقيقي قائلًا: ده مش أسامة أخويَ.

قال ذلك لأنه كان قد أعطاني مبلغ ٣٠٠ جنيه بشيك مسحوب على بنك مصر قبل العمليات مباشرة. وقد اختلط عليَّ الأمر، فلم أذكر إلا مبلغ الـ٩٠ جنيها التي قد تسلمتها قبل التحرك من مطار ألماظة لتنفيذ المهمة.

عاد شقيقي إلى البلدة مطأطئ الرأس؛ لأنه لم يتأكد من وجودي. خيَّم الحزن على كل أفراد الأسرة. كانت لي صورة بالزي العسكري في الصالون أحاطوها بـ«لا إله إلا الله.. محمد رسول الله».

غابت البسمة من على شفاه أسرتي. وفي غضون هذه الأيام جاء خطيبٌ يطلب يد إحدى شقيقاتي بعد انتهاء العمليات، ومع بداية التحركات السياسية للانسحاب الإسرائيلي بموجب اتفاقية فض الاشتباك الأول[1] الموقع في ١٨ يناير ١٩٧٤. جاء العريس ليحدد مع الوالد موعد الزفاف. كان رد الوالد حادًا: «لن تكون هناك أفراح إلا بعد عودة أسامة».

في هذه الأثناء كان شقيقي الأكبر ينتظر مولودًا، وكذلك أختي التي تكبرني مباشرة. اتفقت الأسرتان على أن أي مولود ولد سيسمونه «أسامة»؛ تيمنًا بأخيهم الذي قد يكون استشهد في الحرب. خلال هذه الفترة لم تكن تكنولوجيا معرفة الجنين قد ظهرت على الأقل في مصر. رزقت شقيقتي بولد، وسمته «أسامة»، هو الآن المهندس «أسامة عبد المجيد». أما شقيقي فرزق بمولودة بنت.

تمر الأيام والشهور والمجموعة تقوم بأداء مهام الاستطلاع اليومية، وبين الحين والحين نجد دوريات العدو التي لم تيأس من العثور علينا تقوم بأعمال التمشيط في منطقة وادي المليز وبير جفجافة بحثا عن أي قرائن مادية تدل على وجودنا، رغم أن لديهم قرينة فنية وهي الاستطلاع اللاسلكي الذي يؤكد لهم أنه في هذه المنطقة مجموعة عمل ترسل برقياتها باللاسلكي كل مساء رغم وقف القتال وانتهاء مباحثات الكيلو ١٠١، وتعليم خط وقف إطلاق النار بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية في سيناء.

---

(١) حددت اتفاقية فض الاشتباك الأول الخط الذي ستنسحب إليه القوات الإسرائيلية على مساحة ٣٠ كيلومترًا شرق القناة وخطوط منطقة الفصل بين القوات التي سترابط فيها قوات الطوارئ الدولية. وفي سبتمبر ١٩٧٥م تم التوقيع على اتفاقية فض الاشتباك الثاني الذي بموجبه تقدمت مصر إلى خطوط جديدة مستردة حوالي ٤٥٠٠ كيلو متر من أرض سيناء التي تزيد على ٦٠ ألف كيلومتر مربع، ومن أهم ما تضمنه الاتفاق أن النزاع في الشرق الأوسط لن يحسم بالقوة العسكرية ولكن بالوسائل السلمية.

الفصل الخامس عشر

العودة

في ١٦ مارس ١٩٧٤ كنا على موعد مع واحد من أهم الأخبار التي سمعناها في حياتنا. جاءتنا التعليمات من القيادة باتخاذ ترتيبات العودة من سيناء إلى القاهرة، وتركت لي القيادة الحرية في اختيار طريق السير من مكان تمركز المجموعة في منطقة وادي المليز وبير جفجافة إلى القناة.

بعد دراسة جيدة للخريطة قررت أنه من الصعب علينا التحرك في اتجاه الغرب بمحاذاة الطريق الأوسط؛ وذلك لأن السير في هذا الاتجاه يتم في أرض مفتوحة، يصعب التخفي فيها، فضلا عن أن احتمالات الاصطدام بالعدو فيها كبيرة. ومن هنا وجدت أن أنسب طريق للعودة هو استغلال المنطقة الجبلية والتحرك جنوبًا إلى «جبل الراحة»، ثم النزول من الجبل في اتجاه الغرب إلى أن نعبر إلى داخل المنطقة التي تسيطر عليها القوات المصرية بعد خط الفصل بين القوات، وهي مسافة يمكن قطعها خلال فترة ليل.

كانت تعليمات القاعدة بأن أقوم بتجميع مجموعة أخرى في منطقة قريبة وإحضارها مع مجموعتنا بصفتي أقدم الموجودين في هذه المنطقة. أصدرت تعليماتي إلى الشيخ حسب الله - الذي وجدته يعلم بوجود تلك المجموعة من خلال أحد أقاربه المتعاونين معنا - بإبلاغ المجموعة الثانية بموعد العودة الذي ذكرته له.

بالفعل تم تجميع المجموعتين في منطقة بير الجفجافة، وقام الشيخ حسب الله بإحضار عدد من الجمال (حوالي عشرة جمال) بعددنا جميعًا. تحركت القافلة في اتجاه الجنوب في المسالك التي يعرفها جيدًا بدو سيناء. كنا نتجنب أن نصطدم بأي من البدو المتحركين في ليالي هذه الأيام، سواء من لديه صلة بالعدو أو من ليس لديه صلة بهدف التمويه، وخاصة أننا - أنا وزميلي العريف فتحي عبد الهادي فرد اللاسلكي - كنا نرتدي الملابس العسكرية المصرية، أما المجموعة الأخرى فكانت ترتدي الجلباب البدوي.

ورغم الحذر الشديد ومحاولات تجنب الاصطدام بأيٍّ من البدو في خط السير فإن الأمر لم يسلم من ذلك، فلمحنا على مرمى البصر مجموعة من البدو في طريقنا.

كان التصرف الذي اتفقنا عليه عند حدوث هذا الأمر هو أن يقوم فرد من البدو المرافقين (كان عددهم خمسة) بمقابلة البدو القادمين، والحديث معهم وإشغالهم للتمويه على تحركنا، فضلا عن معرفة الأخبار التي لديهم عن دوريات العدو أو أي أخبار بصفة عامة، وهذه عادة البدو في تحركاتهم.. عندما تتقابل خطوط سيرهم يتبادلون الحديث والأخبار. كانت هذه الليلة شاقة إلى أن وصلنا إلى منطقة في جبل الراحة مشرفة على المنطقة المتبقية حتى قناة السويس.

وصلنا ليلا وعند الوصول إلى المنطقة المختارة وبعد اتخاذ إجراءات التأمين اللازمة واتخاذ مزيد من الحذر والحيطة، تم توديع الفرد البدوي المكلف بالعودة إلى القبيلة «الإحيوات» بالجمال العشرة، واصطحبنا معنا إلى القاهرة العدد الباقي من المرافقين البدو؛ حيث كان بعضهم يعاني من بعض المشكلات الطبية؛ ولذلك قررت اصطحابهم لحل هذه المشكلات وعلاجهم في مستشفيات القوات المسلحة بالقاهرة. وعلى ما أذكر أن بعضهم كان يحتاج إلى إجراء عمليات جراحية في العيون.

بعد الوصول واتخاذ إجراءات التأمين الكافية ذهب المرافقون البدو كالعادة إلى أماكن مختلفة لقضاء نهار اليوم الثاني بعيدًا عن المجموعة. أما نحن أفراد المجموعتين فتجمعنا في أحد الكهوف الجبلية المتكاثرة في مثل هذه المناطق الجبلية.

يالها من ليلة تلك المتبقية على عودتنا إلى الأهل والزملاء بعد النجاح وتنفيذ المهام التي كلفنا بها. لم أستطع النوم وانتظرت بشغف طلوع الفجر وإشراقة الشمس للتعرف على المكان الذي نتواجد فيه.

ومع شقشقة الفجر اكتشفت أننا في مكان غاية في الجمال والروعة.. منطقة جبلية محاصرة بالخضرة، يخرج فيها الشجر القصير من بين الصخور. تحركت لمسافات قصيرة شرقًا وغربًا شمالًا وجنوبًا حيث تأكدت أن هذه المنطقة مؤمنة بالقدر الكافي. ووجدت في المنخفض بركة من المياه أكبر كثيرًا من حمامات السباحة الأوليمبية ومياها فيروزية. ولا عجب في ذلك؛ فنحن في شهر مارس بعد انتهاء فصل الشتاء وهذه مياه مطر مجمعة وهذه مزروعات أنبتها الله سبحانه وتعالى، وإذا بي أدعو جميع الزملاء للنزول إلى هذه المياه.. إنها أول مرة منذ حوالي ستة أشهر تلمس المياه جسدي.

وهنا تذكرت الأوقات التي كنت أقضيها في إجازة الصيف على شواطئ الإسكندرية، أو عندما كنت في معسكر مرسى مطروح حيث جمال شواطئ: الأبيض وعجيبة وشاطئ الغرام.

إنها مصر بسحرها من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب. قضيت أمتع ساعات لن أقول في حياتي، ولكن في مأموريتنا.

استحممنا واغتسلنا وغسلنا بعض ملابسنا ونشرناها لكي تجف خلال فترة النهار. ليس لدينا أي أطعمة جافة ونحن جالسون خلال النهار في كهف مؤمَّن لا يستطيع أحد من الخارج ملاحظة ما يدور بداخله. المنظر خلاب الخضرة والمياه الزرقاء ولون المنطقة الجبلية في الخلفية أكثر من رائع.

مرة أخرى أقول: إن هذا المكان يصلح لكي يكون مشروعًا لمنتجع سياحي يفوق ما نراه في أماكن سياحية كثيرة. إنها سيناء ذات الإمكانيات المتعددة؛ ففيها منطقة المغارة أول ما وطأت أقدامنا بعد هبوطنا من الطائرة في منطقة المناجم والمعادن. وهنا في جبل الراحة المشرف على منطقة عيون موسى وخليج السويس.

يمر النهار ونقترب من وقت الغروب ينضم إلينا الشيخ حسب الله ورفاقه من البدو. ومن هيئة مشرفة على المنطقة المفتوحة التي تفصل الجبل عن شمال الخليج ومدخل القناة في منطقة بورتوفيق نقوم بإجراء استطلاع بالنظر في محاولة لاكتشاف أي تجمعات للعدو شرق خط فصل القوات.

تتحرك المجموعة مع غروب الشمس في اتجاه الغرب مباشرة، يتقدمها على مسافة ليست بعيدة أحد رفاق الشيخ حسب الله.

ومع بزوغ نور الفجر لاحظت أننا نعبر خط فصل القوات، وبعد فترة في السير إذا بنا على الطريق الأسفلتي الموازي للقناة، والذي يقال عليه «الطريق العرضي رقم ٣»[1]، لاحظنا أعلام القوات المسلحة المصرية.

هنا وهنا فقط نستطيع أنْ نقول إننا أنهينا المأمورية التي بدأت مع الساعات الأولى لحرب التحرير واستعادة الكرامة، اليوم ٢١ مارس سنة ١٩٧٤.. تذكرت أمي في هذه اللحظات حيث إن هذا اليوم هو يوم «عيد الأم»، وتذكرت دعاءها الأثير لي بأن أعود إليها سالمًا غانمًا، وها هي دعوتها يستجاب لها من قبل رب العالمين، وأعود بعد ٦ أشهر خلف خطوط العدو.

كان مكتب مخابرات السويس بقيادة العميد فتحي عباس على علم بوصول المجموعة (مجموعتنا والمجموعة الثانية التي انضمت إلينا تحت قيادتي)؛ ولذلك كانت هناك دوريات بعربات جيب في انتظار وصولنا لتقلنا إلى السويس. وبالفعل تم التعارف وتحركنا جميعًا المجموعة والمرافقون من بدو سيناء إلى مكتب مخابرات السويس.

---

(١) يقع هذا الطريق العرضي غرب منطقة المضايق مباشرة، ويبدأ من رمانة شمالًا إلى بئر «أبو جراد» الواقع على المدخل الغربي لوادي سدر الجبلي جنوبًا، ويمر بالطاسة، وطريق الجدي، وطريق الحاج، وطريق متلا ويسمى «عرضي ٣».

كان في استقبالنا جميع ضباط وجنود المكتب، وكان على رأسهم العميد فتحي عباس وكان استقبالًا حارًا.. فالوقت وقت الصباح، وإذا بالعميد فتحي يرحب بنا ترحيبًا شديدًا وكان قد تم إعداد مائدة إفطار لن أنساها مادمت حيًا. كما أنني لن أنسى «عزومة الديك» ليلة عيد الأضحى. مائدة الإفطار كانت تحتوي على الكثير من الأصناف التي لم نتذوقها منذ بدء المهمة، بالإضافة إلى أصناف أخرى منها «الكعك» و«البيتي فور». وكان تعليق العميد فتحي عباس أننا لم نعيِّد في العيد، ولكن اليوم بعودتكم إلينا هو عيد كبير.

كانت قيادة الكتيبة تلقت منا اتصالًا لاسلكيًا عند عبورنا خط فصل القوات. وقامت بإجراء الاتصال بمكتب السويس، ثم قامت بإرسال عربات جيب من القاهرة للسويس لاصطحابنا إلى القاهرة. وخلال فترة انتظار وصول المركبات من القاهرة أتاح لنا السيد العميد عباس فرصة إجراء اتصالات بالأهل من مكتب السويس.

اتصلت بشقيقي أحمد الذي كان يسكن في المنيل، وعندما سمع صوتي وكان وقتها قد فرغ من صلاة الصبح وقع التلفون من يده، وانقطع الاتصال ثم عاودت الاتصال به مرة أخرى. تبادلنا أطراف الحديث، وهنا وهنا فقط تأكد بأنني ما زلت حيًا، وبعد انتهاء المكالمة اتصل على الفور بالوالد والأسرة وزفَّ لهم الخبر السعيد. في نفس الوقت قمت بالاتصال بشقيقي عزمي وشقيقتي حنان، اللذين كانا يسكنان في القاهرة.

وصلت مركبات الكتيبة إلى مكتب السويس. وبعد تناول الإفطار ذي الأصناف الشرقية والغربية الشهية، ولِمَ لا؟ فنحن اليوم عائدون بعد تحقيق النصر والشهية مفتوحة.. عائدون بعد تنفيذ ما عاهدنا الله والشعب عليه وهو استعادة الكرامة. وبعد الاستقبال الحافل من جانب أفراد ورئيس مكتب مخابرات السويس قمت بتوجيه الشكر للسيد العميد فتحي عباس واستأذنا في الانصراف. وتوجهنا إلى المركبات الجيب للتحرك من السويس إلى القاهرة؛ حيث مقر الكتيبة.

كانت التعليمات أن يقوم الضابط المرافق الذي حضر من القاهرة مع مركبات الجيب بإبلاغ قيادة الكتيبة كل نصف ساعة عن مكان وصول المجموعة.

عندما اقتربنا من مقر الكتيبة اكتشفنا أن هناك استقبالًا حافلًا. تم حشد عدد كبير من الجنود مع تشغيل إذاعة محلية للترحيب بنا. وموكب من الجمال المزينة بالأعلام تتحرك أمامنا.

كانت هناك لفتة كريمة من قيادة الكتيبة نحوي؛ حيث لاحظت من بين المستقبلين لنا شقيقي أحمد المندوه، وهو المدني الوحيد بين جميع المتواجدين، وكذلك وجدت شقيقي عبدالرءوف المندوه قائد سرية الشرطة العسكرية.

حيث قامت الكتيبة بإرسال مركبة إلى شقيقي أحمد في حي المنيل على النيل وإحضاره إلى مقر الكتيبة قبل وصولنا. وقامت بالاتصال بالرائد عبد الرءوف المندوه وإبلاغه بوصولي وطلب الحضور لكي يتواجد في الاستقبال لتعويض ما تعرضا له منذ شهرين عندما كان يحاول التعرف عليَّ عن طريق اللاسلكي، يعني تعويض سوء الفهم الذي تسببت فيه عندما أخطأت فهم الأسئلة التي وجهها إليَّ.

استقبال رائع من جانب القيادة وجنود الكتيبة، وأعتقد أن جنود الوحدات المجاورة قد شاركت أيضًا؛ لأن الحشد كان كبيرًا. ولا عجب في ذلك؛ فنحن أفراد وقيادات القوات المسلحة ممثلة في قيادة وأفراد كتيبتنا عندما نريد أن نتقن شيئًا نتقنه؛ فالإتقان والإحساس بالمسئولية مهارتان تكتسبان بالخدمة في صفوف القوات المسلحة. مثلها مثل التضحية والفداء من أجل الله والوطن.

استمر الاحتفال لوقت ليس بالقصير، وظهرت حالة الإعياء علينا جميعًا، وعقب الاحتفال كانت تعليمات العقيد محمود عبد الله، قائد الكتيبة هي السماح لنا بالذهاب إلى منازلنا وأسرنا على أن نعود في التاسعة من صباح اليوم التالي؛ لأن هناك موعدًا محددًا للقاء السيد المشير أحمد إسماعيل وزير الحربية، واللواء فؤاد نصار مدير المخابرات الحربية.

وأكد العقيد محمود عبد الله على عدم تغير الحالة التي نحن عليها، بمعنى أن نبقى بنفس الملابس ونفس الشكل وبنفس الهيئة التي نحن عليها حتى تكون المقابلة واقعية وتاريخية. وبالفعل بقينا على هذه الحالة إلى أن قابلنا السيد المشير أحمد إسماعيل في صباح اليوم التالي. والصورة التي التقطناها معه كانت بهذه الهيئة التي عدنا عليها من مهمتنا في عمق سيناء، والموجودة في ملحق الصور نهاية هذا الكتاب.

والآن وبعد ما يزيد على ٤٣ عامًا عندما أنظر إلى هذه الصورة أتذكر على الفور ما عشناه في مهمتنا، ولذلك أرى أنه لو سمح لنا بتغيير الملابس وحلاقة الذقن والشعر وارتداء الملابس العسكرية الرسمية لكانت الصورة ستصبح عادية.. فقد تم تسجيل الصورة في شكل غير عادي ومناسبة غير عادية لا تتكرر كل يوم.. فالإنسان لا يحقق الكثير من هذه البطولات في حياته.

تحركت من الكتيبة بعد الانتهاء من حفل الاستقبال أنا وشقيقي أحمد إلى منزله في حي المنيل، وخضعت بقية ذلك اليوم لحملة نظافة عامة.. من استحمام واسترخاء واتصالات مع جميع الأشقاء وبالوالد والوالدة ببلدتنا أبو ذكري - دقهلية.

بعد الوصول وبعد الاتصالات اجتمع الأشقاء المتواجدون بالقاهرة في المساء حولي في جلسة عائلية تتخللها نظرات الإعجاب والإشفاق.. الإعجاب بالبطولة والإشفاق عليَّ من حالة الإعياء التي كنت عليها.

الفصل السادس عشر

لقاء المشير أحمد إسماعيل

في صباح اليوم التالي استيقظت مبكرًا وقمت بإجراءات الصباح من صلاة وإفطار ولبس الملابس الرثة التي عدنا بها من مهمتنا، وكل ذلك دون حلاقة ذقن. كانت العربة الجيب تنتظرني أسفل منزل أخي. نزلت وتوجهنا إلى مقر الكتيبة. كان في استقبالنا السيد قائد الكتيبة لمرافقتنا إلى وزارة الحربية (أصبح اسمها وزارة الدفاع فيما بعد) للقاء القائد العام ووزير الحربية.

وصلنا مكتب المشير أحمد إسماعيل بالفعل، جلسنا جميعًا بالصالون المجاور انتظارا للحظة التاريخية بالنسبة لنا حيث لقاء المشير، الذي قاد القوات المسلحة إلى نصر أكتوبر. إنه لقاء التكريم حقًا؛ فالتواجد في مكتب الوزير والالتقاء به لا يحدث في العمر بالنسبة للضباط كثيرًا. كنا قد منحنا وسام النجمة العسكرية قبل انتهاء المأمورية، ولعل القارئ الكريم ممن عاصر هذه المرحلة يتذكر جلسة مجلس الشعب التي كرم فيها السيد الرئيس أنور السادات قادة القوات المسلحة، واستحدث وسام نجمة سيناء. غير أنني أؤكد على أن التكريم الذي كنت أنتظره في هذه اللحظة بلقاء وزير الحربية المنتصر - من وجهة نظري - تكريم معنوي يفوق الحدود.

مرَّ الوقت سريعًا ودخلنا إلى مكتب السيد المشير إسماعيل وكان في استقبالنا على الباب. ثم اصطففنا بالأقدمية، وكنت أقدم الحاضرين. وبعد كلمات كلها إشادة بالمجهود والتضحية والفداء الذي قدمناه في سبيل الله والوطن، قال لنا: ماذا يريد كل بطل منكم؟ اطلبوا ما تشاءون. وبدأ بالنظر إليَّ.

فقلت: أستأذن سيادتكم بأن نبدأ من اليسار حيث الأحدث مني في الرتبة حتى لا يتأثر الجنود بإجابتي.

وافق المشير على اقتراحي. وكل طلب ما أراده أو ما يريده.

وعندما وصل الدور إليَّ أجبت بأنني لا أريد شيئًا. حقًا لا أريد شيئًا. الحمد لله قد أدينا المهمة بنجاح ونلت أرفع الأوسمة وهو وسام «النجمة العسكرية».

تعجب السيد الوزير، وقال للسيد اللواء فؤاد نصار: «خذه عندك المكتب وشوف كل طلباته».

خلال اللقاء حضر المقابلة الشيخ حسب الله، وكانت هناك كلمات من المداعبة المشتركة بيني وبين السيد المشير بخصوص الشيخ حسب الله. والتي تظهر فيها ابتسامات الشيخ الذي نادرا ما يبتسم، كما هو واضح في صورة الشيخ حسب الله مع السيد المشير في ملحق الصور نهاية هذا الفصل.

لا أنسى أن أذكر أنني قلت للسيد الوزير إنني أرجو من سيادتك أن تصدِّق على منح علم كتيبتنا - بما قدمته وبما حصلت عليه من أوسمة وأنواط تفوق ما حصل عليه بعض الوحدات - وساما على غرار ما حدث مع بعض الوحدات المتميزة الأخرى.

وهنا قال اللواء فؤاد نصار، مدير المخابرات الحربية: إن قواعد منح أعلام تشكيلات القوات المسلحة للأنواط والنياشين في القوات المسلحة تقضي بأن أقل وحدة يمنح علمها الأنواط والنياشين هي «الفوج» (تشكيل يتكون من عدد من السرايا، يزيد عن الكتيبة)، والكتيبة أقل من الفوج.

وخلال اللقاء قلت بشيء من الابتسام للسيد الوزير: كيف تكون مهمتي تسعة أيام وتصل إلى ستة شهور؟

فكانت إجابته شافية ومقنعة، حيث قال: كانت لدينا «حنفية معلومات» عن العدو.. هل يعقل أن نغلقها ونحن في أشد الحاجة إليها؟ كانت المعلومات التي تصل منكم مفيدة ورائعة نظرا لثقتنا الغالية فيكم.

وخلال المقابلة لم ينسَ السيد المشير أن يكلف السيد اللواء فؤاد نصار بضرورة إجراء كشف طبي عام على جميع أفراد المأمورية.

بعد المقابلة انصرف الجميع على موعد اللقاء في اليوم الثاني للذهاب إلى مستشفى المعادي لإجراء الكشف الطبي.

انصرف الجميع أما أنا والسيد العقيد محمود عبد الله فقد توجهنا إلى مكتب السيد مدير المخابرات الحربية تنفيذا لأمر السيد المشير عندما قال: خذه يا نصار وشوف طلباته.

عندما دخلت إلى مكتب السيد مدير المخابرات الحربية..

ارتفعت نبرة الحديث.. السيد اللواء فؤاد نصار قال بصوت مرتفع: وزير حربية مصر بعد نصر أكتوبر يقول لك: عايز حاجة؟ تقوله: مش عايز حاجة.

يعني عندك شقة في إسكندرية، وعندك شقة في وسط البلد، وعندك وعندك..؟
كانت إجابتي:
ما عنديش ولا حاجة من اللي سيادتك بتقوله ده.
فعلًا لم يكن عندي سوى شقة قمت بدفع مقدمها في حي مصر الجديدة. عندما ذكرت ذلك كرر مرة أخرى: مش عايز أي حاجة؟ مش عايز نركب فيها تلفون؟ أجبت: الناس واقفة في طابور طويل لتركيب التلفونات.
التقط السيد الوزير الكلمة وهو ما صدق أنني نطقت وقال لسكرتيره: شوف العنوان. قلت له: مش فاكره. قاله: شوف وتركبوله هناك تلفون فورًا.
وبعد ذلك توجهت إلى المنيل حيث منزل شقيقي أحمد، الذي كنت معتادًا على زيارته في الإجازة الميدانية، سواء زيارة في المنزل أو زيارة في مقر عمله وهو التلفزيون نظرًا لعلاقتي الخاصة به؛ لأنه ليس الأكبر فيأخذ احترام الوالد مثل أخي محمد عزمي (اسم مركب) ولكنه كان شقيقي وصديقي. أما شقيقي الثالث عبد الرءوف قائد سرية الشرطة العسكرية فكانت علاقتي به هي علاقة الشقيق والزميل فكنت معتادًا على زيارته في مقر سرية الشرطة العسكرية حيث يتواجد معظم الأيام. ولم أنسَ زيارة شقيقتي التي تكبرني في السن بمنزلها بالدقي.
في اليوم الثاني ذهبنا إلى مستشفى المعادي وكان يرافقنا المقدم إبراهيم البحبوحي أعتقد أنه بعد انتهاء خدمته العسكرية فتح محلات «السلام شوبنج سنتر للمحجبات». كانت جميع الاختبارات الطبية بالنسبة لي ممتازة، وهنا تذكرت المثل القائل: صحة البدن في قلة الطعام. في نفس الوقت الذي كنا نجري فيه الفحوصات الطبية بمستشفى المعادي كان الشيخ حسب الله ورفاقه يجرون نفس الاختبارات بمستشفيات القوات المسلحة (كوبري القبة والحلمية) كل حسب المشكلات التي كان يعاني منها.
بعد إجراء الفحوصات الطبية حصلت على إجازة ١٥ يومًا هي الأطول خلال سنوات خدمتي بالقوات المسلحة. توجهت على الفور إلى قريتي أبو ذكري - دقهلية، بعد دخولي إياها لم أجد أحدًا من «جنرالات المصاطب»، وكم كنت أتمنى وجودهم في طريقي بعد تحقيق النصر، بالعلم والمعرفة لا بـ«الفهلوة» والإفتاء فيما لا علم لهم فيه.
وصلت إلى منزلي، حيث اللقاء الأهم والأعظم بالنسبة لي بعد انتهاء الحرب؛ ألا وهو لقاء الوالدة والوالد. كان لقائي بوالدتي لقاءً عاطفيًا لا يوصف. يمكن أن

نسميه لقاء الدموع.. دموع الفرح بالعودة والانتصار وتحرير الأرض. أما لقاء الوالد المعروف عنه الصلابة فكان خليطا من العاطفة والفخر والاعتزاز بأصغر أبنائه الذي عاد منتصرًا. حقًا كان بمثابة يوم عيد للأسرة كلها، انقلب فيه الحزن والوجوم اللذان خيَّما على الأسرة برمتها إلى فرح وبهجة.

كان بين الحين والآخر يأتي لزيارتي خلال فترة الإجازة التي قضيتها بالمنزل بعض الأصدقاء زملاء الدراسة والأقارب. لكن ما يعلق بذاكرتي حتى اليوم هو لقائي ببعض ما أسميهم «جنرالات المصاطب» في قريتنا. حدث أن التقيتهم في أحد الأيام بعد صلاة الجمعة. كانت مقابلتهم هذه المرة بعد تحقيق النصر مختلفة عما كان بعد النكسة. فلا تهكم ولا لوم ولا فتاوى في أمور الحرب والقتال. بل وجدت منهم الشكر والثناء والفخر بقواتنا المسلحة وتهنئة بالنصر العظيم.

قضيت الإجازة في منزلنا بجوار والدي ووالدتي التي قامت برعايتي رعاية كاملة غير منقوصة، من حيث التغذية والراحة الكاملة في حديقة المنزل، التي كانت بمثابة خيمة أكسجين.

انتهت الإجازة وعدت إلى الكتيبة لاستئناف الحياة العسكرية الطبيعية بعيدًا عن ضغوط العمليات والقتال، وتم استئناف العمل اليومي في إطار رفع الكفاءة القتالية والاستفادة من الدروس التي خرجنا بها في حرب التحرير والنصر في مجالات العمل المختلفة (الاتصالات - الشفرة - تكتيكات العدو ....). كانت لحرب أكتوبر تأثيرات إيجابية سواء في مجالات العمل التدريبي والقتالي المختلفة أو على الروح المعنوية لجنود وضباط القوات المسلحة، الذين استعادوا الكرامة الوطنية للشعب المصري. ووضح تلاحم وحب الشعب لجنوده وضباطه أفراد القوات المسلحة. أعتقد أن ذلك كان الوجه الآخر لما كانت عليه العلاقة بعد نكسة ١٩٦٧.

وفي أحد أيام شهر مايو ١٩٧٤ حدثني صديق لي بأن هناك صورة لي قامت إحدى الصحف بنشرها، ويظهر فيها وزير الدفاع السيد المشير أحمد إسماعيل، فقمت بشراء هذه الجريدة وكانت جريدة «صوت الجامعة» التي تصدرها كلية الإعلام بجامعة القاهرة. وكان حديث السيد المشير يتناول حرب أكتوبر وكيفية الإعداد لها وإجراءات الخداع الإستراتيجي التي نفذتها القوات المسلحة وباقي وزارات الدولة وخاصة الخارجية والإعلام.

كان حديث السيد المشير لـ«صوت الجامعة» في ٢٧/ ٥/ ٧٤ قد جاء بعد المحاولة الفاشلة للجماعة الإرهابية التي يطلق عليها «التكفير والهجرة»، هذه المحاولة التي غررت بها الجماعة ببعض طلاب الكلية الفنية العسكرية وتجنيدهم لتنفيذ مهام وأهداف مشبوهة. لكن بفضل الله تم إحباطها والقبض على من يقف وراءها.

وأعتقد أن الهدف الأساسي أو الرئيسي من هذه المحاولة هو الإساءة إلى أفراد القوات المسلحة بعد أن ارتفعت أسهمهم لدى الشعب بعد حرب أكتوبر.

وأعتقد أن اختيار سيادة المشير للصورة التي تجمعنا معه كانت لتوضيح حجم التضحيات التي قدمها ويقدمها شباب القوات المسلحة؛ حيث إن الصورة تضم جنودًا وضباطًا شبابًا. وعمومًا، فشلت محاولة صالح سرية قائد هذا التنظيم الإرهابي كما فشلت وستفشل جميع محاولات الجماعات الشريرة في اختراق العلاقة بين الجيش والشعب.

انتهت الحرب ولم تنتهِ مهام رفع الكفاءة القتالية لعناصر ووحدات القوات المسلحة من خلال القيام بالمهام التدريبية.

وعلى المستوى الشخصي، لم أتوقف عن الالتحاق بالفرق التعليمية سواء التخصصية أو التثقيفية، وأذكر منها الالتحاق بدورة لدراسة اللغة العبرية في مدرسة المخابرات الحربية التي كانت تحرص على أن يكون معلموها من أفضل الضباط علمًا وانضباطًا، ومن أفضل أساتذة الجامعات عند تعليم اللغات، هذه الدورة تعلمت فيها اللغة العبرية على طريقة الرياضة خاصة في مادة القواعد. إلى أن جاء يوم آخر بعد ترك الخدمة في القوات المسلحة والالتحاق بوزارة الخارجية والعمل في سفارتنا في تل أبيب لأعود لتعلم العبرية، ولكن هذه المرة في معهد تعليم اللغة العبرية في تل أبيب مع المهاجرين الجدد لإسرائيل.. ولهذا حكاية أخرى...

تم بحمد الله.

المراجع

- أنور السادات، البحث عن الذات.. قصة حياتي، دار المكتب المصري الحديث، القاهرة. بدون تاريخ.
- جمال حماد، المعارك الحربية على الجبهة المصرية.. حرب أكتوبر ١٩٧٣، دار الشروق، ط١، القاهرة ٢٠٠٢م.
- حسن البدري، الحرب في أرض السلام الجولة العربية الإسرائيلية الأولى (١٩٤٧-١٩٤٨م)، دار الوطن العربي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٧٦م.
- خالد أبو بكر، الجنرال الثائر.. سعد الدين الشاذلي، مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٢م.
- خالد أبو بكر، ٦٥ عامًا على النكبة.. العمليات الحربية للجيش المصري في حرب فلسطين ١٩٤٨، جريدة الشروق، عدد ٢٠ مايو ٢٠١٣م.
- سعد الشاذلي، مذكرات حرب أكتوبر، دار بحوث الشرق الأوسط الأمريكية، ط ٤، سان فرانسيسكو، ٢٠٠٣.
- كمال حسن علي، مشاوير العمر.. أسرار وخفايا ٧٠ عاما من عمر مصر (الحرب والمخابرات والسياسة)، دار الشروق، ط٢، القاهرة ١٩٩٤م.
- محمد حسنين هيكل، العروش والجيوش.. كذلك انفجر الصراع في فلسطين.. قراءة في يوميات الحرب، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨م.
- محمد حسنين هيكل، أكتوبر ٧٣ السلاح والسياسة، ط٢، دار الشروق، القاهرة ٢٠١٠م.
- محمد حسنين هيكل، عند مفترق الطرق (حرب أكتوبر.. ماذا حدث فيها، وماذا حدث بعدها؟)، دار الشروق، ط١، القاهرة، ٢٠٠٣.
- محمد عبد الغني الجمسي، مذكرات الجمسي.. حرب أكتوبر ١٩٧٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- محمد عبد القادر حاتم، دور الإعلام المصري في تحقيق المفاجأة الإستراتيجية في حرب أكتوبر ١٩٧٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- موسوعة مقاتل في الصحراء، حرب الاستنزاف، النسخة الإلكترونية.
http://www.moqatel.com/openshare/flash.html
- موسى صبري، وثائق حرب أكتوبر، دار المكتب المصري الحديث، القاهرة، ١٩٧٤م.

ملحق الصور



المشير أحمد إسماعيل مستقبلًا الرائد أسامة المندوه في مكتبه في مارس ١٩٧٤



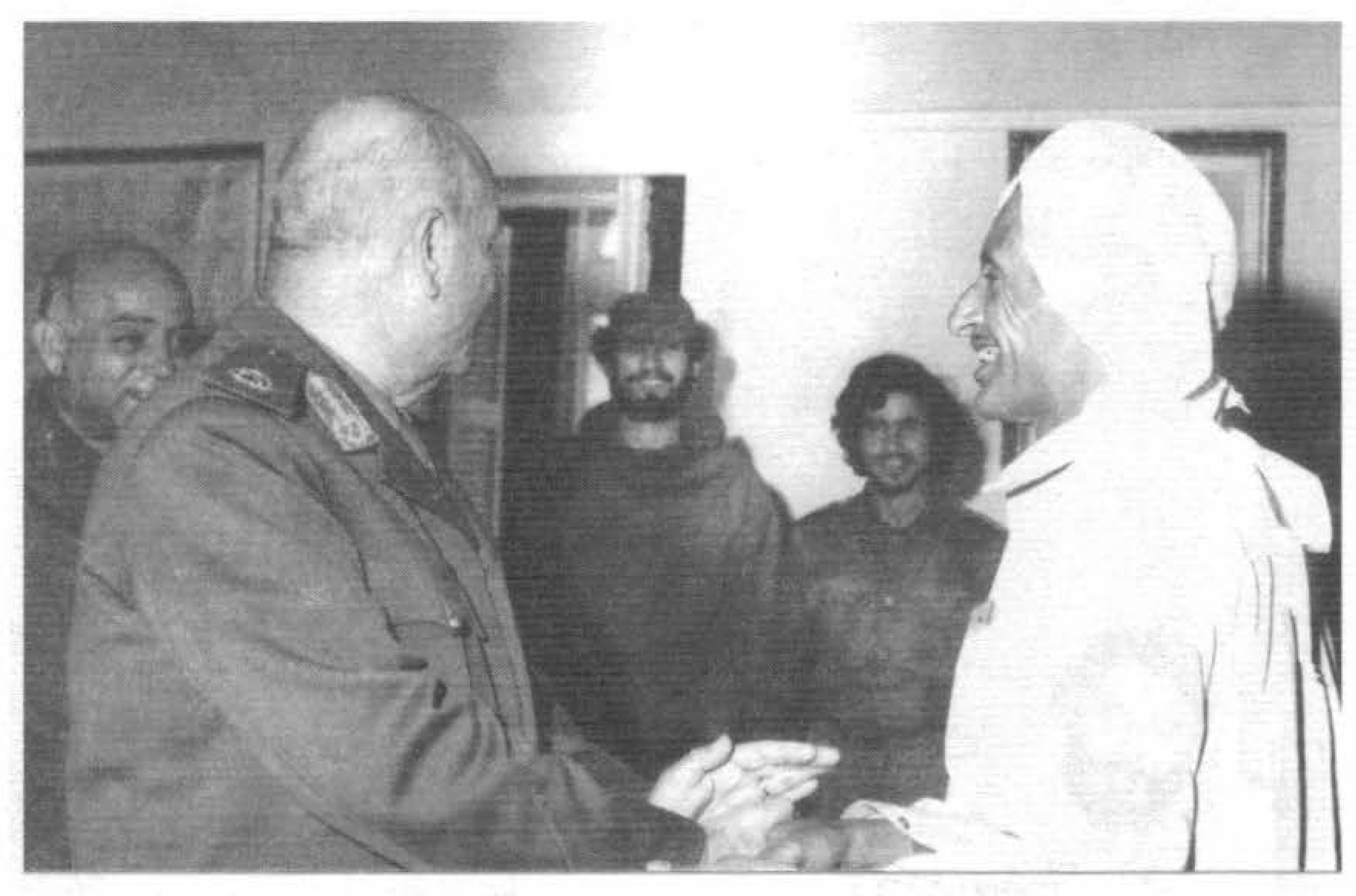
حرس الشرف في انتظار عودة الأبطال بعد أن أدوا مهامهم خلف خطوط العدو



الرائد أسامة المندوه (اليسار) والعريف فتحي عبد الهادي (يمين) مع أبطال آخرين في انتظار مقابلة المشير أحمد إسماعيل وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة في مكتبه



اللواء فؤاد نصار، مدير المخابرات الحربية يصافح المشير أحمد إسماعيل وخلفه الرائد أسامة المندوه



حديث باسم بين المشير أحمد إسماعيل ومن خلفه اللواء فؤاد نصار، مدير المخابرات الحربية، والشيخ حسب الله دليل المجموعة «لطفي» والرائد أسامة المندوه



صورة تذكارية لأبطال مجموعات خلف الخطوط مع وزير الحربية ومدير المخابرات الحربية



صورة تذكارية لرجال مجموعات خلف الخطوط بتوقيع المشير أحمد إسماعيل



بسم الله الرحمن الرحيم

حسين طنطاوي

من المشير محمد حسين طنطاوي رئيس المجلس الأعلى للقوات المسلحة

إلى السيد اسامه المندوه السيد البسيوني

تقديراً لحميد صفاتكم وجليل خدماتكم للدولة

قد منحناكم وسام **الاستحقاق** من الطبقة **الأولى**

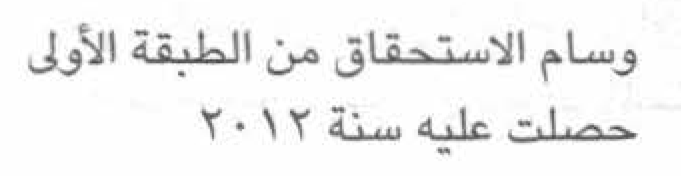
وأمرنا بإصدار هذه البراءة إيذاناً بذلك

تحريراً بالقاهرة في اليوم السابع من شهر رجب

سنة ألف وأربعمائة وثلاث وثلاثين من هجرة خاتم المرسلين

٢٨ مايو سنة ٢٠١٢





وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى

حصلت عليه سنة ٢٠١٢

أنور السادات

من أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية

إلى نقيب أسامة المندوه السيد البسيوني ، من الجيش

تقديراً لما قمتم به بتفانٍ وإخلاص من أعمال استثنائية وممتازة

تدل على التضحية والشجاعة في مواجهة العدو في ميدان القتال ،

قد منحناكم وسام النجمة العسكرية

وأمرنا بإصدار هذه البراءة إيذاناً بذلك .

تحريراً بقصر الجمهورية بالقاهرة في اليوم السابع والعشرين من شهر المحرم

سنة ألف وثلاثمائة وأربع وتسعين من هجرة خاتم المرسلين .

١٩ فبراير ١٩٧٤

رئيس ديوان رئيس الجمهورية



وسام النجمة العسكرية، حصلت عليه من الرئيس أنور السادات سنة ١٩٧٤، وهو وسام يمنح لأي ضابط في القوات المسلحة، قام بأعمال ممتازة، تدل على التضحية أو الشجاعة في ميدان القتال، أو قدم خدمات جليلة للوطن أو للقوات المسلحة.



خلف خطوط العدو

من بطولات حرب أكتوبر ٧٣

• يروي هذا الكتاب قصة بطولة من أروع البطولات التي قام بها رجال القوات المسلحة خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣، تتمثل في مجموعة استطلاع مصرية «المجموعة لطفي»، بقيادة النقيب «أسامة المندوه»، دفعتها القيادة للتمركز خلف خطوط العدو وفي قلب تجمعاته؛ حيث مركز القيادة والسيطرة الإسرائيلي الرئيسي في «أم مرجم» و«مطار المليز» الحربي، في وسط سيناء.

• يسرد بأسلوب سلس جذَّاب ومشوِّق كيف نجحت «المجموعة لطفي» في أن تَعُدَّ على العدو حركاته وسكناته وآلياته في عمق سيناء، والإسهام في الكشف المبكر عن نواياه لمدة ستة أشهر بدأت مع آخر ضوء يوم ٦ أكتوبر.

• يستعرض الكتاب الجهود المضنية التي بذلتها القوات الإسرائيلية للقبض على أبطال المجموعة بكل ما تملك من تكنولوجيا، غير أنها فشلت وعاد النقيب «أسامة المندوه» برجاله سالمين إلى القاهرة ليستقبلهم وزير الحربية، المشير أحمد إسماعيل في مكتبه.

• يبرز التلاحم الرائع بين رجالنا خلف خطوط العدو والمواطنين المصريين من قبائل سيناء، الذين كانوا خير مُعين لهم على تنفيذ مهامهم الجسام؛ حتى تحقق النصر.

اللواء أسامة المندوه: ضابط استطلاع مصري، ولد في محافظة الدقهلية سنة ١٩٤٨، تخرَّج في الكلية الحربية في ديسمبر ١٩٦٧. أحد أبطال حرب أكتوبر ١٩٧٣؛ حيث شارك فيها وهو برتبة «نقيب». حصل على وسام النجمة العسكرية تقديرًا للأعمال البطولية التي قام بها خلال الحرب. كما حصل على ميدالية الخدمة الطويلة، ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى سنة ٢٠١٢. وعَمل لفترة من حياته بالسلك الدبلوماسي. كما خَدم في جهاز المخابرات العامة، وتدرَّج في المناصب حتى وصل إلى وكيل أول الجهاز.





دار الشروق
www.shorouk.com